

الدكتور أحمد الطاهري

المغرب الأقصى ومملكة بني طريف البرغواطية

خلال القرون الأربع الهجرية الأولى



حضرية تاريخية في أصول مجهولة





المغرب الأقصى
ومملكة بني طريف البرغواطية
خلال القرون الأربعة الهجرية الأولى



الدكتور أحمد الطاهري

المغرب الأقصى ومملكة بني طريف البرغواطية

خلال القرون الأربع الهجرية الأولى

حفريات تاريخية في أصول مجهولة

إلى

الفلاف ،
أسوار شالة حاضرة البرغواطيين
تصوير فاطمة الزهراء أيتوتهن

جامعة عبد المالك السعدي	
خزانة كلية الآداب	
رقم التسلسل	4280
رقم الصنف	960 ط.أ.م
تاريخ الاستدعاء	20-04-07

الطبعة الأولى 2005-1426
© جميع الحقوق محفوظة



إهداء

إلى روح مؤرخ المغرب الذي أفنى عمره مجتهدا في إبراز معالمه

دون أن يحظى بما يستحقه من تقدير

العلامة محمد المنوني

وإلى

أبناء البلد من شباب المجتهدين في طلب المعارف

وعموم المهتمين بذاكرة المغرب التاريخية



الخط

مستند رقم ١٢٣٤٥٦٧٨٩٠
تاريخ ١٢٣٤٥٦٧٨٩٠
موقع ١٢٣٤٥٦٧٨٩٠

١٢٣٤

مستند رقم ١٢٣٤٥٦٧٨٩٠
تاريخ ١٢٣٤٥٦٧٨٩٠
موقع ١٢٣٤٥٦٧٨٩٠

مستند رقم ١٢٣٤٥٦٧٨٩٠
تاريخ ١٢٣٤٥٦٧٨٩٠
موقع ١٢٣٤٥٦٧٨٩٠

مستند رقم ١٢٣٤٥٦٧٨٩٠
تاريخ ١٢٣٤٥٦٧٨٩٠
موقع ١٢٣٤٥٦٧٨٩٠

مقدمة

ما ان انتهينا في خريف 1998 من إنجاز كتاب من 252 صفحة عن تاريخ مملكة بني صالح في بلاد نكور، حتى تجلت إمكانات ترميم فصول واسعة من تاريخ المغرب الأقصى، مما ظل في غياهب النسيان. وقد أشرنا في حينه إلى ما تتم عنه النتائج المستخلصة من دعوة عموم الباحثين إلى التوقف عن مساهمة الدعوات التي ضجت على مدار قرن مضى بالتنظير للقرون المظلمة، والتذرع بشح المادة التاريخية، وبث اليأس من ترميم فصول تاريخ البلد المخرومة.

وإذا كان لجيل الرواد¹ من مؤرخي المدرسة الفرنسية — وهم في طور التعرف على أولى مستويات المكتبة المغربية الأندلسية — ما يبرر ذاك الانطباع، فلا يصح لأجيال المؤرخين المغاربة الاستغراق في ذات المنحى، وقد انكشف للعموم عمق المستويات الغير المسبورة من الإرث المكتوب. ناهيك عن ثراء المخلفات الأثرية، التي ما زالت في معظمها متوارية عن الأنظار. ولا نخفي ما كان لمقال صدر خلال السبعينات من القرن الماضي لمحمود إسماعيل عبد الرزاق عن حقيقة المسألة البرغواطية، من تأثير في شد انتباهنا ونحن طلاب في مدارج الجامعة، إلى الخرم التي مزقت إلى حد إتلاف فصول واسعة من تاريخ المغرب الأقصى.

وبينما كنا نتأهب لاستقبال الموسم الجامعي الماضي بإعداد محاضرات لطلاب التاريخ والحضارة في أصول تاريخ المغرب، وهم مقبلون على

¹ عن حدود معرفة رواد مؤرخي المدرسة الفرنسية خلال بدايات القرن الماضي بمصادر تاريخ المغرب، انظر: E.F. Gautier, *Les siècles obscures du Magreb (=Les siècles obscures)*, Paris, 1927. pp.35-94. وعن المستويات التي عثرت عليها بعثت، راجع: العلامة محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ج1، 1983.

الانخراط في نظام جديد للتكوين، لم يطاوعنا القلم على ترقيع الكلام من خلال دفاتر مستهلكة. فما كان إلا أن عقدنا العزم على إنجاز هذا العمل، وتقديم زبد خلاصاته فصلاً بفصل، في شكل محاضرات. وكم كان الشعور بالارتياح عميقاً وهم يتابعون بشغف مسارات البلد، وهو ينتقل من العهد القديم لينضوي في دار الإسلام، حيث كان له البلاء الحسن. ولم يدخر نبهاءهم وسعاً في التطلع أثناء الدرس إلى استرجاع جزء من الذاكرة التاريخية التي عفا عنها الزمن، على مدار قرون عز العطاء الحضاري الأربعة. وقد أبدوا — برغم مواطن الخلل في تكوينهم — من الحرص على اكتساب المعرفة ومن الفطنة في طرح السؤال، ما يدعو جمهرة المدرسين إلى مراجعة القول الشائع بلامبالاة وعدم اكتراث الأجيال الصاعدة. والغالب على الظن أن الطلاب وهم في مقتبل العمر ومكتمل قواهم، لم يصادفوا بالجامعة نوافذ مشرعة على المعارف المتجددة، وقد نالهم الضجر من ثقافة حلزونية ظلت على العهد تدور في حلقة مفرغة.

ولا نخفي الاندهاش من النتائج الغير المنتظرة التي صادفتنا أثناء التعمق في دراسة جملة من القضايا المرتبطة بهذه الحقبة الغامضة من تاريخ المغرب. من ثم الإصرار على تحويل وجهة العمل من إعداد محاضرات للطلاب إلى إنجاز كتاب موجه للمختصين وعموم القراء والمهتمين. غاية الرجاء أن يكون لنا نصيب في شد الانتباه إلى الأجزاء المخرومة من ذاكرة البلد التاريخية، لعل الجهود تتكاثف في أجل قريب بين المؤرخين والمحققين والأثريين من أجل استكمال ترميمها. ويتعلق الأمر في هذا العمل بمحاولة لمّ المفاصل المتحكمة في صياغة تاريخ المغرب الأقصى، منذ الفترة السابقة للإسلام إلى حين التأهب لقيام امبراطورية المرابطين الواسعة، على مدار حوالي أربعة قرون من الزمن. وأثناء ذلك، أثرنا التركيز على الفصول المجهولة، مع إغفال النظر في التواريخ المعروفة.

وقد أمكننا الإمساك ببعض الخيوط الكاشفة في بصمات باهتة عن جملة من ممالك المغرب الأقصى السابقة للإسلام. أبرزها مملكة البرانس القائمة حول حاضرة سقوما، وتمتد شمالا إلى ساحل بادس ببلاد الريف، وشرقا إلى أحواز تلمسان. وقد اندرجت ضمن دار الاسلام - على عكس ما هو شائع - رغبة واختيارا، منذ الخمسينات من القرن الهجري الأول. أما مملكة غمارة المنتظمة حول قاعدتها بسبته، فكانت تشغل منطقة المجاز بما في ذلك كورة الجزيرة الخضراء، ممتدة نحو الجنوب إلى مصب نهر أسمير بسلا، ونحو الشرق إلى مواطن صنهاجة مفتاح. وقد اندمجت هي الأخرى في دار الاسلام بواسطة عقد الصلح والمصالمة منذ سنة 62 للهجرة، مع بقاء أهلها على دين النصرانية. كما تجلت معالم مملكة سجالماة القديمة التي اندرجت في سلكها قبائل هواره ومكناسة وكتامة، وظلت إلى حين الفتح تحت حكم ملك يدعى طامون. كما ظلت بلاد السوس منتظمة هي الأخرى في مملكة قائمة حول قاعدتها بإيجلي، إلى أن أدرك الإسلام آخر ملوكها المسمى مزدانة.

وليس مصادفة أن يكون أعظم ملوك المغرب الأقصى حينئذ كسيلة بن لمزم البرنسي القائم بحاضرة سقوما، أول من أسلم وحسن إسلامه بهذا الصقع اختيارا واقتناعا بالرسالة المحمدية، إذ كان قبلئذ من أهل الكتاب على دين النصرانية. وقد مال كسيلة بعدما اتضحت لكافة أهل المغرب الأهداف الغير المعلنة للنظام الأموي، إلى تأسيس أول امبراطورية مغربية في الإسلام، امتدت من سواحل البحر الأخضر المحيط إلى تخوم طرابلس. وسرعان ما تمت بيعته بالقيروان بصفته أميرا "على من فيها من المسلمين"، حسبما تم إثباته نصا في المصادر العربية المتداولة. تجدنا إذا - على عكس ما هو شائع - أمام أول أمير مغربي أمازيغي للمسلمين، قد تم تنصيبه بمبادرة مغربية لشغل أعلى منصب سياسي بكافة ربوع المغرب وإفريقية.

وبسوا أن يفسر تاريخ المغرب إبان الفتوحات نفس لبوس الصراع الذي
دار لتحديد بين كهر قريش والمهاجرين الأولين، كان له أبلغ الأثر في تشو
حونه وضمير معنمه، بما يوافق أهواء خلافة بني أمية بدمشق. وبقدروا ناحج
الصراع العسكري بين الحيوث الأموية المتدفة في حملات متعاقبة طوال ما
سيف عر نصف قرن من الزمن، بقدر ما ظل أهل المغرب مستمسكين بسيادتهم
سياسية. نكر لم يحدث أن اختلف أهل المغرب الأقصى من الدرر الأمازيغ
مع الفتحين من العرب وغيرهم بشأن عبادة مفترضة للأصنام، أو رفض
نرساة سيد المرسلين. وهو ما تتبعنا تفاصيله من خلال أوثق المصادر العربية،
م يثبت إلى حد الاندهاش ميل كافة أهل المغرب الأقصى إلى الإسلام اختيارا،
وتحوز ما سد لديهم قبل ذاك من الأديان: نصرانية ويهودية ومجوسية.

وبقدروا فشل السيف في إدماج أهل المغرب في نظام الخلافة القائم
بدمشق، بقدر ما فشل أهل المغرب في الاحتفاظ بواسطة المقاومة على نظام بديل
قدر على رسم أفاق للخلاص. وهو ما اتضح جليا على إثر تفكك ثاني
الإمبراطوريات المغربية المخضومة بين العهدين القديم والإسلامي. ويتعلق
لأمر دلامبراطورية التي انتظمت حول نواة قبائل جراوة البترية بجبال
لأوراس، تحت قيادة الإمبراطورة المغربية دها بنت ماتيية بن تيفان الجراوية
تعمروفة لسداد رأيها ونفاذ بصيرتها باسم الكاهنة. فما كان إلا أن مال الطرف
على إثر ذلك إلى التماس حل وسط يدمج أهل المغرب في النظام الجديد. وقد
نحت معالم ذلك بإسناد ولاية كافة أقاليم المغرب الأقصى، من أحواز تلمسان
إلى تخوم بلاد السوس، لطارق بن زياد النفزي. ويتعلق الأمر بأول وال مغربي
نمزي في حكم المغرب الأقصى والأندلس في الإسلام بمبادرة من الخلافة
الأموية. وقد شغل هذا المنصب طوال سبع سنوات، منذ حصوله على ولاية
المغرب الأقصى وتفويض بفتح ما استطاع من البلاد الفاصية سنة 85 هجرية

إلى حين عزله عن حكم العدوتين المغربية الأندلسية، بعد إنجاز فتح عظيم للأندلس سنة 92 للهجرة.

ولم تكن قضايا الفكر وما يرتبط بالعلوم والحكمة والشرائع والأحكام، أقل إثارة للانتباه. نذكر من ذلك المظاهر الكاشفة عن دور المغرب الأقصى في صياغة الأصول المبكرة لمذهب أهل السنة والجماعة، المعروف في مصادر العصر بمذهب أهل الاستقامة والاقتداء. وهي القواعد المذهبية التي رأت النور بآء ذي بدء بتمسامان ثم بحاضرة نكور، خلال نهايات القرن الأول وبدايات القرن الثاني للهجرة. كما أمكننا انتشال أسماء ثلة من أوائل علماء المغرب الأمازيغ ممن يرجع إليهم الفضل في تحقيق النقلة الفكرية والثقافية للبلاد بين العصرين.

ويشكل المذهب البرغواطي — المغربي النشأة الأمازيغي اللسان — قمة العطاء الفكري والفلسفي والعلمي لأهل المغرب الأقصى خلال هذه الفترات التاريخية المبكرة. ومن خلال تتبع أصوله، أمكن الوقوف على بعض قنوات التلاقح بين حضارات الشرق والغرب في بلاد المغرب. ولم يكن في الحسبان الوقوف على مواطن الاتصال بين المذهب البرغواطي ببلاد تامسنا المصمودية، وحركة حاميم ببلاد غمارة المصمودية، ومدرسة بن مسرة الجبلي المصمودي بالأندلس. إنها الفصول الممزقة من نفس التيار المذهبي المغربي النشأة، وقد انطمت كافة حلقاته نتيجة توالي بتر مفاصله، ومداومة كبل التهم لأتباعه بالمروق والزندقة، واجتثاث جذوره.

ولا نستبعد أن يكون أقطاب المتصوفة بالمغرب والأندلس من أمثال ابن عربي وابن سبعين وابن قسي وأقطاب المجددين من أمثال المهدي بن تومرت وفكره المهدي قد اعترف من ذات المعين المذهبي. ولعل فيما قدمناه ضمن

هذا الكتاب من تحاليل، ما يدعو الباحثين في تاريخ المغرب والمهتمين بتاريخ الفكر المغربي الأندلسي، لإجراء المراجعات المناسبة في أكثر من زاوية. إلا أن أبرز ما ينطوي عليه هذا الكتاب، إعادة بناء تاريخ مملكة بني طريف البرغواطية - فصلاً بفصل - منذ تأسيسها على يد طريف بن عبد الله سنة 122 هجرية إلى غاية سقوطها على يد المرابطين سنة 452 هجرية. وقد حاولنا في حدود ما تسمح به المادة التاريخية المتاحة، نسج سلسلة الأحداث المرتبطة بتعاقب ملوك بني طريف التسعة، على سدة الحكم بحاضرة شالة. وقد أمكننا من خلال ذلك بلورت ثلاثة مفاصل تاريخية، تفيد أيما إفادة في إعادة كتابة مجمل تاريخ المغرب الأقصى خلال القرون الأربع الهجرية الأولى. ولعل في ذلك ما يكشف عن معالم هذه الحلقة التاريخية المجهولة في أفق حث السعي نحو جعلها معلومة.

غاية الرجاء أن نكون قد اجتهدنا، فإن أصبنا كان لنا الأجرين، وإن أخطأنا كان لنا أجر الاجتهاد. والله نسأل أن يديم علينا نعمة الإيمان.

وبالله التوفيق

الدكتور أحمد الطاهري

كانو نيكرو يوم الجمعة 12 ذو القعدة 1425 هجرية

الموافق 24 دجبر 2004

الفصل الأول

نشأة بلاد المغرب

وفصول الانتقال من العهد القديم إلى دار الإسلام

”وأما بلاد المصامدة وأرض مراكش فقال ابن عبد الحليم انفق أشباح
بلادنا من أهل العلم أنها أسلم عليها أربابها وليس فيها صلح ولا عبوة“
الوشر بمس، المعيار المغرب، ج6، 134



أولا - في المصطلح والأصول: المغرب أم بلاد طنجة

من المفيد التذكير بأن المصادر الإغريقية دأبت على وصف بلاد المغرب في القديم باسم مورويسية، بينما مالت الكتابات اللاتينية بعدد إلى نعتها بمورطانية. وهو الاسم الذي ظل متداولاً إلى حين اندماج بلاد المغرب في دار الإسلام، حسماً يتضح من رواية محمد بن يوسف الوراق التاريخي الذي عمد إلى ضبط حدود هذا الكيان المتأصل في التاريخ القديم بالقول: "واسم ضحلة مورطانية وعرضها من البحر إلى الرمال التي هي أول بلد السودان"¹. وهو ما يتصح أيضاً من خلال حوليات أستوريش التي ذكرت "أنه بعد جوار البحر... [تصادفنا] نكور أحد مدن مورطانية"².

ويتعلق الأمر بمصطلح متأصل في لسان أهل البلد من البربر الأمازيغ، مركب من جذعين /أمور/ ومعناه الأرض و/طانيت/ أي اللات القديمة المعبودة ببلاد طنجة. وهو نفس ما ينطبق على جنوب شبه جزيرة إيبيريا التي ساد بها اللسان البربري الأمازيغي³ خلال العصور القديمة السابقة عن العهد الروماني، إذ عرفت حاضرتها باسم "مرطالفة وتفسيره: المط.... من الأرض"⁴. ومن المعلوم أن عبارة /أمور/ ما زالت إلى اليوم تشكل الجذر الدال على معنى الأرض في اللسان الأمازيغي. ومن هذه العبارة المتأصلة في لغة أهل البلد تم تركيب أسماء جملة من الأعلام المغربية القديمة مثل: موريطانية الطنجية أي /أرض طانيت/ في إحالة على اللات القديمة، ومراكش أي /أرض ياكتر/

¹ أنظر: البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، (المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب) نشر دي سلان، باريس، 1965، 21.

² Crónica de Alfonso III versión «A. Sebastián» in *Crónicas Asturianas*, Introducción y edición crítica de Juan Gil Fernández, Universidad de Oviedo, Oviedo, 1985, p. 221 وهو ما كشفنا عنه في أكثر من مناسبة ضمن دراساتنا السابقة من خلال استقصاء المادة المصدرية القديمة

³ المنثوثة في هذا الشأن ضمن منون جملة من المصادر العربية

⁴ العدري، ترصيع الأحبار ونوبع الآثار والنسب في غراب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك (ترصيع الأحبار)، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965، 96

بمعنى /أرض الله/ في اصطلاح البربر الأمازيغ، وغيرهما من أسماء الأماكن والأعلام الجغرافية ببلاد المغرب والأندلس.

إلا أن أهل المغرب قد اندرجوا منذ أقدم العصور وإلى حين اندماجهم اختيرا في دار الإسلام على إطلاق اسم بلاد طنجة على مجمل وطنهم، نسبة لحاضرة ملوك المغرب [إذ] كانت دار مملكتهم طنجة⁵. وقد تواتر القول لدى المصنفين ممن تدفّلوا أخبارها أن طنجة مدينة "قديمة أزلية ليس بالمغرب أقدم منها"⁶. وقد بلغ الأمر بابن الجزار القيرواني⁷ اعتبارا لأزلية هذه الحاضرة المغربية الموسومة بالقدم، إلى القول: "أنه ليس بعد مكة — شرفها الله — أقدم منها"، مما يقدم مؤشرا دالا على عراقة الحضارة المغربية الأمازيغية اللسان الموعلة في القدم.

وتمتد بلاد طنجة من الغرب إلى الشرق على طول الساحل المعروف في المعاجم الجغرافية العربية باسم "بحر المغرب"⁸ أو "البحر المغربي"⁹ إلى أن تتصل بأحواز مدينة تيهرت التي تعتبر حدا فاصلا بين بلادي طنجة وإفريقية. يتضح ذلك من خلال الروايات العربية المرتبطة بعصر الفتوحات التي ذكرت تيهرت بالقول: 'وهي من آخر إفريقية'¹⁰. وهو ما أكدته المصادر الجغرافية¹¹ التي نصت على أن "طنجة هي آخر حدود إفريقية من المغرب".

⁵ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 109

⁶ ابن عداري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (=البيان المغرب)، نشر ح.س. كولان و. ا. ليفي يروفسال، بيروت، 1980، ج 2، 26.

⁷ انظر الزهري، كتاب الجغرافية (=كتاب الجغرافية)، تحقيق محمد حاح صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ، 113

⁸ ياقوت الحموي، كتاب معجم البلدان (=معجم البلدان)، در صادر، بيروت، 1995، م 4، 43.

⁹ ابن حوقل، صورة الأرض (=صورة الأرض)، ليدس 1938، 190.

¹⁰ البيان المغرب، ج 1، 25.

¹¹ الحميري، الروض المعطار في خبر الاقطار (=الروض المعطار)، تحقيق احسان عباس، بيروت 1984

396 خلال الفترة السابقة للإسلام خطأ تقدير بعض رواد المدرسة الفرنسية ممن أثبتوا أن المغرب قد ظل بلاد بدون اسم، ولم يترددوا عن شعار الفراء كيف أصبحت البلاد تعرف تدريجيا باسم إفريقيا الفرنسية، انظر: Les siècles obscurs, pp 7-8.

أفصح عن ذلك أبو مروان عبد الملك بن موسى صاحب كتاب المعبر الذي
تدوّن أقصى امتدادات إفريقية نحو العرب بصيغ "حدها إلى مدينتيه...
وبليها بلاد المغرب وهي بلاد طنجة"¹¹. ولا عروء فمن المعبر ف عليه لدى
مدهير الجغرافيين المشاركة اعتبار كوره نينهر بأسرها من إفريقية¹² على
بعدد من جهة العرب بلاد طنجة. يتحلى ذلك أيضا من خلال ذكر سبع الأول
التي احترقها عفبة بن نافع الفهري زمن الفتح انطلاقا من الشرق إلى الغرب. إذ
بعدها 'نزل على المغرب بتيهت'¹⁴ ارتحل عنها فـ "دخل طنجة"¹⁵. نزل
في مجمل هذه الشواهد التاريخية ما يفصح عن مكانة تيهت وأحوارها
باعتبارها خلال القرون الهجرية الأولى الحد الفاصل بين إفريقية والمغرب.

ويتضح من خلال القراءة في كتب الفتوح وتتبع روايات الإخباريين
الأوائل أن ما اصطلح على تسميته لدى أهل المشرق باسم بلاد المغرب يتضمن
فضلا عن إقليمي برقة وطرابلس المتاخمين لمصر ثلاث كيانات أساسية منتظمة
في شكل بلدان وهي: إفريقية وطنجة والأندلس. ولا تعوزنا الإشارات التاريخية
الدالة على أن المقصود ببلاد طنجة كافة الامتدادات القصوى المتاخمة لإفريقية
من جهة الغرب. فقد ذكر صاحب أخبار مجموعة¹⁶ أنه على إثر استقامة
الأمر لعفبة بن نافع في إفريقية 'غزا سنة ثلاث وستين...طنجة'. كما تناول
ابن عداري¹⁷ خروج موسى ابن بصير بعدد بحوالي ثلاثة عقود من الرمن
غازيا من إفريقية إلى طنجة. وبالمثل فقد ورد ذكر إفريقية

¹¹ النسخ المغرب، ج ١، ص ٩٠.

¹² الأصطخري، المسالك والممالك (المسالك والممالك)، تحقيق محمد حابر عبد المال المعبر و محمد سفيو

عربال، القاهرة، ١٩٦١، ص ٣٤.

¹⁴ الرافعي القبرواني، قطعه من تاريخ إفريقية والمغرب (تاريخ إفريقية والمغرب)، تحقيق عبد الله العلم الرمال

و عبد الله عمر موسى، بيروت، ١٩٩٠، ص ١١.

¹⁵ نفسه، ص ١٤.

¹⁶ مورخ مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، (حبار مجموعة ١٨٦١) مطبعة ١٨٦٧، ص ٣.

¹⁷ البيان المغرب، ج ١، ص ٤٣.

وطنجة¹⁸ باعتبارهما كيانين متجاورين في أحد أقدم كتب الإمامة والسياسة الموضوعة في الإسلام. وهو ما يتجلى بوضوح تام من خلال الروايات المعتمدة في ضبط تواريخ فتوح المغرب التي تنص على ذكر طنجة¹⁹ باعتبارها كيانا متكاملا إلى جانب إفريقية والأندلس. وليس أدل على رسوخ استعمال مصطلح طنجة خلال القرون الهجرية الأولى للدلالة على مجمل البلاد الواقعة في أقصى الجناح الغربي من دار الإسلام، مما ورد على لسان إمام المدينة مالك بن أنس من أحكام تخص "البعيد الغيبة مثل الأندلس وطنجة"²⁰ اعتبارا لموقعهما النائي عن أرض الحجاز.

وفي اتجاه الجنوب تمتد بلاد طنجة على طول ساحل البحر الأخضر المحيط²¹ إلى أن تشارف بلاد السودان، حسبما سلف ذكره. وليس أدل على تعمق بلاد طنجة في اتجاه صحراء لمتونة إلى مشارف بلاد السودان مما ذكره أحدهم عما كان "بإزاء طنجة في البحر المحيط [من] الجزائر المسماة فرطنائش أي السعيدة"²². لذلك اندرجت بعض المصنفات التاريخية وكتب المسالك والممالك والمعاجم الجغرافية على ذكر امتدادات البلاد وتقدير مساحتها مجازفة بالقول "إن عمل طنجة مسيرة شهر في مثله"²³ طولا وعرضا.

وتندرج ضمن بلاد طنجة جملة من الأقاليم أبرزها إقليم "السوس"²⁴ الذي ورد ذكره في سياق حملات الفتح الأولى. وهو على غرار طنجة من أسماء

¹⁸ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة (=الإمامة والسياسة)، تحقيق طه محمد الزيني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت بدون تاريخ، ج 2، 67.

¹⁹ ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس (=فتوح إفريقية والأندلس)، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، 1964، 71.

²⁰ الوائلي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب (=المعيار المغرب)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1991، ج 5، 50.

²¹ ابن كثير، البداية والنهاية (=البداية والنهاية)، تحقيق عبد الرحمن اللادقي ومحمد غادي بيضون، بيروت، 2002، ج 9، 46.

²² المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 109.

²³ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 109، معجم البلدان، ج 4، 43؛ البيان المغرب، ج 1، 26؛ أنظر كذلك الروص المعطار، 396.

²⁴ فتوح إفريقية والأندلس، 58، 59.

الأعلام الجغرافية المتأصلة في لسان أهل البلاد منذ العصر السابق للإسلام. مع
نشك فمن المفيد الانتباه إلى دأب بعض المصادر على التمييز بين طنجه
والسوس باعتبارهما كورتين متكاملتين ومتجاورتين على امتداد ساحل البحر
الأحضر المحيط. فقد ورد لدى ابن قتيبة²⁵ ذكر 'طنجة والسوس' باعتبارهما
ولاية واحدة. وبالمثل فقد تناول الإصطخري²⁶ بالذكر "طنجة والسوس" في سياق
حديثه عن مكونات بلاد المغرب. وتشير بعض المعاجم الجغرافية إلى هذا
الإقليم بالقول: "والسوس بلد بالمغرب كانت الروم تسميها قمونية"²⁷. وفي قول
آخر "أن قمونية هي المدينة المعروفة بسوس المغرب"²⁸. إلا أن ثمة اختلاف
طفيف في رسم البلد إذ ذكر في بعض المصادر الجغرافية باسم "أرض قمونية
متصلة بالبحر المظلم ويتصل بشرقيها صحراء عليها طريق تجار أهل أغمات
وسجلماسة ودرعة والنول الأقصى إلى بلاد غانة وما اتصل بها"²⁹.

ومن المعلوم أن بعض الجغرافيين المشاركة ينسب إقليم السوس إلى
مدينة قديمة إذ اعتبروا أن "السوس الأقصى اسم المدينة إلا أنها كورة
عظيمة"³⁰ أيضا. وهو ما ورد لدى محمد بن عبد المنعم الحميري³¹ الذي حدد
موقع السوس في أقصى بلاد المغرب وهي مدينة جليلة حاضرة جامعة لكل
خير وفضل. ولقد مال أحدهم إلى إثبات الحاضرة المقصودة بالقول تصريحاً
أن "مدينة السوس اسمها تارودنت"³². وفي نفس السياق ورد على لسان

²⁵ الإلمة والسوسة، 67

²⁶ المسالك والممالك، 33

²⁷ معجم البلدان، ج 3، 281

تقولها عبرة السوس "فموقع مدينة درعة كتب موضع السوس قبل من مصر" معجم البلدان، ج 4، 399 وقد
²⁸ معجم البلدان، ج 4، 399 وقد حدد موقعها بطلموس كالبالي "تقولها ثلاث وثلاثون درجة وربع دوايق

وعرضها إحدى وثلاثون درجة وربع نصف تحت سبع درجات من السرطان وخمس عشرة درجة من السرطان
والصفحة

²⁹ أرواح المعصر، 488

³⁰ المسالك والممالك، 34

³¹ أرواح المعصر، 229

³² من سعد، كتاب يسط لأرض في حوض وعرض (اسم الأرض)، سفيان حور فرط ميسر، مع

مولاي الحسن، تطوان 1958، 58

الجغرافي السبتي الشهير الشريف الإدريسي³³ ذكر "تارودنت السوس". كما ذكرها الرقيق القيرواني³⁴ باعتبارها من مدن السوس الواقعة في "مغرب مدينة طنجة التي تسمى تارودانت"، على حد تعبيره. ويقدم الجغرافي المراكشي المجهول³⁵ رواية مخالفة لما سبق، إذ ينص على أن "قاعدة بلاد السوس مدينة إيجلي وهي مدينة عظيمة كبيرة قديمة أزلية".

إلا أن قدامى أهل القلم لم يغفلوا ذكر تفرع السوس في منطقتين متجاورتين: إحداهما تدعى 'السوس الأدنى' وهو خلف طنجة³⁶. أكد ذلك ابن خرداذبه³⁷ بقوله: "وخلف طنجة السوس الأدنى". ونتوفر بهذا الخصوص على رواية منقولة عن أصل تاريخي مفقود، تعتبر مدينة سلا منتهى بلاد طنجة في اتجاه الغرب، ومبتدأ السوس الأدنى نحو الجنوب. وهو ما تناولته في صيغة ضمير المخاطب بالقول: "وإذا جرت سلا وأخذت إلى ناحية الجنوب، تركت مغرب الشمس يمة وأخذت منها قافلا إلى القبلة، فتسمى تلك البلاد بلاد تامسنا ويقال لها أيضا بلاد السوس الأدنى، وحدها إلى جبل درن"³⁸. وقد قدر الواقدي³⁹ المسافة الفاصلة بين الحدين في سياق ذكره للراكب من 'السوس الأدنى' وبينه وبين السوس الأقصى نيف وعشرون يوما. بينما يتناول غيره مسافة الإقليمين بالقول: "ومن السوس الأدنى إلى السوس الأقصى مسيرة شهرين وبعده بحر الرمل"⁴⁰.

³³ برهة المشناق في احتراق الأفاق، (عزرة المشناق) مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون تاريخ، 229.
³⁴ تاريخ إفريقية والمغرب، 14.

³⁵ كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، (كتاب الاستبصار) تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، 1985، 212.

³⁶ البلاذري، فتوح البلدان، (فتوح البلدان) تحقيق رصوان محمد رصوان، بيروت 1983، 230. عن السوس الأدنى انظر كذلك. فتوح إفريقية والاندلس، 71.

³⁷ المسالك والممالك (مسالك ابن خرداذبه)، تحقيق دس خويه، بريل 1889، 89.

³⁸ النيان المغرب، ج 1، 5.

³⁹ انظر: فتوح البلدان، 232.

⁴⁰ معجم البلدان، ج 3، 281.

كما يتواتر ذكر "السوس الأقصى" في الحوليات التاريخية والمصنفات
 جغرافية وكتب الفتوح⁴¹. ويحدد ابن خردادبه⁴² موقع هذا الإقليم بالقول:
 وحلف السوس الأدنى السوس الأقصى، بينما يفصح ابن عداري⁴³ عن امتداداته
 نحوية ذاكرة أن "بلاد السوس الأقصى يقال لها بلاد ماسة ويتصل السوس
 الأقصى ببلاد الصحراء إلى بلاد السودان". ولعل في تفرع الأقاليم المنصوبة
 في سنك البلاد المعروفة قديماً باسم طنجة ما حدا بالمؤرخين إلى الحديث عنها
 بالجمع ذاكرين "طنجة وأقاليمها"⁴⁴. وثمة تعابير مماثلة من قبيل: "طنجة وما
 والاها من المغرب الأقصى"⁴⁵ صيغت لنعى مجمل البلد المشرف على البحر
 المحيط في أقصى الجناح الغربي لدار الإسلام. وهي التعابير التي ما فتئت تحل
 بالتدريج خلال القرون الهجرية الأولى محل الصيغ الموروثة عن العهد القديم.
 ومن المعلوم أن عبارة "المغرب"⁴⁶ استعملت بادئ ذي بدء لدى
 الجغرافيين المشاركة للدلالة على مجموع المناطق الواقعة غرب مدينة السلام
 بغداد، باعتبارها الحد الفاصل بين جناحي دار الإسلام. مع ذلك، من المفيد
 الانتباه إلى المضمون الإداري لمصطلح المغرب الذي ارتبط ببواكير نظام
 الكور والأقاليم المتدرج انطلاقاً من حاضرة الخلافة الأموية بدمشق. ولا عرو،
 فقد تم إقرار مدينة الفسطاط بمصر باعتبارها أول قاعدة لمجمل البلاد المغربية
 التي تضمنت: "مصر وبرقة إلى إفريقية وناحية تنس إلى سبنة وطنجة"⁴⁷.
 ويعتبر مسلمة بن مخلد "أول من جمع له المغرب كله"⁴⁸ في خلافة معاوية بن

41 الإمامة والسياسة، ج 2، 158 تاريخ إفريقية والمغرب، 115 المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 74-75
 البلدان، 232، صورة الأرض، 61 البيان المغرب، ج 1، 6، الاستبصار، 211
 42 مسالك ابن خردادبه، 89.
 43 البين المغرب، ج 1، 6.
 44 نفسه، ج 1، 52.
 45 نفسه، ج 1، 51.
 46 راجع هذا الخصوص على سبيل المثال مسالك ابن خردادبه، 72، 83.
 47 صورة الأرض، 60.
 48 البيان المغرب، ج 1، 21.

أبي سفيان، من أطراف إقليم مصر إلى طنجة، وذلك سنة خمس وخمسين للهجرة (674 م). من الطبيعي في ظل هذا السياق أن يقدر المؤرخون "أن حد المغرب هو ضفة النيل بالإسكندرية إلى آخر بلاد المغرب وحده مدينة سلا"⁴⁹ المشرفة على البحر المحيط.

مع ذلك ظلت مصادر العصر تميز بين "مصر والمغرب"⁵⁰ باعتبارهما إقليمين متكاملين ضمن النظم الإدارية القائمة. وهو التمايز الذي زاد رسوخا على إثر نقل قاعدة المغرب من الفسطاط بمصر إلى القيروان إفريقية. وعلى شاكلة ما حدث بمصر، سرعان ما أفضت التطورات اللاحقة إلى بلورة تقاطب إقليمي جديد يميز بين "إفريقية والمغرب"⁵¹ باعتبارهما إقليمين متجاورين ضمن النظم المستحدثة. وسرعان ما تبلورت المعالم الجغرافية لحدود المغرب التي ضبطها أحدهم بالقول: "حده من مدينة مليانة وهي آخر حدود إفريقية إلى آخر جبال السوس التي وراءها البحر المحيط"⁵². فما كان بعدئذ إلا أن تهيكلت الأقطاب الحضارية الثلاث المكونة للغرب الإسلامي، ممثلة من جهة في "إفريقيا المغرب"⁵³ التي تمحورت حول قاعدة القيروان. بينما تقلصت دلالات عبارة المغرب وأصبحت مقرونة من جهة أخرى بنطاق محدد جغرافيا وحضاريا في "بلاد المغرب وهي بلاد طنجة"⁵⁴. ومن المعلوم أن قطبا حضاريا ثالثا قد تشكل بالضفة المقابلة من بحر المجاز باسم بلاد الأندلس. وما كاد القرن الهجري الأول ينصرم حتى تبلورت أسس المحاور الثلاث التي شكلت أعمدة الجناح الغربي لدار الإسلام: إفريقية والمغرب والأندلس.

⁴⁹ نفسه، ج 1، ص 50.
⁵⁰ فتوح إفريقية والأندلس، ص 155؛ فتوح البلدان، ص 227.
⁵¹ البيان المغرب، ج 1، ص 23.
⁵² معجم البلدان، ج 5، ص 161.
⁵³ فتوح إفريقية والأندلس، ص 40.
⁵⁴ البيان المغرب، ج 1، ص 5.

ثانيا - بلاد المغرب بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين

تشير المصادر اللاتينية⁵⁵ إلى إقدام الإمبراطورية الرومانية على دمج بلاد طنجة وجزر البليار ببقية الوحدات الإدارية والكنسية الست التي تشكلت منها شبه جزيرة إيبيريا. وهو ما أكدته حوليات أستوريش التي تذكر من ضمن الأقاليم المندمجة مع شبه جزيرة إيبيريا "الإقليم السادس وهو بلاد طنجة المتاح للبحر"⁵⁶. وتعود أصول هذا التقسيم الإداري والكنسي، حسب الجغرافي الأندلسي أبو عبيد الله البكري⁵⁷، إلى عهد الإمبراطور الروماني قنسطنطين الذي أقامه خلال سنوات 332-336 ميلادية. ولعل في ذلك ما يكشف عن إقدام الرومان منذ هذا التاريخ على ربط بلاد طنجة بروما عبر شبه جزيرة إيبيريا. ولا تعوزنا القرائن الكثيرة عن ضم بلاد طنجة في ملك حاضرة وليلي، التي تواتر ذكرها في كتب الحرف وصفها مدينة رومية قديمة بضرف جبل زرهون⁵⁸. ونظرا للدور الذي اضطلع به بعض قادة عدة بلاد طنجة، فقد دأب الإخباريون القدامى على نسبها إلى نند. يتحلى ذلك من حلال رواية محمد بن يوسف الوراق التاريخي الذي صرح أن مدينة طنجة تعرف بالبربرية وليلي⁵⁹؛ بمعنى أن حاضرة بلاد طنجة حلال هذا العصر هي المدينة المعروفة في لسان أهل البلد الأمازيغ باسم وليلي. والملاحظ أن هذه العبارة قد فهمت خطأ من طرف المصادر المتأخرة التي دأبت على الخلط بين طنجة

⁵⁵ راجع: J VALLVE. *La división territorial de la España musulmana*, C.S.I.C., Madrid, 1986, p. 182

⁵⁶ *Crónica Albeldense in: Crónicas Asturianas*, p. 225.

⁵⁷ الأندلس وأروبا من كتاب المسالك والممالك، (الأندلس وأروبا) تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، 1968، 59-64.

⁵⁸ الاستبصار، 194؛ لروض المعطار، 609.

⁵⁹ أنظر المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 108 والمقصود بوليلى في لسان أهل البلد الأمازيغ شجرة "الدقلى" وتنطق العبارة لدى أهل بلاد الريف إلى اليوم بالراء كائالي "ريري". أما حرف الواو فالراجح أنه صميم يعود على اسم محدوف بغيره بتدوين أو رييري/ أي مدينة الدقلى "وليلى" فما كان إلا أن صصر رسم هذه المدينة القديمة في المصادر العربية بالولو فكتبت وليلى/.

المدينة وبلاد طنجة. من ثم لم يكثرث العصر عن الرعد بأن ضجة تعرف بالبربرية وليلى⁶⁰، بينما اعتقد آخرون خطأ أن وليلى هي طنجة بالبربرية⁶¹. ومن المعلوم أن بلاد طنجة قد انتظمت خلال الفترة السابقة للإسلام عن إفريقية وحاصرتها العظمى قرطاجة في دائرة النفوذ البيزنطي. وبدلاً عن روما والمؤثرات الحضارية اللاتينية، أصبح الشريط الساحلي من البلاد منخرطاً وإن بشكل منقطع في سلك الإمبراطورية البيزنطية التي دأبت على تغليب لطابع الحضاري اليوناني، خصوصاً بعد تنويع هرقل ناسليوساً في القسطنطينية سنة 610 ميلادية. وفي رواية للرقيق القيرواني ما يشير إلى أن هرقل ملك القسطنطينية كن يتحكم بواسطة عماله في روم إفريقية والأندلس⁶² ويأخذ منهم الجزية، فمن في ذلك أهل بلاد طجة. وليس أدل على امتداد نفوذ بيزنطة في الفترة السابقة للإسلام على طول البلدان المترفعة على البحر الرومي إلى أقصى بحر المجر، مما ورد في الحوليات التاريخية عن منتهى سلطانه. فقد "كان هرقل ملك القسطنطينية يؤدي إليه كل ملك من ملوك النصرى الخراج، فهم من مصر وإفريقية والأندلس وغير ذلك"⁶³. وقد فصل الرقيق القيرواني⁶⁴ مناطق النفوذ البيزنطية، بالقول: كان هرقل ملك القسطنطينية العظمى ورومه يؤدي إليه كل نصراني في بر وبحر جزيرته، منهم المقوقس صاحب الإسكندرية وبرقة، ومنهم صاحب طرابلس وصبرة، ومنهم صاحب صقلية، وروم إفريقية والأندلس".

وتفصح كتب الفتوح والحوليات التاريخية عن اسم الحاكم البيزنطي القائم ببلاد إفريقية والمغرب قبيل الإسلام. ويتعلق الأمر بـ"بطريق يقال له

⁶⁰ الروض المعطار، 396.

⁶¹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 118.

⁶² انظر: البيان المغرب، ج 1، 16.

⁶³ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (الكامل في التاريخ) جمعوا مكنه لرت، بيروت 1994، ج 2، 237.

⁶⁴ انصر البيان المغرب، ج 1، 17.

جرجير (جرجوريوس)، وكان سلطانه من إطرابلس إلى طنجة⁶⁵. وقد دأبت المصادر العربية على نعت جرجير بأنه "تصراني من روم إفريقية"⁶⁶، وكان يحكم مجمل البلاد المذكورة باسم هرقل صاحب القسطنطينية انطلاقاً من "مدينته العظمى قرطاجنة"⁶⁷. إلا أن فتح مصر وبلاد الشام في خلافة عمر ابن الخطاب، مع ما ترتب عن ذلك من اختلال في أوضاع بيزنطة، أفضى إلى تفكك نفوذ القسطنطينية في مجمل البلاد المغربية. وهو ما لخصه ابن عبد الحكم⁶⁸ بالقول: 'وكان مستقر سلطان إفريقية يوماً بمدينة يقال لها قرطاجنة وكان عليها ملك يقال له جرجير كان هرقل قد استخلفه فخلع هرقل وصرب الدنانير على وجهه وكان سلطانه ما بين أطرابلس إلى طنجة'. مما يفسح عن إقدام البطريق جرجير على تزعم حركة انفصال حقيقية لمجمل بلاد المغرب وإفريقية عن مركز الإمبراطورية.

ولا غرو، فمن المعروف أن الخليفة عمر بن الخطاب قد وقف بحزم في وجه الضغوط التي مورست عليه من طرف الصحابة وأهل الحل والعقد للشروع في غزو إفريقية والمغرب. وتحتفظ المصادر المتداولة بموقفه المعارض لإنفاذ الحيوش، إذ نسب إليه قوله: "لا إياها ليست بإفريقيا ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت"⁶⁹. ويبدو أن اتساع رقعة دار الإسلام في عهده لتشمل مصر والشام والعراق وخراسان، فضلاً عن شبه جزيرة العرب، قد اضطّر الفانمين بالأمر إلى الاهتمام بتدوين الدواوين والاجتهاد في وضع الشرائع والأحكام، بدل الانسياق مع الفتوحات في البلاد البعيدة. ولعل فيما أثير من جدال بين الصحابة وأهل الحل والعقد حول وضعية

⁶⁵ سبل المغرب، ج 1، 9، فتوح البلدان، 228.

⁶⁶ عبد الله، نص جديد في فتح العرب للمغرب لعبيد الله، (صحح العرب للمغرب) تحقيق يحيى بروفيسال، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد 2، السور 1-2، مدريد 1954، 216.

⁶⁷ البيان المغرب، ج 1، 12.

⁶⁸ فتوح إفريقية والأندلس، 35.

⁶⁹ نص المصدر والصفحة.

الأرض بسواد العراق ومستقبل الأراضي المفتوحة، ما نبه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب إلى مخاطر الانزلاق عن المقاصد المعلنة لحركة الفتوحات، خصوصاً بعدما انكشف للعيان ما انتطوت عليه النفوس الجامحة من أطماع في تملك الأراضي والتسلط على رقاب الناس واحتجان المعانم والأموال.

وبمجرد مقتل عمر ابن الخطاب وتولية عثمان بن عفان دفعة الحكم، تغيرت التوجهات العامة لنظام الخلافة تجاه إفريقية وبلاد المغرب. تجلّى ذلك في إقدام الخليفة الجديد في أول بادرة سياسية على عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وتعويضه بعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وذلك سنة 25 للهجرة (645 م). وفضلاً عن رابطة القرابة بين الرجلين إذ كان الوالي الجديد أخاً لعثمان من الرضاعة، فمن المتعارف عليه أن عبد الله بن أبي سرح كان من المرتدين عن الإسلام. فقد تواتر الخبر في المصادر التاريخية بأنه "كتب الوحي ثم ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركن بمكة"⁷⁰. فما كان على ابن أبي سرح بعد فتح مكة إلا أن استجار بعثمان فأخذ له الأمان فحسن إسلامه. وعندما بويع عثمان بالخلافة، أعيد طرح موضوع فتح إفريقية والمغرب من جديد، و"استشار الصحابة فكلهم أشار عليه بإنفاذ الجيش إليها، إلا أبا الأعور سعيد بن أبي يزيد فإنه كره ذلك"⁷¹، مذكراً الخليفة عثمان بموقف عمر بن الخطاب، وناصحاً إياه بالقول: "لا أرى لك خلاف عمر"⁷².

وتقدم الحوليات التاريخية جملة من التفاصيل عن الترتيبات العسكرية الهائلة، وعن القوة العظيمة التي قدرت بحوالي عشرين ألف مقاتل، وضعت تحت إمرة عبد الله بن سعد بن أبي سرح لغزو إفريقية. وقد شارك فيها أعيان الناس مثل عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وعبد الله

⁷⁰ البداية والنهاية، ج 5، 364، الدين المعرب، ج 1، 9.

⁷¹ البويري، تاريخ المغرب لإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الارب في فنون الارب (نهاية الارب) تحقيق مصطفى أبو صيف أحمد، دار البيضاء، 1985، 176.

⁷² نفس المصدر والصفحة.

بن عباس، لذلك اشتهر جيشه باسم جيش العبادلة⁷³. كما شارك في هذه الحملة، إلى جانب أحياء العرب وفصائلهم⁷⁴ فتيان بني هاشم وجمع كثير من بني أمية، فيهم مروان بن الحكم. ولم يتردد الخليفة عثمان عن إعانة واليه "بألف بغير يحمل عليها ضعفاء الناس"⁷⁵ من العامة. أما المعارك فقد دارت رحاها سنة 27 هجرية (647 م) بالمكان المعروف بقمودة⁷⁶، على مقربة من حصن سبيطة⁷⁷ الواقع على بعد سبعين ميلا من المكان الذي أسست فيه لاحقا مدينة القيروان. وقد أسفرت الحملة عن هزيمة روم إفريقية، ومقتل عظيمهم البطريق جرجير، وفتح حصن سبيطة الذي اتخذ قاعدة لإنفاذ السرايا، وحصار الفلول المتحصنة في القلاع والحصون المجاورة. فما كان على روم إفريقية بعد هذه الهزيمة إلا أن طلبوا الصلح من عبد الله بن سعد بن أبي سرح بمال معلوم يدفعونه جزية كل عام "على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك منهم وقبض المال"⁷⁸، بعدما أقام جيشه بإفريقية حوالي خمسة عشر شهرا.

على إثر هزيمة سبيطة ومقتل البطريق جرجير وإمضاء الصلح مع المسلمين، تاهب روم إفريقية لإعادة تنظيم البلاد في انفصال تام عن نفوذ القسطنطينية. فما كان إلا أن نصبوا على رأسهم ملكا جديدا، ويتعلق الأمر بالحاكم الذي ورد اسمه مصحفا في جملة من المصادر العربية التي اضطربت في ضبط رسمه. فبينما يشير ابن عذاري⁷⁹ إلى أن "القائم بأمرهم رجلا يقال له حباحبة"، يذكر النويري⁸⁰ أن "القائم بأمر إفريقية بعد جرجير رجل يقال له

⁷³ البداية والنهاية، ج 5، 365.

⁷⁴ لمزيد من التفاصيل عن أحياء العرب الذين شاركوا في الحملة راجع نهاية الأرب، 176-77.

⁷⁵ البيان المغرب، ج 1، 9.

⁷⁶ عن هذا الموقع انظر الروص المعطار، 472. وقد ورد في مصادر أخرى أن المكان الذي وقعت فيه المعركة

الفاصلة التي أودت بحياة جرجير يدعى "عقوبة"، فتوح البلدان، 228 ولعه تصحيح لقمودة

⁷⁷ الروص المعطار، 302؛ معجم البلدان، ج 3، 187.

⁷⁸ البيان المغرب، ج 1، 12.

⁷⁹ البيان المغرب، ج 1، 17.

⁸⁰ نهاية الأرب، 184.

جناحة". في حين يكفي بعض الرواة⁸¹ بنعته تعميما بـ "الملك الذي ولوه عليهم بعد جرحير". وقد عمد بعض رواد الدارسين⁸² إلى مطابقة اسمه كالتالي: جناديوس.

لم تكن بيزنطة لتقف مكتوفة الأيدي أمام انسلاخ إفريقية وبلاد المغرب حملة عن دائرة نفوذها، فسارعت إلى استغلال الموقف لمعاودة الكرة وإعادة ربط البلاد بالقسطنطينية. يروي الرقيق الفيرواني أن هرقل قد "بعث إلى إفريقية بطريقا يقال له أوليمة... فنزل قرطاجنة"⁸³ وطالب أهل البلاد بأصناف من الجبايات، تعادل ما دفع في صلح عبد الله بن سعد بن أبي سرح. والمراجع أن الخلاف بين الحكم المركزي بالقسطنطينية ممثلا من طرف البطريق أوليمة، والحركة الانفصالية لروم إفريقية بقرطاجنة تحت زعامة حباحبة، قد تطورت إلى حرب أهلية. مصداق ذلك ما ورد من خبر روم إفريقية الذين قاتلهم البطريق [أوليمة] وهزمهم وطرده الملك [حباحبة] الذي ولوه عليهم بعد جرحير⁸⁴.

من الطبيعي بعد عودة نفوذ بيزنطة المركزي إلى قرطاجنة أن تتلمص ولاية إفريقية عن الوفاء بالتزاماتها المالية تجاه نظام الخلافة، حسبما أقرته بنود الصلح السالف الذكر. وهو ما كشف عنه المؤرخين بالإشارة إلى "تفض أهل إفريقية العهد"⁸⁵، مما اضطر ابن أبي سرح إلى غزوها ثانية سنة 33 هجرية (653 م). ويبدو أن غزوة ابن أبي سرح الثانية لم تحصل على طائل، مما اضطر إلى معاودة الكرة في السنة الموالية (34 هجرية/654 م) بإنفاذ الحملة المعروفة بغزوة "معاوية بن حديج [إلى] إفريقية وهي أول غزواته إلى

⁸¹ الناصري، كتاب الاستقفا لآخبار دول المغرب الأقصى (- الاستقفا)، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار البيضاء، 1954، ج 1، ص 77.

⁸² G. Marçais, *La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen âge*, Beirut, 2003, p. 30.

⁸³ البيان المغرب، ج 1، ص 17، بهية الأرب، 184.

⁸⁴ الاستقفا، ج 1، ص 77.

⁸⁵ البيان المغرب، ج 1، ص 14.

المغرب"⁸⁶. وقد أشار إليها ابن عبد الحكم⁸⁷ بالقول: "وهي غزوة لا يعرفها كثير من الناس".

ما كان للخلاف الذي دب بين الجند الفاتح وقيادته حول توزيع الغنائم إلا أن يضعف موقف نظام الخلافة. وقد بلغ الأمر بعموم المحاربين المستأعين من سلوك ابن أبي سرح أن بعثوا وفدا عنهم إلى الخليفة عثمان بن عفان مخاطبين إياه بالقول: 'فاعزله عنا، فإننا لا نريد أن يتأمر علينا'⁸⁸. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل سرعان ما اضطربت أحوال ولاية مصر وقد اجتمع أهلها على الشكوى من سياسة ابن أبي سرح الجائرة⁸⁹. وهي الأحداث التي نتاسلت بشكل سريع في اتجاه تقويض دعائم خلافة عثمان التي أفضت إلى مقتله وانفتاح أبواب الفتنة الكبرى وتعطيل حملات الفتح. وهو ما عبر عنه ابن عداري⁹⁰ بالقول: "ثم اشتغل الناس بعد ذلك بأمر عثمان - رضه - وبوقائع لجمل وصفين وغيرهم إلى أن اعتدلت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان".

أسفر انحسار نفوذ الخلافة عن انفراج الأوضاع العسكرية بإفريقية، فتأهب أهل البلاد للتخلص من الحكم البيزنطي ومن مطالباته المالية المجحفة في حق الرعية. وهو ما تبلور في شكل ثورة اجتماعية بقيادة العامة الذين تمكنوا من وضع حد للنفوذ البيزنطي 'فطردوا وليمة الواصل إليهم'⁹¹ 'معوثا من هرقل صاحب القسطنطينية. كما ثاروا ضد ملكهم حبابة الرومي الذي لم يجد بدا من النزوح هاربا نحو بلاد الشام، مستمسكا بعقد الصلح الذي وقعه مع ابن أبي سرح. إنها إرادة عامة أهل البلاد المناهضة للمطالبات الجبائية المرهقة، سواء تلك المفروضة من طرف بيزنطة وأذialها من روم إفريقية، أو المأخوذة من

⁸⁶ نفس المصدر والصحة

⁸⁷ فتوح إفريقية والأندلس، 49.

⁸⁸ البيان المغرب، ج 1، 14.

⁸⁹ راجع للتفاصيل في: الإمامة والسياسة، ج 1، 39.

⁹⁰ البيان المغرب، ج 1، 14-15.

⁹¹ نفسه، ج 1، 17.

طرف صاحب مصر في ظل نظام الخلافة. وهو ما تم التعبير عنه سياسيا بقيام نظام حكم محلي غير تابع للقوى الكبرى المتنافسة. وقد أشارت المصادر التاريخية إلى ذلك بالقول: "ثم اجتمع أهل إفريقية وولوا على أنفسهم رجلا يقال له الاطربون وقيل فيه الاطيلون"⁹².

ثالثا - المقاومة المغربية للخلافة الأموية

ومع قيام الخلافة الأموية سنة 40 هجرية (660 ميلادية) ونقل دار الخلافة من المدينة المنورة بالحجاز إلى دمشق ببلاد الشام، تم استئناف حملات فتح إفريقية وبلاد المغرب في ظل حكم معاوية بن أبي سفيان. ومن الملاحظ أن ملك إفريقية المخلوع حبابة قد لجأ إلى دمشق طلبا للمساعدة على استرجاع عرشه. وهو ما وصفه الطبري⁹³ بالقول: "أن حبابة الرومي قدم على معاوية بن أبي سفيان فسأله أن يبعث معه جيشا إلى إفريقية، فوجه معاوية بن حديج في عشرة آلاف مقاتل. فسار حتى انتهى إلى الإسكندرية فاستعمل عليها حبابة الرومي، ومضى ابن حديج حتى دخل إفريقية". وقد ورد في مصادر أخرى⁹⁴ أن العليج ابن حبابة الرومي قد هلك في الإسكندرية، بينما استمرت الحملة تحت قيادة معاوية بن حديج إلى إفريقية، وهي الموصوفة لدى أوائل الإخباريين بحملة ابن حديج "الثانية سنة أربعين"⁹⁵ (660 ميلادية). في حين تؤرخ المصادر التاريخية لهذه الحملة سنة 45 للهجرة (665 ميلادية).

وقد انتهت الحملة إلى قونية الواقعة عند الموضع الذي اتخذت فيه لاحقا مدينة القيروان، ومال ابن حديج بجيشه إلى جبل القرن المجاور حيث اتخذ قيروانا تحصن فيه بحنذه. ومن ثم شرع في إنفاذ السرايا لمهاجمة وحصار روم

⁹² نهاية الإرب، 184

⁹³ انظر البيان المغرب، ج 1، 16.

⁹⁴ نهاية الإرب، 184-185، الاستقصا، ج 1، 77

⁹⁵ فتوح إفريقية والأندلس، 49

إفريقية، إلى أن تمكن من دخول حصن جلولاء الشهير. وحتى لا تختل موازين القوى العسكرية بإفريقية لصالح الخلافة الأموية، لم تتأخر الإمبراطورية البيزنطية عن التحرك لمواجهة الموقف. تجلّى ذلك في إقدام الإمبراطور البيزنطي على تعيين بطريق على إفريقية "يُقال له نجفور في ثلاثين ألف مقاتل فنزل على ساحل البحر". إلا أن الحملة البيزنطية قد آلت إلى الاندحار فتراجعت المراكب مهزومة عن سواحل إفريقية، مما شجع معاوية بن حديج عن إنفاذ جيش في مائتي مركب لغزو جزيرة صقلية تحت قيادة عبد الله بن قيس.

لعل في ذلك ما يدل على تمزق أهواء أهل إفريقية وما والاها من أقاليم المغرب، بين ممالئة الخطر الوافد من جزيرة العرب عبر مصر بدر الجبايات العظيمة، ومداراة النفوذ البيزنطي للتخلص من أطماعه المتزايدة، وبين اختيار التحصن والمقاومة. إن في ذلك ما يؤشر على انغماس إفريقية ومدينتها العظمى قرطاجة في فترة من الاضطراب السياسي والحرب الأهلية والعسر المالي والاختلال الاقتصادي. وهو ما كشفت عنه المصادر العربية بذكر ما آلت إليه أحوال إفريقية وهي حرب وقد صارت نارا⁹⁶ واضطربت شقاقا "وكانت حربا كلها"⁹⁷.

ومرة أخرى يحتدم الخلاف بين قيادات الفتح حول توزيع المغانم. وكما هو شأن ابن أبي سرح في خلافة عثمان، لم يجد معاوية ابن حديج بدا من مخاطبة الخليفة لما اختلف الناس في الغنيمة، فكتب في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان⁹⁸ الذي تدخل لفك النزاع باعتباره أعلى سلطة. والجدير بالذكر أن "معاوية بن حديج الكندي كان عثمانيا"⁹⁹ لذلك لم يتأخر الخليفة معاوية بن أبي سفيان عن مكافئته باستعماله على ولاية مصر وإفريقية سنة 48 للهجرة (668).

⁹⁶ نهاية الإرب، 185.

⁹⁷ البيان المغرب، ج 1، 16.

⁹⁸ فتوح إفريقية والأندلس، 48.

⁹⁹ البيان المغرب، ج 1، 18.

ميلادية). ومن الملاحظ أن الفوز بالسبي والأموال واحتجان الذهب والفضة والحصول على أصناف المغنم قد استأثرت بأوفر اهتمام، حسبما يتجلى في متون كتب الفتح والحواليات التاريخية. ويبدو أن التحولات التي طرأت منذ عهد عثمان بن عفان على توجهات نظام الخلافة تجاه الأراضي المفتوحة، وخصوصا بعد قيام دولة بني أمية، قد عمق البعد الانتقاعي في حملات الفتح ببلاد المغرب. ومن المعلوم أن تدفق الأموال من الأطراف إلى مقر دار الخلافة بالشام، في شكل غنائم حرب ومستحققات صلح ومجايى وجزية، واصطناع الأتباع وفق قواعد أنظمة الولاء، وعقد الرايات على الجند، وبذل العطاء للفرسان مقابل الخدمة، قد شكل عصب النظام الأموي. وهو ما عبر عنه حنش الصنعاني الذي حضر مع عبد الملك بن مروان فتح حصن جلولاء بإفريقية بقوله محاطبا هذا الأخير لما عاتبه عن مبايعة غريمه عبد الله بن الزبير: "رأيتك يريد الله ورأيتك تريد الدنيا"¹⁰⁰.

والراجح أن التخلي عن سياسة عمر بن الخطاب تجاه أراضي الأمم والشعوب المفتوحة، وإطلاق عنان المحابين والمنفعيين على أموال الناس وأعراضهم، قد كان له أبلغ الأثر في تغيير صورة الفاتحين في نظر عامة أهل بلاد المغرب، بالمقارنة عما كانت عليه الأمور في الماضي زمن عمر بن الخطاب لدى أهل العراق وحراسان، وفي مصر وبلاد الشام. وبدلا عن الحروب الفاصلة التي خاضتها قيادات الفتح مع الجيوش النظامية الفارسية والبيزنطية في البلدان المذكورة، سرعان ما تطورت حروب الفتح بإفريقية وبلاد المغرب من مواجهة بفايا النظام البيزنطي وروم إفريقية والمغرب، إلى الانغماس في حرب عامة أهل البلد من البربر الأمازيغ. وهي الحروب التي استغرقت ما ينيف عن نصف قرن من الزمن، منذ بعثت سرايا الفتح الأولى في

¹⁰⁰ نفس المصدر والصفحة.

خلافة عثمان بن عفان سنة 26 للهجرة (646 ميلاديه) إلى حين ولادة موسى بن نصير شؤون البلاد في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة 86 للهجرة (705 ميلادية).

واضح أن توالي الحملات العسكرية ضد إفريقية، وتعاقب العمليات لبحرية البيزنطية، واشتغال قليل الحروب الأهلية قد انعكس على وحدة مملكة روم إفريقية والمغرب، المنتظمة حول قرطاجة. وليس أدل على صحة ذلك من تأرجح البلاد بين التبعية لبيزنطة، والتعقد مع دار خلافة، ولانتظام في ظل حكم محلي، والغالب على الظن أن اضطراب الأحوال بقرطاجة وانحسار نفوذ بيزنطة، قد أسفر عن انفراط سلك بلاد المغرب الذي تنظم في ممالك محلية ومناطق نفوذ متناثرة على طول الساحل، من طرابلس إلى طنجة.

ومن أبرز ممالك المغرب الأقصى، نذكر مملكة غمارة المصمودية التي انتظمت بأقصى شمال غرب البلاد عند بحر المجاز. وقد شملت إلى جانب كورة طنجة وأحوازها، مجمل ساحل المجاز بسببة¹⁰¹. كما تعمقت شاملة كافة بلاد غمارة¹⁰²، الذي يمتد خمسة مراحل ونيف طولا في خمسة مراحل عرضا، في رحاب الريف بساحل بحر الدرة، من على يمين بسانط المغرب... [في] جبال شاهقة اتصل بعضها ببعض، سياجا بعد سياج¹⁰³. وثمة قرائن دالة على امتداد هذه المملكة إلى كورة الجزيرة الخضراء بالعدوة الأندلسية المغابلة، وهو ما أشارت إليه أقدم ما وصلنا من روايات إخبارية عن رجل من العجم يقال له بلين صاحب سببة، وكان على المجاز إلى الأندلس يقال له الخضراء مما يلي طنجة¹⁰⁴. يتضح ذلك من خلال رواية ابن خلدون، في سياق حديثه عن قبائل

¹⁰¹ نفسه، ج 1، ص 26.

¹⁰² المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100.

¹⁰³ كتاب المعبر، ج 6، ص 281.

¹⁰⁴ نفسه، ج 1، ص 72.

"غمارة وأميرهم يومئذ يليان"¹⁰⁵. كما تدرج في كنف مملكة غمارة، "مساكن قبائل مصمودة"¹⁰⁶ المستقرة على طول الشريط الساحلي الممتد من سبتة إلى طنجة، فضلا عن مساكن صنهاجة الهبط بطريق الساحل"¹⁰⁷.

وتحتفظ المصادر العربية باسم الملك الذي تأمر بهذه المنطقة، وهو "ملك من الروم يقال له أيليان"¹⁰⁸. وقد أشار صاحب البيان إلى موطنه "بأحواز طنجة، وكان بها ملك اسمه يليان"¹⁰⁹، على حد تعبيره. كما عرفه ابن خلدون بالقول تصريحاً أن "يليان أمير غمارة"¹¹⁰. بل وثمة روايات تؤكد عن أصله المصمودي ناعته إياه بـ "يليان الغماري وكان نصرانياً"¹¹¹. ولم تتردد الروايات العربية عن مدحه وإطرائه باعتباره شربفا في قومه"¹¹² وممن "كان من أشرف ملوك الروم وأعظمهم، وذوي العقل والدهاء فيهم"¹¹³.

وثمة مملكة ثانية قد انتظمت بأحواز وليلي حول حاضرة سقوما أو سجومة ببلاد طنجة. وتشتمل فضلا عن قبيلة أوربة البرنسية، على مجمل قبائل البرانس الضاربة بالمغرب الأقصى غرب تلمسان. وقد "كانت أوربة آن ذاك من أعظم قبائل المغرب"¹¹⁴؛ كما اشتهرت بين عموم قبائل المغرب الأقصى بكونها "أكثر عدداً وأشد بأساً"¹¹⁵. وإلى جانب أوربة البرنسية، تألق فرعها الثاني المعروف في المصادر العربية باسم صنهاجة البرنيسة أو "صنهاجة

¹⁰⁵ ابن خلدون، ديوان المتنبي والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (=كتاب العبر)، ضبط خليل شحادة، مراجعة سهيل ركار، بيروت، 1981، ج 6، 142.

¹⁰⁶ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 104.

¹⁰⁷ البيان المغرب، ج 1، 26.

¹⁰⁸ نهاية الإرب، 192.

¹⁰⁹ البيان المغرب، ج 1، 26.

¹¹⁰ كتاب العبر، ج 6، 193.

¹¹¹ الاستقصا، ج 1، 82.

¹¹² نهاية الإرب، 192.

¹¹³ البيان المغرب، ج 1، 26.

¹¹⁴ كتاب الاستبصار، 194.

¹¹⁵ كتاب العبر، ج 6، 192.

مفتاح¹¹⁶ المستقرة ببلاد الريف. والجدير بالملاحظة أن قبائل أوربة البرنسية قد انتظمت في الفترة السابقة للإسلام حول "قلعة يقال لها سقوما"¹¹⁷ وكذا سجومة بقلب المغرب الأقصى. ويتعلق الأمر بالموقع المذكور في مصادر أخرى بـ/الكف/ بدل /الفاف/ كالتالي: "مدينة سكوما وكانت على معربة من [الموقع الذي بنيت فيه لاحقا] فاس، وكانت مدينة عظيمة لم يكن بالمغرب أعظم منها"¹¹⁸. بينما انتظمت قبائل صنهاجة البرنسية حول موقع "بالش مرسى صنهاجة"¹¹⁹.

وسرعان ما انتظمت مجمل هذه المناطق والقبائل في مملكة قائمة تحت قيادة كسيلة بن لمزم الأوربي البرنسي. ولا غرو، فقد كشفت المصادر العربية عن المكانة الرفيعة التي تبوأها كسيلة باعتباره "من ملوك البربر"¹²⁰. وثمة روايت تاريخية دأبت على نعت كسيلة بكونه "من عظماء البربر"¹²¹ و "من كبر البربر"¹²². وعلى غرار أحوال مملكة يليان بأحواز طنجة، يبدو أن المسيحية قد ظلت بمثابة الدين السائد بالمملكة البرنسية. مصداق ذلك ما ورد من نعوت في وصف كسيلة البرنسي الذي "كان نصرانيا"¹²³. ونميل إلى الاعتقاد بأن قبائل نفزة، من بني ورياغل وبني يطفث وبني يزناسن وبني يصلنتن وبني ورتردين وغيرهم، قد اندمجت في سلك هذه المملكة البرنسية التي امتدت إلى أحواز مدينة تلمسان. ولم يكن ليخفى عن عموم أهل المغرب

¹¹⁶ من أبي زرعة، الألبس المطرب بروص الفوطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (الاسم المغرب)، 209، كتاب المعر، ج6، 284 لمزيد من التفاصيل عن فروع ومواطن البرانس بالمغرب الأقصى. راجع أحمد الصاهري، إمارة بني صالح في بلاد توكور (إمارة بني صالح)، الدار البيضاء، 1998، 186-89.

¹¹⁷ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 117.

¹¹⁸ كتاب الاستبصار، 194.

¹¹⁹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 90.

¹²⁰ البدر المغرب، ج1، 29.

¹²¹ الاستبصار، ج1، 80.

¹²² نهاية الأرب، 193.

¹²³ الاستبصار، ج1، 80.

"حال كسيلة وعظمه في البربر و انقيادهم إليه"¹²⁴. كما انقاد له اجمع كثير من الروم"¹²⁵ الذين آثروا الاستقرار تحت حكمه، بعد انقراط الحكم البيزنطي. كما تطالعنا المصادر العربية ببعض الاشارات الباهتة عن مملكة أمازيغية ظلت إلى حين فتح المغرب الأقصى قائمة بمضارب قبائل هوارة وزناتة وكتامة. مما يجعلنا أميل إلى مطابقة موقعها مع مضارب قبائل مكاسة الزناتية ولفوفها القبلية الصاعدة بنواحي سجلماسة. وثمة إشارة غاية في الأهمية تذكر اسم آخر ملوكهم ممن وقع في أسر الفاتحين، بالقول: 'وكان عليهم رجل يقال له طامون'¹²⁶.

وبرغم إجماع المصادر العربية الأصيلة على أن 'سجلماسة مدينة محدثة بنيت'¹²⁷ في الاسلام من طرف الأمير المدراري سنة أربعين ومائة هجرية، فثمة روايات متأخرة¹²⁸ تشير إلى أصول أقدم. وهو ما حدا ببعض الدارسين¹²⁹ — بدل إمعان النظر في المتن القديمة — إلى الانزلاق وراء تحليلات لفظية لا مخرج منها. وكما أمكننا في السابق الوقوف — من خلال بعض الإشارات المصدرية الباهتة — على ما يفيد قدم أصول مدينة نكور، التي أعيد تأسيسها في الإسلام بساحل ريف المغرب، تتكشف بعض الخيوط التي تربط تأسيس سجلماسة بعهود تاريخية غابرة.

¹²⁴ نهاية الإرب، 193.

¹²⁵ فتوح إفريقية والأندلس، 59.

¹²⁶ البيان المغرب، ج1، 41.

¹²⁷ الاستبصار، 201؛ الروض المعطار، 305.

¹²⁸ ورد الخبر بأن مؤسس سجلماسة "قائد روماني ذهب من موريطانيا فاحتل نومديا بأسرها ثم زحف سطر العرب حتى ماسة فبنى المدينة وسمّاها سجلوم ميسي لأنها كانت آخر مدن دولة ماسة ولأنها كانت كالأخاتم الذي يسحل به نهاية فتوحاته فحرف هذا الاسم بعد ذلك وتحول إلى سجلماسة وحسب رواية أخرى، هي في الواقع رواية الشعب وروايه جعرا فينا النكري. فإن المدينة «سمّاها الاسكندر الكبير لفضله المرصى والمعطوبين من جنوده الحسن الوزن، وصف إفريقي، ترجمة محمد حيي وأحرور، بيروت، 1983، ج2، 127

¹²⁹ وقد دأب بعض الدارسين، مجازاة لكوّال في المقال الذي صدر له ضمن مادة سجلماسة بدائرة المعارف الإسلامية، ولدراسة ماك كوك عن تأسيس سجلماسة، إلى البحث عن أصول مفترضة لكلمة سجلماسة من خلال تحليلات «صعبة لا تستند على أية أصول مكتوبة ولا المحفوظة في ذاكرة العامة من أهل البلد، بما يفسح المجال واسعاً لاهتمام القائل، الذي لا يرحى منه طبل انظر على سبيل المثال L. Mezzine, "Sur l'Étimologie

du toponyme Sijilmassa", *Hesperis Tamuda* vol. XXII, 1984, pp 19-25.

فقد أفصح الفيلسوف أبو مسلمة المجريطي عن الأصل الإغريقي لعبارة سجلماسة، إذ قال: "أن القدماء من اليونانيين يخصصوا النيرنجات وقلب العين اسم الترجيح، وبالطلسمة اسم السجلموس: وهو استئزال قوى الأرواح العلوية، ويوقعوا على الجميع اسم السحر، ولم يكن لهؤلاء الحكماء قدرة على هذا العلم إلا بمعرفة الفلك"¹³⁰. ومن الملاحظ أنه منذ القديم كان "موضع سجلماسة براح يجتمع فيه البربر وقتاً من السنة يتسوقون"¹³¹ فيه. وتتضح أهمية المكان من خلال ما تواتر ذكره لدى الإخباريين، إذ "كان يجتمع بالموضع بربر تلك النواحي"¹³². وهي ذات الأهمية التي اكتسبها موقع ازرو ان تسريث ببلاد الريف، إذ كان في القديم موضعاً يحاذي مدينة نكور في الضفة الثانية من النهر وكانوا يقيمون هناك سوقاً"¹³³.

لا غرابة في أن يكون أصل الموضعين اللذين اتخذت بهما أقدم حاضرتين بالمغرب الأقصى في الإسلام: نكور وسجلماسة، أكبر سوقين موروثين عن العهود البائدة. ولعل في توافق كافة القبائل الضاربة في الأحواز على الاجتماع في ذات المكان بصفة دورية، ما ينم عن أصول حضارية قديمة ظلت متداعية إلى حين انضواء البلد في دار الإسلام. وعلى غرار البرانس وغمارة ورناته، كانت قبائل السوس الأقصى منتظمة هي الأخرى في مملكة محلية قائمة. وقد أمكننا الوقوف على اسم آخر ملوكها ممن انحاش إلى الطاعة، ويعرف باسم "مزدانة ملك السوس"¹³⁴. ومن المعلوم أن قاعدة بلاد السوس **إيجلي**"¹³⁵.

¹³⁰ أبو مسلمة المجريطي، عابه الحكماء في الارصاد الفلكية والطلاسم الروحية، نشر محمود بشار، طبع في

لبنان، بدون تاريخ، 343.

¹³¹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 149.

¹³² الروض المعطار، 306.

¹³³ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 92.

¹³⁴ نفسه، ج 1، 45.

¹³⁵ الروض المعطار، 330.

وفي أول بادرة من نوعها، استحدث معاونه بن أبي سفيان ولأبيه إفريقية سنة 50 للهجرة (670 ميلادية) وقد عمد إلى فصلها عن ولاية مصر، وأقر عل رأسها عقبة بن نافع الفهري. من الطبيعي أن يعمد الوالي الجديد إلى وضع الأسس الإدارية لولاية إفريقية 'فاختط أولاً دار الإمارة، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاخطه'¹³⁶. فما كان بعدئذ إلا أن 'أخذ الناس في بيان الدور والمساكن والمساجد'¹³⁷. وبذلك أقيمت نواة أول حاضرة لبلاد إفريقية في الإسلام، لتحل محل حاضرة العهد البائد في قرطاجة. وبذلك أصبحت القيروان بمثابة قاعدة للبلاد بعدما كان الناس 'يغزون إفريقيا ثم يقفلون منها إلى القسطنطينة'¹³⁸. ومن المفيد الانتباه إلى أهمية استصحاب عقبة بن نافع منذ ولايته الأولى هذه 'ثمانية عشر رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم'¹³⁹، لتعليم البربر القرآن وتفقيهم في الأحكام. ولعل في ذلك ما يفصح عن موازنة المجهود العسكري ابتداء من هذا التاريخ بالعمل الثقافي. وهو ما انعكس في المصادر التاريخية التي احتفظت لهذا القائد بصورة رجل مقdam ومستجاب الدعوة، إلى الحد الذي يختلط فيه الواقع بالأسطورة.

إلا أن الخلافة الأموية سرعان ما استدركت الأمر، وتم عزل عقبة ابن نافع عن إفريقية، وولي مكانه أبو المهاجر دينار سنة 55 للهجرة (674 ميلادية). وبالموازاة لذلك أعيد ربط إفريقية بولاية مصر التي أسندت لمسلمة بن مخلد الأنصاري، اعتباراً لميوله الأموية ولمكانته السابقة من الخليفة عثمان بن عفان. ولم يتردد هذا الأخير من استعمال مولاه أبي المهاجر دينار على إفريقية، باعتبار أنه من مواله الأوفياء. وفي خطوة إلى الوراء، لم يتردد الوالي

¹³⁶ البيان المغرب، 20.
¹³⁷ نهاية العرب، 189.
¹³⁸ فوج إفريقية والاندلس، 57.
¹³⁹ البيان المغرب، ج 1، 20.

الجديد عن إفساد ما تم إنجازه من طرف عقبة بن نافع، "وأمر الناس أن تحرق القيروان" لتظل إفريقية كما كانت تابعة إداريا وجباثيا لفسطاط مصر.

وبدلا عن الانخراط في تدوين دواوين إفريقية والمغرب وفقا للشرائع والأحكام الجديدة، وإعادة تنظيم أحوالهما الإدارية والمالية المختلة بفعل توالي الحروب، مال أبو المهاجر دينار إلى تغليب سياسة الفتوحات المستمرة، استدرارا للسبي والمغانم. ولم يتأخر عن "التوغل في ديار المغرب"¹⁴⁰ إلى أن "نزل عيونا عند تلمسان"¹⁴¹ وهي التي سبقت مدد ذلك الحين له، فأصبحت معروفة باسم عيون أبي المهاجر. ومن موقعه جيوستراتيجيا بتلمسان، وهو حد لم يبلغه أحد من الولاة قبله، لم ينوقف أبو المهاجر عن الإغارة على أطراف المملكة البرنسية.

من الطبيعي أن يتقدم كسيلة البرنسية لدرء المحاضر التي نزلت بكلكتها على الحدود الشرقية لمملكته مما أسفر عن اندلاع حرب بين الطرفين "حول تلمسان"¹⁴². وتجمع المصادر التي تناولت هذا الموضوع أن الملك البربري كسيلة قد "ظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم"¹⁴³. وبينما تكفي بعض المصادر بالقول أن "كسيلة أظهر الإسلام"¹⁴⁴ تؤكد روايات أخرى أنه قد "أسلم في ولاية أبي المهاجر وحسن إسلامه"¹⁴⁵. ولعل فيما ورد على لسان أبي المهاجر من إقرار بمكانة و"حال كسيلة وأنه من ملوك البربر"¹⁴⁶، ما ينم عن إقدام الطرفين على إمضاء عقد مسالمة تنضوي بمقتضاها المملكة البرنسية بالمغرب الأقصى صلحا في كنف خلافة دمشق عبر ولاية إفريقية وفسطاط

40 الاستقصاء، ج 1، 80
41 النيس المعرب، ج 1، 28
142 الاستقصاء، ج 1، 80
43 النيس المعرب، ج 1، 29-28
144 الاستقصاء، ج 1، 80
45 نهاية الارب، 193
146 النيس المعرب، ج 1، 29

مصر. وهو ما أشارت إليه المصادر المتداولة إذ كشفت عن مال كسيلة الذي سبّاه أبو المهاجر واستخلصه¹⁴⁷ ضمن بطانته في سياق رابطة الولاء.

وبعد وفاة معاوية بن أبي سفيان وتولية ابنه يزيد الخلافة، أعيد فصل إفريقية عن ولاية مصر. ونظرا لاندماج المملكة البرنسية بالمغرب الأقصى ضمن نظام الخلافة بدمشق، تم توسيع المجال الجغرافي للولاية التي غدت منذ هذا الحين تعرف باسم ولاية بلاد إفريقية والمغرب كله¹⁴⁸، ونصب على رأسها عقبة بن نافع الفهري، وذلك سنة 62 للهجرة (681 ميلادية). وبمجرد حلول عقبة بن نافع بإفريقية أوثق أبا المهاجر في وثاق شديد¹⁴⁹، وأسرع بإصدار الأمر بخراب المدينة التي اتخذها بديلا لحاضرتة، "ورد الناس إلى القيروان"¹⁵⁰ من جديد. ورغبة في استئناف سياسته السابقة القائمة على موازنة المجهود العسكري بالعمل الثقافي اصطحب عقبة بن نافع "معه خمسة وعشرون رجلا من أصحاب رسول الله"¹⁵¹. والجدير بالذكر أن الخليفة يزيد بن معاوية قد خاطب عقبة بن نافع لما أقره على ولاية إفريقية بالقول: "أدركها قبل أن تفقد"¹⁵²، مما يدل على هشاشة نفوذ دمشق بمجمل بلاد إفريقية والمغرب. وهو ما يتجلى من كثرة الغزوات التي قادها عقبة بن نافع خلال ولايته الثانية ضد الروم والبربر المتحصنين بمدن وقلاع باغاية وقرطاجة والمنستير وبوادي المسيلة من أرض الزاب وبتيهرت وأحوازها.

وليس مصادفة أن تتوقف عمليات عقبة بن نافع الحربية بأحواز تيهرت في اتجاه تلمسان، اعتبارا لما سلف ذكره عن اندماج المملكة البرنسية مسالمة في دار الإسلام. بل ومن الطبيعي في ظل رابطة الولاء المنعقدة في إطار

¹⁴⁷ الإسقيصا، ج 1، 80.

¹⁴⁸ البيان المغرب، ج 1، 23.

¹⁴⁹ فتوح إفريقية والأندلس، 58.

¹⁵⁰ نهاية الإرب، 190.

¹⁵¹ البيان المغرب، ج 1، 23.

¹⁵² نفسه، ج 1، 22.

الصلح أن ينضم كسيلة بقواته إلى الجيش الفاتح. وهو ما أفصحت عنه الحوليات التاريخية بالقول: "وكان كسيلة الأوربي في جيش عقبة قد استصحبه في غزواته"¹⁵³. ومن المعلوم أن عقبة بن نافع قد تعمق في بلاد طنجة، في أول اتصال حقيقي للفتحين بالمغرب الأقصى. وهو ما عبرت عنه كتب الفتوح بالإشارة إلى أنه قد "دخل المغرب الأقصى، وذلك سنة 62 من الهجرة؛ وعقبة أول من دخله من عمال المسلمين"¹⁵⁴. وبدلاً عن المقاومة، لم يتردد يليان أمير غمارة عن مخاطبة ود عقبة بن نافع وأهدى إليه هدية حسنة¹⁵⁵. وقد لخص ابن عذاري¹⁵⁶ هذا الحدث بالقول: فلما قاربه، وحه إليه إرساله مستعطف، وبعث له هدية عظيمة، وسأل منه المسالمة. لم يجد عقبة بن نافع بداً من إثارة السلم والاستجابة لرغبة يليان "وقبل منه واجتمع به"¹⁵⁷. وعلى الرغم مما تواتر ذكره عن تأهب يليان للنزول عن حكمه¹⁵⁸ لعقبة بن نافع، إلا أن هذا الأخير سرعان ما "أمنه وأقره في موضعه"¹⁵⁹. لعل في ذلك ما ينم عن إجراء مفاوضات بين الطرفين، أسفرت عن اندماج مملكة غمارة المصمودية صلحا في دار الإسلام. ومن المفيد الانتباه إلى انضواء كافة أبحاثها، بما في ذلك بحر المجاز وكورة الجزيرة الخضراء بالعدوة الأندلسية، منذ هذا العهد المبكر في كنف الخلافة بدمشق. وهو ما لحصته المصادر التاريخية التي تناولت فتح بلاد طنجة من طرف عقبة بن نافع، بواسطة عقد الصلح والمسالمة بسياسة يليان¹⁶⁰.

وفي مقابل ذلك، لم يتورع عقبة بن نافع عن إلحاق أصناف المهانة بالملك الربرسي كسيلة بن لمرم، طوال مسار ركبه بالمغرب الأقصى؛ وقد بلغت

¹⁵³ الإستقصا، ج 1، 83.

¹⁵⁴ فتح العرب للمغرب، 219.

¹⁵⁵ نهج العرب، 192.

¹⁵⁶ البدر المغرب، ج 1، 26.

¹⁵⁷ نفس المصدر والصفحة.

¹⁵⁸ نهج العرب، 192، البدر المغرب، ج 1، 26، الإستقصا، ج 1، 82.

¹⁵⁹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 104.

¹⁶⁰ البدر المغرب، ج 1، 26.

به الصرامة أن أرغمه على سلخ الغنم مع السالحين. وبرغم توصل كسيلة إليه بطيب القول: "أصلح الله الأمير، هؤلاء فتيانى وعبيدي يكهوننى المؤنة"¹⁶¹، لم يتمكن من إقناع عقبة بن نافع للعدول عن قراره. كما تجرد الوالى المعزول أبى المهاجر لتنبيه عقبة بن نافع لسوء عاقبة سلوكه، إذ خاطبه قائلا: "بئس ما صنعت! كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألف جبابرة العرب، وأنت تأتي إلى رجل جبار في قومه، في دار عزه، قريب العهد بالشرك فتهينه"¹⁶². ومع ذلك أصر عقبة بن نافع على إهانة الملك البربري انتقاما واستصغارا، ولم يعبا بما قيل له، وتمادى في "سب كسيلة وأمره بالقيام فقام مغضبا وذبح الشاة، وجعل يمسح لحيته بما على يديه من دمها"¹⁶³ توعدا بالانتقام.

وانطلاقا من بلاد طنجة، ومن تخوم المملكة البرنسية بأحواز مدينة ويلي بالذات، استأنف عقبة بن نافع حملته الشهيرة في اتجاه بلاد تامسنا بالسوس الأدنى نحو جبل درن وبلاد درعة بالسوس الأقصى. وثمة روايات تشير إلى نزول الحملة نحو بلاد الصحراء ومنتهاها إلى بلاد صنهاجة اللثام¹⁶⁴. ولم يتردد أحد الرواة¹⁶⁵ عن التصريح بأن عقبة بن نافع قد تمكن من "فتح كورة من كور السودان". وتقدم الحوليات التاريخية وكتب الفتوح¹⁶⁶ التفاصيل المتعلقة بمختلف المواقع التي نزل بها عقبة بن نافع، مثل مدن: ويلي ونفيس وأغامت وريكة وإيجلي وتارودانت وماسة. كما ذكرت عددا من المواضع التي مر بها مثل: تانزالت وإيغيران يطوف وتارنا وموضع شاكر وتانصمشت وتوسوفرا وإيصرول وسرنو والمزح وموضع يقال له إطار. وتدرج دكالة وهسكورة

¹⁶¹ نفسه، ج 1، 29.

¹⁶² نفس المصدر والصحة.

¹⁶³ نهاية الإرب، 193.

¹⁶⁴ الإستقصا، ج 1، 82.

¹⁶⁵ انظر: البيان المغرب، ج 1، 28.

¹⁶⁶ لمزيد من التفصيل بهذا الخصوص راجع: فتح العرب للمغرب، 219-20 البيان المغرب، ج 1، 26-28 نهاية الإرب، 192-193، الإستقصا، ج 1، 82.

وحاجة ورجراجة وصودة ودرعة من ضمن البلاد التي شملتها الحملة؛ إضافة لقبائل مسوفة وجزولة وبني ماکر. وبالإضافة لجبل درن، ورد في ذات السياق ذكر وادي أم ربيع ووادي نفيس ووادي سوس.

وعلى الرغم مما قيل عن تدويخ عقبة بن نافع لمجموع هذه البلاد، وإثخانها في أهلها، ووضع السيف في جموعهم، وكثرة ما ناله من محاسن سبيهم، إلا أن معظم القرائن تدل على أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد نزهة عسكرية لم تصادف أية مقاومة. وهو ما عبر عنه الفقيه القرطبي ابن عبد البر النمري بالقول في عبارة مقتضبة دالة: "وجال هنالك، ولا يقاتله أحد، ولا يعارضه"¹⁶⁷. كما أكد ذلك ابن عبد الحكم¹⁶⁸ في سياق حديثه عن غزاة عقبة بن نافع في بلاد السوس، إذ قال: "فجول في بلادهم لا يعرض له أحد ولا يقاتله". وبالمثل، دأب غيرهما من رواة أخبار الفتح على القول بأن قبائل المغرب الأقصى لم تعترض عقبة بن نافع و "إنهم أطاعوه ولم يقاتلوه"¹⁶⁹. وفي نفس السياق، أشار النويري¹⁷⁰ إلى أن عقبة "سار حتى بلغ البحر المحيط لا يدافعه أحد". ومن المفيد التذكير بالحدث الذي ذاع صيته في الآفاق إلى أن غدا شبيبها بالأسطورة، مفاده أن عقبة بن نافع سار "من إيجلي حتى وصل ماسة، فأدخل فرسه في البحر حتى وصل الماء تلايبه، وقال: اللهم إنك تعلم أنني لم أطلب إلا ما طلب عبدك ووليك ذو القرنين ألا يعبد في الأرض غيرك"¹⁷¹. وفي رواية أخرى، أنه لما سارت الحملة في السوس و"انتهى عقبة إلى البحر، أقحم فرسه فيه حتى بلغ نحره، ثم قال: اللهم إني أشهدك أن لا مجاز ولو وجدت مجازا

¹⁶⁷ انظر: البيان المغرب، ج 1، 28.

¹⁶⁸ فتوح إفريقية والأندلس، 58.

¹⁶⁹ فتح العرب للمغرب، 219.

¹⁷⁰ نهاية الإرب، 192.

¹⁷¹ البيان المغرب، ج 1، 28.

لجزت¹⁷². مما يكشف عن السهولة الغير المنتظرة في اختراق البلاد، وبفصح عن طبيعة هذا الحملة في التعريف بقواعد الدين وأحكام الإسلام.

وقد نسب ليليان أمير غمارة القول بأن سكان بلاد السوس من "البربر وهم مثل البهائم لم يدخلوا في دين نصرانية ولا غيرها، وهم يأكلون الجيف ويأكلون مواشيهم ويشربون دماءها من أعناقها، فقد كفروا بالله العظيم، ومعظمهم من المصامدة"¹⁷³. وفي روايات أخرى أن أهل 'السوس الأدنى قوم ليس لهم دين'¹⁷⁴، وأنهم على الفطرة "لا يعرفون أن الله حق"¹⁷⁵. ولم يتردد ابن عبد الحكم¹⁷⁶ عن التصريح بأن "البربر كفار". ولا تعوزنا القرائن المتواترة في كتب الفتح، التي تنسب سكان أهل البلاد الأمازيغ إلى المجوسية؛ فقد ورد القول أن "الروم والبربر هم إذ ذاك مجوس ونصارى"¹⁷⁷. كما أشار ابن خلدون إلى أن "صنهاجة أهل اللثام هم يومئذ على دين المجوسية، ولم يدينوا بالنصرانية"¹⁷⁸. مع ذلك، فمن المفيد الانتباه إلى الاستثناءات التي لا تسير هذه القاعدة، علما بأن عقبة بن نافع لما نزل على أغمات، وجد فيها نصارى البربر"¹⁷⁹. وبالمثل، تذكر بعض المصادر أن 'مدينة نفيس مدينة قديمة أزلية غزاها عقبة بن نافع رحمه الله وحاصرها، وفيها الروم والنصارى والبربر'¹⁸⁰. بل وينص البكري¹⁸¹ تصريحاً أن الأمر يتعلق بـ "الروم ونصارى البربر وكانوا قد اجتمعوا بها لحصانتها".

¹⁷² فتوح إفريقية والأندلس، 60.

¹⁷³ البيان المغرب، ج 1، 26.

¹⁷⁴ نهاية الإرب، 192.

¹⁷⁵ الاستقصا، ج 1، 82.

¹⁷⁶ فتوح إفريقية والأندلس، 60.

¹⁷⁷ البيان المغرب، ج 1، 24.

¹⁷⁸ الاستقصا، ج 1، 82.

¹⁷⁹ فتح العرب للسعر، 219.

¹⁸⁰ كتاب الاستبصار، 208.

¹⁸¹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 160.

ولا تخفى المهمة الدينية والثقافية والدبلوماسية التي نسبت لحملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى. فقد أجمعت الروايات التي تعرضت لهذا الحدث قدمه على بنيان 'مسجد بدرعة ومسجد بالسوس الأقصى'¹⁸²، وهو المعروف في رواية أخرى بـ 'مسجد وادي سوس'¹⁸³. وتتوفر على جملة من الروايات التي تناقلت عن كتاب المسالك للإتسيلي قوله: إن المسجد الذي على وادي نغيس بناه عقبة رضي الله عنه¹⁸⁴. وقد أكد ذلك البكري¹⁸⁵ الذي نص على أن عقبة بن نافع قد بنى بها مسجدا [المشهور باسمه]¹⁸⁶ إلى اليوم. ومن المعلوم أن الناس قد دأبوا بعدئذ على نسب العديد من المساجد التي أقاموها بعموم المغرب الأقصى إلى عقبة بن نافع نيمنا. وهو ما تم توضيحه بالقول: وأما غير ذلك من المساجد المسماة باسمه فإن الناس — والله أعلم — بنوها بموضع نزوله¹⁸⁷.

وليس أدل على ميل عقبة بن نافع إلى إثارة العمل الحضاري، وبذر البنور الأولى لتعريف أهل المغرب الأقصى بالدين الإسلامي، مما ذكر عن كونه ترك فيهم بعض أصحابه يعلموهم القرآن وشرائع الإسلام، منهم شاعر صاحب الرباط وغيره¹⁸⁸. ولعل فيما نسب إلى عقبة بن نافع إثر دخوله أغيروا في ولايته الثانية من قول: يا رب املأها علما وفقها¹⁸⁹، ما يفصح عن النوايا المعلنة للوالي الجديد، بما يختلف عن التوجهات العامة للخلافة الأموية بإفريقية وبلاد المغرب، والحديث بالذكر، أن تحويل الخلافة ملكا وراثي بقولبة يزيد بن معاوية قد أثار حلافا واسعا في مجمل دار الإسلام. ومن المعلوم

¹⁸² نفس المغرب، ج 1، 28.

¹⁸³ فتح العرب سمير، 220.

¹⁸⁴ البيان المغرب، ج 1، 28، فتح العرب للمغرب، 219.

¹⁸⁵ المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، 160.

¹⁸⁶ الأمانة من: فتح العرب للمغرب، وهي ساقطة من كتاب البكري.

¹⁸⁷ نفس المغرب، ج 1، 28.

¹⁸⁸ نفسه، ج 1، 14.

¹⁸⁹ تاريخ إفريقية والمغرب، 8.

أن عبد الله بن الزبير قد أعلن الخلاف بمكة وخلع طاعة يزيد بن معاوية سنة 61 هجرية (680 ميلادية). وخوفا من اختلال الأمور ببلاد المغرب، فمن الحنكة أن يتم إسناد الأمور لوال كفيل بإبراز المقاصد الأصلية للفتح الإسلامي، وتجميد الاندفاع المنفعي القائم على المغنم والسبي والتكسب. وهو ما تتم عليه العبارة التوجيهية المقتضبة الشكل، الدالة المعنى، التي خاطب بها الخليفة يزيد بن معاوية واليه الجديد على بلاد إفريقية والمغرب، بالقول: "أدركها قبل أن تفسد" ¹⁹⁰.

من المفيد الانتباه إلى تماسك الملك البرنسي كسيلة بن لمزم الأوربي، وعدم انسياقه مع دعوة أهل مملكته للانتفاض على عقبة بن نافع، أثناء وجوده بالمغرب الأقصى. وتفصح الروايات العربية عن مبادرة عقبة إلى مهاجمة كسيلة، عملا برأي أبي المهاجر الذي نصحه بالقول: "عاجله قبل أن يجتمع أمره" ¹⁹¹. وبدلا من المواجهة، أثر الزعم البربري نقادي المعركة. فلما سأل أصحابه: "لم تتحى عنه وهو في خمسة آلاف ونحن في خمسين ألفا؟" ¹⁹²، لم يتردد عن إجابتهم بالقول: "إنكم كل يوم في زيادة وهو في نقصان، ومدد الرجل قد افترق عنه، فإذا طلب إفريقية زحفت إليه" ¹⁹³. واضح أن تطلعات كسيلة لم تقتصر على مجرد ربح معركة، ولا على إشفاء الغليل بتحقيق انتقام شخصي مما تعرض له من إهانة وسوء معاملة. بل وقد اتخذ الأمر شكل صراع سياسي وعسكري بين زعيمين متعارضين على السلطة والنفوذ. فبصرف النظر عما اشتهر به عقبة بن نافع من خصال، فقد كان ممن يستمسك بالسلطة. مصداق

¹⁹⁰ البيان المغرب، ج 1، 22.

¹⁹¹ نهاية الإرب، 194.

¹⁹² البيان المغرب، ج 1، 29.

¹⁹³ نهاية الإرب، 194.

ذلك، ما ورد على لسان عبد الله بن عمرو بن العاص مخاطبا إياه بالقول: "إني أعلمك تحب الإمارة"^{١٩٤}.

وليس مصادفة أن يتربص كسيلة بطالعة عقبة بن نافع عندما حلت بظاهر مدينة تهودة لكي ينقض عليها، بقوة قوامها حسب بعض الروايات: "خمسين ألف مقاتل من البرابر"^{١٩٥}. ويتعلق الأمر حسبما يتضح من المادة المصدرية المتداولة بإقدام كسيلة — في مقام أول — على نقض العهد الذي سلف أن وقعه مع الوالي السابق أبي المهاجر دينار، والتحرر من تبعاته. وهو ما أفصحت عنه الحوليات التاريخية في عبارة واضحة الدلالة، بالقول: "فانتهاز كسيلة فرصة فنكت"^{١٩٦}. وفي رواية أخرى أن كسيلة "رأى فرصة وثب فقام"^{١٩٧}. وهو ما فصله أحدهم بالقول: "فقام في أهل بيته وقبائله من البربر"^{١٩٨}. واضح أن الأمر يتعلق بنكت ووثب وقيام، بما يفصح عن العمق السياسي والاجتماعي للصراع بين أهل البلد من قبائل البربر الأمازيغ، والجيش الأموي الفاتح الذي بعثه يزيد بن معاوية.

وليس هناك — في حدود علمنا — ما يدل على ارتداد كسيلة عن العقيدة، بعدما "أسلم ... وحسن إسلامه"^{١٩٩}. وبالمثل، ليس لدينا ما يدل على حدوث خلاف ديني بالمغرب الأقصى بين كفار مستمسكين بعبادة مفترضة للأصنام، ومسلمين داعين إلى عبادة الواحد الأحد، شبيه بما حدث بالحجاز مع كفار قريش. يبدو أن تاريخ المغرب الأقصى خلال هذه العهود الأولى الموسومة من لدن رواد الباحثين بالفرون المظلمة قد ناله تأويل فاضح، خارج عن الفواعد الابتدائية للمعرفة التاريخية. فبالإضافة لإسقاط ماضي الحرية

^{١٩٤} فروع إفريقية والأندلس، 60.

^{١٩٥} فتح العرب للمغرب، 220.

^{١٩٦} البيان المغرب، ج ١، 29.

^{١٩٧} نهج العرب، 194.

^{١٩٨} البيان المغرب، ج ١، 26.

^{١٩٩} نهج العرب، 193.

العربية الجاهلي وتاريخ كفار فريش على تاريخ المغرب الأقصى دون أدنى فحص تاريخي، من المفيد الانباه إلى مزالق الدراسات المعاصرة المتعلقة ضمن تصورات عرقية لمكونات دار الإسلام.

وبعد إتلاف جيش عقبة بن نافع، ومقتله مع كافة أصحابه سنة 63 للهجرة (682 ميلادية)، تابع كسيلة مسيره إلى مدينة القيروان قاعدة الولاية فدخلها منتصرا في مستهل السنة الموالية. وبالإضافة لأهل مملكته بالمغرب الأقصى، لم يتخلف عن الانضمام إلى كسيلة "جموع أهل المغرب الأوسط"²⁰⁰، كما "اجتمع إليه أهل المغرب قاطبة"²⁰¹. ينطبق نفس الشيء على روم لمغرب وإفريقية من النصارى الذين مالوا جملة إلى مشروع الزعيم البربري، حسبما يتجلى من خلال مراسلة النصارى بمدينة تهودة²⁰² لكسيلة، أثناء مطاردته لجيش عقبة. ذهبك عما نواتر ذكره عما "اجتمع مع كسيلة من البربر والروم"²⁰³. والجدير بالملاحظة أن روم إفريقية والمغرب قد تدرجوا إلى الصف الخلفي متخليين عن الزعامة في مناطق نفوذهم السابقة بالشريط الساحلي من البلاد. أما الحامية العسكرية المتخلفة بالقيروان تحت إمرة زهير بن قيس البلوي فقد أثرت الانسحاب مع الفلول المهرومة نحو برقة بأطراف مصر.

كل المؤشرات تدل على أن المملكة البرنسية بالمغرب الأقصى، قد تحولت تحت زعامة كسيلة بن لمزم الأوربي إلى إمبراطورية مغربية، تمتد من أقصى بلاد السوس إلى تخوم برقة. ويحتفظ ابن عذاري²⁰⁴ بهذا الخصوص بنص رواية إخبارية بالغة الدلالة عميقة المعنى، إذ قال: "فأمن كسيلة من بقي

²⁰⁰ فتح العرب للمغرب، 221.
²⁰¹ البلدان المغرب، ج 1، 29، 30.
²⁰² لاسبصار، 174، الاستقصا، ج 1، 83، نهاية الإرب، 194.
²⁰³ تاريخ إفريقية والمغرب، 16.
²⁰⁴ البلدان المغرب، ج 1، 31.

بالفيروان من المسلمين، وأقام بالفيروان أميراً على سائر إفريقية والمغرب، وعلى من فيه من المسلمين". نجدنا إذا حسب منطوق هذا النص أمام أول أمير معربي للمسلمين، ممن ينتمي في قبائل أوربة البرنسية المناصلة بالمغرب الأقصى. كما يتضح بأن كسيلة بن لمزم قد احتقط لنفسه بإمارة إفريقية والمغرب، حسب نفس التدبير الإداري المعتمد من طرف خلافة دمشق، في سياق ستكمال بناء الحناح الغربى لدار الإسلام. ولا غرو، فقد استنقى على الفيروان حاضرة لملكه، ولم يتم الكوص عنها إلى حاضرة العهد النائد غرضاً. وفي مضمون هذا النص ما يؤكد الموقف الإيجابي للبربر الأمازيغ تحده الدين الإسلامي، ويكشف خطأ الرعم السائع بقيام حرب دينية مفترضة بين بربر كفار وعرب مؤمنين.

ظل كسيلة على رأس الإمراضورية الفنية منذ دخوله الفيروان سنة 64 هجرية (683 ميلادية) إلى حين انهزامه على يد زهير بن قيس البلوي سنة 69 للهجرة (688 ميلادية). وهى السنوات التي لم تنل أدنى اهتمام من طرف الإخباريين العرب. وهو ما عبر عنه أحدهم في عبارة مقتضبة بليغة المعنى، إذ قال: ولم يكر في المغرب فى [تلك] الأيام ما يؤرخ²⁰⁵، مما يفصح عن طبيعة المادة التاريخية المتاحة، إذ تقتصر على رواية تاربخ الفاتحين، من عشائر العرب وقبائلهم ومواليهم من لأحدس الأخرى، فى المغرب. وبخيل إلينا أن نفضاع سلطان دمشق بصفة تامة عن إفريقية والمغرب طوال هذه السنوات، قد انعكست أيضاً على روائط التنعية الهشة التي سجت بين إمارة بليان بمنطقة المجاز وخلافة دمشق عبر ولاية إفريقية.

لم يكر بمقدور النظام الأموي القائم بدمشق القول بما الت إليه الأوصاع بلاد المغرب، اعتباراً لطبيعته القليلة القائمة على الرائب العسائري

²⁰⁵ فتح العرب للمغرب، 221.

حول النواة العربية المروانية. ومن المعلوم أن النواة المتحكمة في مقدرات دار الإسلام، قد نجحت منذ عهد عثمان في نسج أواصر الهيمنة عبر ثنائية قبلية متأرجحة بين القيسية واليمانية. وهي الثنائية المبنية على قاعدة عرقية عربية متحكمة عبر رابطة الولاء، فيما لا يحصى من القبائل والعشائر والأتباع من الأمم والشعوب الأخرى. ولا يخفى دور المغنم المتدفقة من البلاد المفتوحة، منذ تفكيك الإمبراطورية الساسانية واقتطاع أجزاء من الإمبراطورية البيزنطية، في إنعاش اقتصاد لا يحتمل توقف المغازي والمجاني. وليس مصادفة أن يلجأ النظام الأموي إلى إسناد قيادة الفتح ببلاد المغرب خلال هذه المرحلة الدقيقة لشخصيات من أمثال عقبة بن نافع المستجاب الدعوة والمنسوب إلى الولاية، أو زهير بن قيس البلوي المعروف بشهامته وفضله ودينه. وبالمثل، فنظرا لما اشتهر به حسان بن النعمان الذي أرففه في ولاية شؤون إفريقية والمغرب من حسن الطوية وكرم الخلق، "كان يسمى الشيخ الأمين"²⁰⁶. إنها واجهة أخرى للصراع في ظل نظام يفتقر للوازع الديني، ويسعى قدر المستطاع إلى إخفاء أنيابه الكاسرة ومواراة مقاصده الحقيقية.

فلما استقامت الخلافة لعبد الملك بن مروان بدمشق، جهز جيشا عظيما فوضعه تحت إمرة زهير بن قيس البلوي، فسار بجموعه نحو إفريقية. فلما علم كسيلة بذلك بادر إلى الإنسحاب عن القيروان نحو الموضع المعروف باسم ممش²⁰⁷. وهو ما علله بالقول: "إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة، فإن بها قوما من المسلمين لهم علينا عهود؛ ونحز نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا. ولكن ننزل موضع ممس وهي على الماء، فإن عسكرنا خلق عظيم، فإن هزمناهم إلى إطرابلس قطعنا أثارهم فيكون لنا الغرب إلى آخر

²⁰⁶ البيان المغرب، ج 1، ص 39.

²⁰⁷ نهاية الإرب، 195 وهي الغراء التي يعمدها وقد وردت في معظم المصادر بالسيد ورسوم مختلفة: ممس، لممس، مميس.

الدهر، وإن هزمونا كان الجبل منا قريبا والشعراء فنتحصن بهما²⁰⁸. واضح أن الأمر يتعلق بنقل ساحة المعركة المرتقبة إلى مكان أنسب، يضمن استمرار المقاومة في حالة الهزيمة. وفي مضمون القول ما يفصح أيضا عن تعايش المسلمين الوافدين من الشرق مع غيرهم من أهل الديانات الأخرى بمدينة القيروان، في ظل حكم كسيلة. ولم تكن حالة الحرب المعلنة من قبل دمشق لتنتهي الزعيم البربري عن الوفاء بالعهود التي قطعها للمسلمين من العرب، الذين أثروا العيش في كنفه. وعلى عكس ما شاع لدى جمهور الدارسين عن شرك البربر ومحاربتهم للإسلام والمسلمين، لا يخفى العمق السياسي للصراع. فغاية رجاء كسيلة حسب منطوق النص، استمرار أهل البلد في حكم بلادهم.

التحم الجمعان في موقع ممش حيث جرت إحدى أشرس المعارك، وكثر القتل في الفريقين حتى يئس الناس من الحياة²⁰⁹. ومن المعروف أن الزعيم الأوربي قد سقط في المعركة إلى جانب "ملوك وأشراف وفرسان البربر"²¹⁰. والجدير بالذكر أن الفاتحين ظلوا يطاردون فلول القبائل البرنسية المنهزمة، وجدوا في طلبهم "إلى وادي ملوية"²¹¹. ومنذ ذلك الحين "انكسرت شوكة أوربة"²¹² التي افتقدت حمايتها ورجالها. أسفر ذلك عن انحسار نفوذ أهل المغرب الأقصى عن إفريقية، وفقدان قبائله لزاما المبادرة. بينما آلت المملكة البرنسية إلى الانكماش في كيان محلي حول مدينة ويلي. أما روم إفريقية فقد أخذ بهم الفرع مأخذه فلجأوا إلى الحصون والقلاع. ولم تكن أحوال الجيش الفاتح الذي أعاد ربط القيروان بدمشق بأحسن حالا، بعد ما قاساه من أهوال المعركة.

²⁰⁸ البيهق المغربي، ج 1، ص 32.
²⁰⁹ تاريخ إفريقية والمغرب، ج 2، ص 20.
²¹⁰ البيهق المغربي، ج 1، ص 32.
²¹¹ الاستقصا، ج 1، ص 91، البيهق المغربي، ج 1، ص 32، تاريخ إفريقية والمغرب، ج 2، ص 20.
²¹² الاستقصا، ج 1، ص 91.

لم تتأخر الإمبراطورية البيزنطية عن العودة من جديد إلى الميدان، مستغلة ما أصاب المنتصرين والمنهزمين على السواء. فما كان إلا أن تجرد البيزنطيون لإنفاذ حملة بحرية من القسطنطينية لضرب القاعدة الخلفية لجيوش الفتح، وقطع طريق الوصل بين القيروان ودمشق؛ فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة عظيمة فأغاروا على برفة²¹³. لم يفلح زهير بن قيس اللوي المنصرف من القيروان في صد البيزنطيين عن قاعدته الخلفية ببرقة، فوضعوا السيف فيما تبقى من جيشه، وسقط شهيدا مع كافة أصحابه في ساحة المعركة. وسرعان ما انعكست الوضعية الجديدة على روم إفريقية الذين اجتمعوا من كافة أنحاء البلاد إلى حاضرتهم القديمة قرطاجنة. وليس أدل على ذلك عما كان بها من الروم، خلق لا يحصى؛ وقد تجردوا لإعادة ترتيب أوضاعهم في مملكة قائمة. ولم يتأخر "ملك قرطاجنة"²¹⁴ عن السعي لاسترجاع مكانة حاضرتة القديمة في كافة البلاد، باعتبار قرطاجنة دار ملك إفريقية²¹⁵. كما سعى إلى استرجاع مكانته في الصف الأول باعتباره من أعظم الملوك قدرا²¹⁶.

أما أهل إفريقية والمغرب من قبائل البربر الأمازيغ، فمن المعلوم أن جموعهم قد انفضت على إثر مقتل كسيلة²¹⁷ وتفكك النواة القبلية البرنسية. إلا أن مجمل القبائل المغربية سرعان ما بادرت إلى الانتظام من جديد حول النواة البترية التي تجردت لتنظيم المقاومة بمبادرة من قبيلة جراوة الزناتية. وقد تألفت فيهم طوال خمس وثلاثين سنة زعامة "امراة يقال لها الكاهنة وهي بحل أوراس"²¹⁸. وبعكس ما اندرجت عليه بعض الأقلام المتسرعة، ليس في عبارة الكاهنة ما يقلل من شأن هذه الملكة المغربية. فالحدير بالملاحظة أن هذه العبارة

²¹³ البس المغرب، ج 3، ص 33.
²¹⁴ فتح العرب للمغرب، 222.
²¹⁵ البيان للمغرب، ج 3، ص 34.
²¹⁶ نفس المصدر والمصفحة.
²¹⁷ لاستقصاء، ج 3، ص 93.
²¹⁸ فتح العرب للمغرب، 222.

قد اقترنت في أفصح السنة العرب بحصافة وسداد الرأي ونفاذ البصيرة "وكان [المرء] يدعى الكاهن لصحة رأيه"²¹⁹. عرفت بذلك لما اشتهرت به لدى عامة أهل البلد "من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهدت إليها رئاستهم ووقفوا عند إشارتها"²²⁰. أما اسمها الأصلي، فهو "دهيا بنت مائية بن تيفان ملكة جبل أوراس وقومها من جراوة ملوك البتر"²²¹. وفي ذلك ما يفصح عن انتقال الزعامة بعموم بلاد المغرب وإفريقية عن قبيلة أوربة البرنسية ولها من قبائل المغرب الأقصى ذات العمق الحضري، إلى يد قبيلة جراوة الزناتية ومن لف بها من قبائل البتر البدوية بالمغرب الأوسط وتخوم إفريقية. وقد تمكنت دهيّا، بفضل حنكتها السياسية وقدراتها القيادية وإقدامها العسكري، من تأكيد زعامتها على كافة قبائل إفريقية والمغرب، وهو ما عبر عنه ابن عبد الحكم²²² في سياق ما أورده من خبر "الكاهنة وهي إذ ذاك ملكة البربر". وليس أدل على عظم سلطانها مما خاطب به أهل القيروان حسان بن النعمان كاشفين له عن أحوالها وبأنها "الكاهنة، وجميع من بإفريقية من الروم منها خائفون، وجميع البربر لها مطيعون، فإن قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ولا معاند"²²³.

ومن المعلوم أن حسان بن النعمان قد عهد له الخليفة عبد الملك بن مروان بولاية إفريقية سنة 73 هجرية (692 ميلادية)²²⁴؛ فزحف بجمع عظيم، قدر حسب بعض الروايات بأربعين ألف رجل، فدخل بهم القيروان. وكان أول ما استهل به الوالي الجديد أمره بإفريقية مهاجمة مدينة قرطاجنة وفيها الروم،

²¹⁹ س. الأثر، الكامل في التاريخ، بيروت، 1994، ج 1، 321.

²²⁰ لاستقصا، ج 1، 93.

²²¹ العبر، ج 6، 143.

²²² فتوح إفريقية والأندلس، 63.

²²³ البدر المغرب، ج 1، 35.

²²⁴ فتوح إفريقية والمغرب، 62 وفي رواية أخرى أن ولاية حسان بن النعمان إفريقية كانت في سنة 69 هجرية كما قيل من ملك حدث سنة 74 للهجرة، انظر بهانه الاربع، 196.

فلم يصب فيها إلا قليلا من ضعافهم" حسب رواية ابن عبد الحكم²²⁵. والراح أنه قد مال إلى حصارهم في مواقعهم بالحاضرة، وفي بنزرت وتينجة وسطفورة، وغير ذلك مما تحصنوا به من المواقع والمدن الساحلية²²⁶. وسرعان ما أخذ اليأس روم إفريقية، فاجتمع رأي من بقي بها على الفرار منها. وكانت لهم مراكب كثيرة، فمنهم من مضى إلى صقلية، ومنهم من مضى إلى الأندلس²²⁷. كما ذاع الخبر في الأفاق بـ "هروب الملك عنها"²²⁸ واضعا بذلك حدا نهائيا لحكم الروم ببلاد إفريقية. ونتيجة للفراغ السياسي المترتب عن إخلاء الروم لحواضر البلاد، لم يتأخر البدو المقيمون في الضواحي والأقاليم المجاورة عن التدافع إليها من كل حذب وصوب فاحتلوها. إلا أن حسان بن النعمان بادر إلى إصدار أمره لأهل البوادي "بتحريب قرطاجنة وهدمها، فخربوها حتى صارت كأمس الغابر"²²⁹. وكان قد سبق إلى وضع السيف في جموع أهل البادية "فقتلهم قتلا ذريعا وسباهم ونهبهم"²³⁰.

وبذلك، انفتح الطريق أمام حملة حسان بن النعمان للتوجه صوب جبال الأوراس للقاء الملكة البربرية داهيا. وحتى تمنع عن الفائد العربي فرصة التحصن بقواته، "سبقته إلى مدينة باغاية وأخرجت منها الروم وهدمت حصنها"²³¹. وتزخر المصادر التاريخية بالتفاصيل عن المعركة التي دارت رحاها بين الطرفين، على بعد ثمانية عشر ميلا من باغاية، عند الموضع الذي اشتهر منذ ذلك الحين باسم وادي العذارى²³². وقد تواتر الخبر عن شراسة القتال الذي كان "قتالا شديدا ما سمع قط، فعظم البلاء وظن الناس أنه الفناء

²²⁵ فتوح إفريقية والأندلس، 62.

²²⁶ نهاية الإرب، 196.

²²⁷ البيان للمغرب، ج 1، 35.

²²⁸ نفس المصدر والصفحة.

²²⁹ نفس المصدر والصفحة.

²³⁰ نفس المصدر والصفحة.

²³¹ تاريخ إفريقية والمغرب، 24.

²³² البيان للمغرب، ج 1، 36.

فانهزم حسان بن النعمان. وقتلت [الكاهنة] العرب قتلا ذريعا وأسرت من [أعيان] أصحابه ثمانين رجلا²³³. لم يبق أمام الفلول المنهزمة من الحيش الفاتح إلا الانسحاب جملة نحو قاعدتهم الخلفية ببرقة، حيث أقام حسان بن النعمان القصور التي نسبت إليه "فسميت قصور حسان"²³⁴.

والجدير بالملاحظة أن الروايات العربية لم تخف مظاهر المعاملة الطيبة التي حظي بها الأسرى العرب ممن وقع في يد الملكة داهيا، إذ "أحسنتم إليهم وأرسلت بهم إلى حسان"²³⁵ أحرارا. بل وثمة تفاصيل عن إقدام الملكة على مؤاخاة "خالد بن يزيد القيسي وكان من خيار المسلمين وأفضلهم"²³⁶ مع ابنائها، "وكان لها ابنان أحدهما بربري والآخر يوناني... فقالت: قد صرتم إخوة"²³⁷. مما يفصح عن عدم إبداء المغاربة الأمازيغ لأية معاداة للدين الإسلامي ولا رفض للعرب، وتأهيم على عكس ما هو شائع لمد جسور الإخاء والتعايش بين البربر والروم والعرب ببلاد المغرب. ولعل في التحذيرات التي وجهتها الملكة داهيا لقومها منادية إياهم بالفول: "ويلكم مضى ملككم"²³⁸ و "يا معشر البربر ذهب ملككم"²³⁹، ما يدل على اقتصار الصراع بين الطرفين على السيادة والملك.

ومرة أخرى، تنتظم كافة بلاد إفريقية والمغرب تحت راية مملكة واحدة، تمتد من تخوم إطربلس إلى أطراف بلاد طنجة، مسيرة ألفي ميل في مثله حسب بعض التقديرات. وقد أشارت بعض المصادر إلى ذلك في عبارة مقتضبة دالة، بالقول: "وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين"²⁴⁰.

²³³ تاريخ إفريقية والمغرب، 24-25. الكلمتين اللتان بين معقوفتين من البيان، ج 1، 36.
²³⁴ فنوح صريفي والاندلس، 63.
²³⁵ البيان للمغرب، ج 1، 37. تاريخ إفريقية والمغرب، 26.
²³⁶ فتح العرب للمغرب، 222.
²³⁷ البيان للمغرب، ج 1، 37.
²³⁸ تاريخ إفريقية والمغرب، 29.
²³⁹ البيان للمغرب، ج 1، 37. تاريخ إفريقية والمغرب، 30.
²⁴⁰ البيان للمغرب، ج 1، 36.

إلا أن تصدر البدو الزناتيين من البربر البئر للف القبلى الذي قامت عليه قواعد المملكة، كان له أبلغ الأثر على العمران الحضري الذي ال في مجمله إلى الخراب. وهو ما كشفت عنه الملكة داهيا الحراوية في قولها الشهير مخاطبة خاصة أهل مملكتها: 'إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعى، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر'.²⁴¹ وقد احتفظت المصادر العربية برواية فائقة الأهمية منسوبة لعد الرحمن بن زياد بن أنعم أحد فقهاء وقضاة القيروان، إذ قال: 'إن إفريقية كانت ظلا واحدا من إطرابلس إلى طنجة وقرى منصلة ومدائن منطمة حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم إفريقية والمغرب مسيرة ألفي ميل في مثله فخربت الكاهنة ذلك كله'.²⁴²

لا يتعلق الأمر بمجرد خطة عسكرية، بل تجاوز ذلك إلى تجرد قبائل النتر من البدو لاستغلال فترة زعامتهم، بإتلاف كافة مظاهر الحضارة التي تستند عليها قوة البرانس، وسكان الحواضر سواء من البربر أو الروم. وقد أشارت بعض المصادر إلى ذات الحقيقة بالقول: فلما ملكت الكاهنة إفريقية كلها أساعت السيرة في أهلها²⁴³. سرعان ما أسفر ذلك عن بروز شرخ ضمن الف الفلى بين البئر والبرانس، حتى قيل: 'إن البربر متفرقون لا رأي لهم ولا نظم عندهم'.²⁴⁴ ويتواتر في المصادر العربية الخبر عن "البربر [الذين] استأمنوا إلى حسان"²⁴⁵ وعمن تلافاه بعدئذ "من البصرى يستغيثون إليه من الكاهنة فيما نزل

²⁴¹ نفس المصدر والصفحة

²⁴² النبال المغرب، ج 1، 36؛ عن مصدر الرواية أنظر: تاريخ إفريقية والمغرب، 31. كما ورد مقطوع من غير الرواية سغولا عن كتاب: تاريخ فتوح المغرب لابن حمدة، أنظر: فتح العرب للمغرب، 222 وقد توفي عن

الرحمن بن زياد بن أنعم سنة 161 هجرية

²⁴³ نهبة الأرب، 147

²⁴⁴ تاريخ إفريقية والمغرب، 27، 28

²⁴⁵ لأسعفا، 43

بهم من خراب ضياعهم²⁴⁶ وعن أهل قفصة وقصطيلية الذين "بعثوا إليه أيضا يستغيثون به من أمر الكاهنة"²⁴⁷. وقد بلغ الخراب بالبلاد أن "حرح يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فنفروا على الأندلس وسائر الجزر الحرة"²⁴⁸. ويخيل إلينا أن يليان أمير عمارة وصاحب سنة قد مال منذ هذا التاريخ إلى مماناة مملكة القوط بالأندلس والارتباط بخدمة عرشهم القائم بطليطلة²⁴⁹.

بلغت المملكة البربرية الحراوية من التآكل بفعل الصراعات الداخلية أن كانت الملكة داهيا تسقوطها، حسما ورد مفصلا في جملة من المصادر لمأولة²⁵⁰. لذلك لم تتردد - رغم موقعها على رأس المملكة البربرية - في نهى مستقبل ولديها السياسي لدى والي إفريقية من قبل خلافة دمشق. فمن المعروف أنها قد بعثت بهما سرا إلى حسان بن النعمان، مذكرة مرافقهما خالد بن يزيد القيسي بالقول: "وأما أولادي فسوف يدركون سلطانا مع هذا الرجل الذي يقتلني فيعقدون للبربر غرائم، ثم قالت: اركبوا واستأمنوا إليه"²⁵¹. وعندما تقدم حسان بن النعمان بالجيش مرة ثانية سنة 78 للهجرة (693 ميلادية)، كنت نتائج المعركة معروفة مسبقا، مع ذلك أصرت داهيا على المواجهة، مذكرة من دعاها للاستسلام بالقول: "الملوك لا يعرفون من الموت"²⁵². وقد لقيت حتفها فعلا بالموضع الذي جرت به المعارك في أصل جبل فسميت بئر

²⁴⁶ تاريخ إفريقية والمغرب، ج 1، ص 31.

²⁴⁷ نفسه، ج 2، ص 32.

²⁴⁸ نفس المغرب، ج 1، ص 27، 26.

²⁴⁹ فتوح إفريقية والأندلس، ج 2، ص 72.

²⁵⁰ تاريخ إفريقية والمغرب، ج 3، ص 33، 32. نفس المغرب، ج 1، ص 37، 38. فتح العرب للمغرب، ج 2، ص 222، 223.

²⁵¹ البيان المغرب، ج 1، ص 38.

²⁵² فتح العرب للمغرب، ج 2، ص 223. تاريخ إفريقية والمغرب، ج 1، ص 32.

الكاهنة²⁵³ عن سن يناهز — حسب رواية هاني بن بكور الضريسي — مائة وسبعا وعشرين سنة²⁵⁴.

وبذلك استقام أمر البلاد لحسان بن النعمان الذي "دانت له إفريقية، فدون الدواوين، وصالح من ألقى بيده على الخراج، وكتب الخراج على عجم إفريقية، وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر والروم"²⁵⁵. وهو ما فسره ابن عبد الملك²⁵⁶ في رواية فريدة تنص على أن "من أقام معهم على النصرانية من البربر عامتهم من البرانس إلا قليلا من البتر". واضح أن نموذج المجتمع الإسلامي الأول الذي وضع حسان بن النعمان أسسه ببلاد إفريقية يقوم على التعدد الديني: مسلمين ونصارى، وعلى التنوع العرقي: بربر وروم وعرب. وواضح أيضا أن اعتناق الإسلام ظل بالنسبة للجميع مسألة عقيدة تتم اختيارا بالاقتناع. أما السيف فما وضع إلا لترسيخ النفوذ السياسي والإداري لخلافة بني أمية في البلاد. وإلى جانب ذلك، لم يذخر حسان بن النعمان جهدا في إدماج قبائل وقيادات البربر ضمن رايات جند الخلافة الأموي، وفق رابطة الولاء. مصداق ذلك ما ورد عن جماعة البربر [الذين] استأمنوا إليه، فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفا يجاهدون مع العرب، فأجابوه وأسلموا على يديه، فعقد لولدي الكاهنة لكل أحد منهما على ستة آلاف، وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب"²⁵⁷. والجدير بالذكر أن الأمر يتعلق برايات الجند البربري التي وضعت لاحقا تحت إمرة والي المغرب الأقصى — من قبل صاحب القيروان — القائد طارق بن زياد النفزي.

²⁵¹ فترح إفريقية والأندلس، 64.

²⁵⁴ الاستقصاء، ج 1، 93.

²⁵⁵ تاريخ إفريقية والمغرب، 34.

²⁵⁶ فتوح إفريقية والأندلس، 64-65.

²⁵⁷ البيان المغرب، ج 1، 38.

وبمجرد ما انتظمت الأمور لصاحب إفريقية، كشف النظام الأموي على وجهه الثاني القائم على الجشع والمحابة وحب التملك واحتجان الأموال. فقد سارع صاحب مصر عبد العزيز بن مروان المتحكم في ولاية إفريقية إلى إرسال وفد لمراقبة ما تجمع لدى حسان بن النعمان من سبي ومغانم وأموال وأمرهم أن يحفظوا جميع ما معه²⁵⁸ تمهيدا لمصادرتة. أردف ذلك بعزل حسان بن النعمان، بعدما استنفذ النظام الأموي كافة طاقاته، وتم قطف ما تحقق على يديه من نتائج. فلما اطلع حسان على طوية صاحب مصر عبد العزيز بن مروان "عمد إلى الجواهر والذهب والفضة"²⁵⁹ فأخفاه متجنباً بذلك وقوعه تحت يده. ومن المعلوم أن عبد العزيز قد استطال عليه و"سلبه جميع ما كان معه"²⁶⁰؛ كما عمداً إلى أخذ كل ما كان معه من السبي، وكان قد قدم معه من وصائف البربر بشيء لم ير مثله جمالا... مائتي جارية منها ما يقام بألف دينار²⁶¹. لم يتمالك حسان بن النعمان الذي جاهد بالأمس في خدمة النظام عن إعلان خيبة أمه بمحصر الخليفة الوليد بن عبد الملك، مذكرا إياه بالقول: "إنما خرجت مجهدا في سبيل الله... [والله] لا أولي لبني أمية أبدا"²⁶². وهي الحقائق التي أتركت بصيرة ملوك البربر الأمازيغ منذ الوهلة الأولى كنهها، فتجردوا للوقوف بحزم في وجه الخلافة الأموية، كما نتبعنا ذلك سلفا.

رابعاً - إسلام أهل المغرب الأقصى

لقد سلفت الإشارة إلى أن أول احتكاك للمغرب الأقصى بالإسلام والمسلمين قد تم بتخومه الشرقية عند تلمسان في ولاية أبي المهاجر دينار،

²⁵⁸ تاريخ إفريقية والمغرب، 36
²⁵⁹ نفس المغرب، ج 1، 38
²⁶⁰ نفسه، ج 1، 39
²⁶¹ فروع إفريقية ولانديس، 67
²⁶² نفس المغرب، ج 1، 39

خلال النصف الثاني من العقد الخامس الهجري. ومن المفيد الانتباه إلى أن كسيلة بن لمزم الأوربي البرنسي يعتبر أول من أسلم من أهل المغرب الأقصى. تم ذلك في تقديرنا عن اختيار وطواعية، إذ "عرض عليه الإسلام فأسلم"²⁶³ قبل دخول الفاتحين للمغرب الأقصى بسنوات عدة. وليس مصادفة أن يميل أحد عظماء ملوك البربر إلى الإسلام بدون عناء وعن اقتناع، باعتباره ممن تَمرس بالكتب السماوية، إذ كان نصرانياً²⁶⁴. ولا تعوزنا القرائن الدالة على أن "من أقام على النصرانية من البربر عامتهم من البرانس"²⁶⁵. وعلى عكس ما هو شائع لدى عموم الدارسين العرب ممن انساقوا مع أهوائهم في لعن كسيلة وكيّله التهم بالشرك، فقد صح لدى القدامى أنه قد أسلم في ولاية أبي المهاجر وحسن إسلامه²⁶⁶.

مع ذلك، فإن أول اتصال حقيقي بين أهل المشرق من المسلمين وعموم أهل المغرب الأقصى قد تم في ولاية عقبة بن نافع النابية سنة 62 للهجرة (681 ميلادية). وقد سلفت الإشارة أنه اخترق المغرب الأقصى إلى أن بلغ البحر الأخضر المحيط وتعمق ببلاد السوس، في جولة عسكرية خاطفة لم تتجاوز مدتها ستة ونيّف. ومن المعلوم أن مقمه بمجموع بلاد إفريقية والمغرب، لم يتعد "ثلاثة أعوام"²⁶⁷. وهي الجولة التي وجهت أساساً إلى بلاد السوس، علماً بأن أهلها لم يكن لهم دين حسب بعض الروايات، أو كانوا على المحوسبة حسب أخرى. ومع ذلك، لا تعوزنا الدلائل عمن كان يدين بالنصرانية في بعض حواضر البلاد، كما هو الشأن بمدينة أغمات ونفيس. ناهيك عما ورد من إشارات عن قبائل البربر ممن ادنوا بدين اليهودية²⁶⁸. وتتواتر

²⁶³ نفسه، ج 1، 28-29.
²⁶⁴ الاستقصاء، ج 1، 80.
²⁶⁵ فروع إفريقيا والأندلس، 64-65.
²⁶⁶ نهاية الأرب، 193.
²⁶⁷ سائر المغرب، ج 1، 30.
²⁶⁸ الاستقصاء، ج 1، 67.

لإشارات المصدرية عن كان أجداده خلال الفترة السابقة للإسلام على دين اليهودية في بلاد نامسنا وفي أرض سجلماسة²⁶⁹ وغيرهما.

وقد أجمعت المصادر التي تعرضت للموضوع على ذكر إقدام عقبة بن نافع على تأسيس أولى المساجد التي عرفتها البلاد. ويتعلق الأمر بمسجد إيجلي وبمسجدي درعة ونفيس. وبصرف النظر عما قد يكون نشب من مناوشات حربية، أو عن تحصن من القبائل في القلاع أثناء مرور الحملة، فالغالب على الظن أنه عقبة بن نافع كان يستغل وفود القبائل فتد عليه فيعرض عليهم الإسلام. فلما نزل بوادي سوس على سبيل المثال، أرسل إلى قبائل جزولة فوصلوا بوادي سوس فأسلموا ورجعوا²⁷⁰. والعالب على الظن أن ما قيل عن غزواته وفتوحاته وسببه وغنائمه بالمغرب الأقصى، لا تعدو أن تكون قصصا من نسج الخيال. وقد تحلى ذلك من خلال ما سلفت الإحالة عليه في متون أوثق المصادر التي تضمنت ذكر وصول عقبة بن نافع إلى بلاد السوس "فجول في بلادهم لا يعرض له أحد ولا يقاتله"²⁷¹.

إلا أن أهم ما أقدم عليه عقبة بن نافع — فيما يبدو — يتجلى في تركه لبعض حملة القرآن ورواة الأحاديث والأحكام بالمغرب الأقصى، إذ اصطحب معه خمسة وعشرون رجلا من أصحاب رسول الله²⁷². ويخيل إلينا أن أولئك هم الذين ررعوا الدور الأولى التي كانت وراء معرفة أهل المغرب الأقصى بفواعد الإسلام. ويتعلق الأمر بمجهود فكري ذي طبيعة اعتقادية وطرق انصارية ومناهج جدالية، تمت بصوره مفصلة عن عمليات الفتح الحربية. وثمة إحالة مصدرية إلى إقدام بعضهم على إساءة أولى الرباطات لتكون بمثابة نبراس للعلم والحكمة والصلاح. مصداق ذلك، ما ورد عن شاكر صاحب

²⁶⁹ السجل، ١٩٠، ١٩٠.
²⁷⁰ فتح المغرب للمغرب، ٢٧٠.
²⁷¹ فتوح إفريقية واندلس، ١٨٨.
²⁷² السجل للمغرب، ج ١، ٢٦٠.

الرباط وغيره"²⁷³، ممن تركهم عقبة بن نافع بالمغرب الأقصى لتعليم الناس القرآن وشرائع الإسلام.

وثمة إشارة بالغة الدلالة في ربط إسلام قبائل بلاد تامسنا والسوس الأدنى والأقصى بحملة عقبة بن نافع الفهري، إذ لم يعرف المصامدة غيره وقيل أن أكثرهم أسلموا طوعا على يديه"²⁷⁴. مما يفند التصورات البطولية ذات المضامين العرقية التي روجت لمفولة انتشار الإسلام بحد السيف. والراجح أن الأمر لا يعدو خلال هذه الفترات المبكرة أن يكون إقرارا بالقول من طرف أولي الأمر من مشايخ القبائل وملوك الربر بوحداية الله وبرسالة المصطفى الأمين. ولا تعوزنا بهذا الخصوص المعلومات المصدرة عن الشروط التي جرت عادة الفاتحين توجيهها للمقاومين يحبرونهم بين حالات ثلاث، بالقول: "إنا قد كتبنا لك فيما يحبه الله ورسوله (صلعم) وهو أن تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فيكون لك ما لنا وما علينا، أو تؤدي الجزية أو القتال. والسلام على من اتبع الهدى"²⁷⁵. أما الاعتقاد المبني على الإيمان والحكمة والمعرفة بالأحكام، فهو مما كان عامة الفاتحين أنفسهم يفتقرون إليه. ولا نستبعد أن يكون قد تم الشروع منذ هذا الوقت المبكر في تحفيظ القرآن ورواية السيرة النبوية والأحاديث السائرة لمن تحلق من أهل القبائل على مجالس العلم والحكمة بالرباطات الأولى التي أنشئت من طرف رواد المرابطين.

ومن أبرز الرباطات التي أنشئت لهذه الغاية خلال هذه الفترة الباكرة، نذكر "رباط نكور"²⁷⁶ بشمال المغرب الأقصى. تم ذلك على يد صالح بن منصور الذي "دخل أرض المغرب في الافتتاح الأول فنزل مرسى تمسامان

²⁷³ نفسه، ج 1، 43.

²⁷⁴ نفسه، ج 1، 42.

²⁷⁵ الوافدي، فتوح إفريقية، تونس، 1966، ج 1، 5.

²⁷⁶ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 91.

على البحر بموضع يقال له بدكون بوادي أمقران²⁷⁷، حيث مستقر فروع قبائل نفزة البربرية. ويحدد صاحب البيان²⁷⁸ تاريخ ذلك بقوله: "دخل أرض المغرب في الافتتاح الأول زمن الوليد بن عبد الملك فنزل في بني تمسامان". ونميل إلى الاعتقاد أن نزوله بها قد حدث في خلافة سلفه، خلال العقد السابع من القرن الهجري الأول. مصداق ذلك ما ورد في بعض الروايات أنه ممن "وجهه حسان بن النعمان الغساني أمير عبد الملك بن مروان بإفريقية لفتح المغرب فنزل الريف"²⁷⁹. وليس أدل على صحة هذا الاعتقاد من إقرار بعض المؤرخين أن صالح بن منصور "دخل أرض المغرب قبل موسى بن نصير"²⁸⁰.

ومن المعروف أن حسان بن النعمان قد تعرض للعزل بقرار من صاحب مصر عبد العزيز بن مروان "فاستخلف حسان على المغرب رجلا من جنده اسمه صالح"²⁸¹. ومن المفيد الانتباه إلى أنه بينما كان الخليفة "عبد الملك مريضا، وجه عبد العزيز موسى بن نصير إلى المغرب"²⁸². فلما حل بإفريقية سنة تسع وسبعين عزل أبا صالح²⁸³ قبل إقرار ولايته رسميا من طرف خلافة دمشق. وفي رواية أخرى أن موسى بن نصير "قدم القيروان وبها صالح خليفة حسان فعزله ورأى أن البربر قد طمعت في البلاد"²⁸⁴. ويخيل إلينا أن الأمر يتعلق بصالح بن منصور الذي أثر التوجه خلال هذا التاريخ من تلقاء نفسه إلى المغرب الأقصى. ومهما يكن من أمر، فليس هناك ما يدل على تجريد حملة

²⁷⁷ نفس المصدر والصفحة ورد اسم النهر في الأصل مصحفا كالتالي / وادي البحر / والتصحيح من عددا ما زال إلى اليوم يعرف بلسان أهل البلد بأعرار أمقران أي الوادي الكبير

²⁷⁸ البيان المغرب، ج 1، 176. ومن المعلوم أن الوليد بن عبد الملك قد تولى الخلافة بدمشق خلال الفترة الممتدة من سنة 86 للهجرة إلى غاية سنة 96 للهجرة انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك (-الأمم والملوك)، بيروت، 1987، ج 3، 669 وكذا ج 4، 28

²⁷⁹ الرياسي، الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا (- الترجمة الكبرى)، تحقيق عبد الكريم السلاوي، المحمدية، 1967، 79.

²⁸⁰ كتاب الأسبصار، 136

²⁸¹ الأسبصار، ج 1، 94

²⁸² فروع إفريقية والأندلس، 68

²⁸³ نفسه، 69

²⁸⁴ الأسبصار، ج 1، 96

عسكرية من الجند العربي اليماني لفتح بلاد الريف، كما شاع في التصورات الخيالية التي روجها الجمهور الأعظم من الدارسين. غاية ما في الأمر أن صالح بن منصور ذي الأصول الأمازيغية النفزية قد توجه في رحلة بحرية من إفريقيا لينتهي به الأمر في مرسى تمسامار حيث نجح في إقامة كيان سياسي غير مفارق، الأول من نوعه في تاريخ المغرب، كما فصلنا ذلك في دراسة سابقة²⁸⁵.

ولا يخالجننا شك في دور صالح بن منصور في إسلام قبائل نفزة من بني ورياغل وبني يصلين وبني ورتدين وكراية وغيرهم. وهو ما عبرت عنه المصادر التاريخية بالقول فأسلم على يديه بربر تلك الجهات²⁸⁶. كما تواتر القول في الحوليات التاريخية والمصنفات الجغرافية أن "على يديه أسلم بربرها وهم صنهاجة وغمارة"²⁸⁷. ويتعلق الأمر في مقام أول بقبائل صنهاجة البرنسية الضاربة في المرتفعات الجبلية ببلاد الريف، حول موقع بالش. أما قبائل غمارة فقد سلطت الإشارة إلى مواطنها الممتدة في أقصى الشمال الغربي للمغرب الأقصى. ومن المعلوم أن أميرهم يليان قد ظل — رغم توقيعه عقد الصلح والمسالمة مع عقبة بن نافع الفهري — على دين النصرانية. وبالمثل، فثمة إشارة لصالح بن منصور تثبت أن "عليه أسلم قبائل لواته"²⁸⁸.

ولعل في هذه الملاحظات ما يفصح عن دور صالح بن منصور في انتشار الإسلام لدى المجموعات القبلية الثلاث الكبرى المكونة لبلاد طنجة: نفزة وصنهاجة البرنسية وغمارة المصمودية، فضلا عن فروع لواتة المتشعبة ببلاد الريف. ونظرا لاعتماد صالح بن منصور على دعوة أهل البلاد إلى الإسلام

²⁸⁵ راجع بهذا الخصوص، إمارة بني صالح، 15-43.
²⁸⁶ ابن الخطيب، المغرب العربي في العصر الوسيط من كتب أعمال الأعلام (= أعمال الأعلام)، تحقيق أحمد مختار العبادي/ محمد إبراهيم الكتاني، نشر أبوظبي، 1964، 171-72.
²⁸⁷ البيان المغرب، ج 1، 176، المغرب هو دكر بلاد إفريقية والمغرب، 91، كتاب الاستبصار، 136.
²⁸⁸ الترجملة الكبرى، 79.

سحكمة ونموعة الحسنة، دور ربط ذلك بالتحكم في الرقاب و غنم الأموال
وسى نساء، فقد استجابوا له عن طواعية واحتبار. بل وقد أجمعوا على نسه
لى شعب والصلاح الذي لازمه في رباط نكور، حتى أصبح لدى عامتهم
معروفاً بلعد الصالح²⁸⁹. وليس أدل على صحة هذا التحليل من اضطرار
موسى بن نصير إلى الانصراف بجموع عسكره من العرب عن بلاد الريف، إذ
كانوا قد دخلوا الإسلام وحسن إسلامهم²⁹⁰.

ويندو أن القبائل التي اعتنقت الإسلام من أهل المغرب الأقصى قد تأقت
نى نهن من المذابح الأولى عن طريق حفظ القرآن وإدراك كنه آياته. وهو ما
نذكر متحداً إلا لعدد قليل من علية القوم، الذين كانت لهم دراية باللغة العربية.
وقد ذكرت بعض المصادر كيف كان ملوك إفريقية عارفين بلسان
نغرب²⁹¹ قبل الإسلام. كما أشارت إلى بعض رجالات العرب ممن كان على
نراية بلغة نصارى المغرب 'وكان يعرف لغتهم وقد تعلمها بالشام'²⁹². ولا
يسعد أن يكون من بين العرب الوافدين إلى المغرب من كان يتقن اللغة
'الأمريفة'. اعتباراً لتأصل العلاقات بين موريطانية الطنجية وبلدان المشرق منذ
قدم العصور. ولربما في اشتراك بعض أهل الشام من العرب وبعض أهل بلاد
ضحه من البربر في معرفة اللسانين الإغريقي واللاتيني، ما وفر إمكانيات
صرفة لتحدث. إلا أن عامه أهل المغرب قد سرعوا منذ هذا التاريخ في
لاحتكت نمتهم باللغة العربية عن طريق حفظ القرآن وحط رسومه في
الألواح. واستضافا لمحهود المعلمين الأوائل من أصحاب عفة بن بافع الذين
حفظوا نلمغرب الأقصى لتعلم انه الفراء والإسلام، يادر موسى بن نصير هو

²⁸⁹ انظر: دور د. طنجية وشم ... 10

²⁹⁰ طنجية وشم ... 10

²⁹¹ انظر: طنجية وشم ... 10

²⁹² طنجية وشم ... 10

الآخر إلى ترك سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام²⁹³.

والجدير بالذكر أن المغرب الأقصى قد تحول جملة إلى الإسلام على يد طارق بن زياد النفزي الريفى، الذي ترسخت في عهده قواعد الدين في كافة ربوع البلاد، من تخوم تلمسان إلى مشارف السوس الأقصى. تم ذلك خلال سنة 85 للهجرة (704 ميلادية) في أواخر أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. ويبدو أن معظم من كان من البربر على دين أهل الكتاب محسوباً على النصارى واليهود قد تحول خلال هذا التاريخ إلى الإسلام. ونتوفر بهذا الخصوص على رواية تاريخية غاية في الأهمية، قلما استرعت انتباه الدارسين. فقد أرخ ابن عذاري²⁹⁴ كيف كانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى في سنة 85، وفي هذا التاريخ تم إسلام أهل المغرب الأقصى، وحولوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القبلة وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات، وفيها صنع [منبر]²⁹⁵ مسجد أغمات هيلانة". وهو ما أكدته الرواة في سياق حديثه عن "منبر أغمات هيلانة [الذي] استعمل في سنة 85 من الهجرة"²⁹⁶. وفي رواية مماثلة ما يفصح عن دخول أهل المغرب الأقصى في دين الله أفواجا، بعدما أسند أمرهم لوال من بني جلدتهم وهو طارق بن زياد. لذلك لم يترددوا فـ"عزموا على الإسلام بنية صحيحة، فبنوا المساجد وحولوا القبلات للمساجد التي كانت لهم قبل ذلك، واستعملوا المنابر في المساجد التي عزموا أن يجعلوا فيها الجماعات"²⁹⁷. وليس أدل على صحة هذا التحليل مما ذكره أحد المؤرخين

²⁹³ البيان المغرب، ج 1، 42.

²⁹⁴ نفسه، ج 1، 43.

²⁹⁵ زيادة من: فتح العرب للمغرب، 223.

²⁹⁶ نفس المصدر والصفحة.

²⁹⁷ نفس المصدر والصفحة.

تصريحاً بأنه لما "ولي عليهم طارق بن زياد... تم إسلام أهل المغرب الأقصى فأسلموا كلهم إسلاماً صحيحاً"²⁹⁸.

واضح بأن عموم أهل المغرب لأقصى قد آثروا الانتماء في الإسلام اختياراً، منذ مال أحد عظماء ملوكهم كسيلة بن لمزم البرنسي إلى العقيدة المحمدية حوالي سنة 55 للهجرة، إلى حين إجماعهم على اعتناق الإسلام في ولاية طارق بن زياد سنة 85 للهجرة، على مدار حوالي ثلاثين سنة. يتجلى ذلك بوضوح تام من خلال إحدى الفتاوى الفقهية التي تناولت الوضعية العقارية للأرض بالمغرب الأقصى وكيف تفق الساجد لنا من أهل العلم أنها أسلم عليها أربابها وليس فيها صلح ولا عود. ولعل في هذا التحليل ما يدعو المختصين وعموم المهتمين بتاريخ المغرب إلى نحر من السير في متاهات رواد الدارسين الأجانب الذين انزوا رءوسهم حول مسألتي التعريب وانتشار الإسلام بالمغرب، وهي الزوبعة التي ما زالت إلى الآن ممسكة بأقلام جمهرة المفكرين المغاربة المختصين في ترويح أفكار غيرهم.

خامساً - ولاية المغرب الأقصى: النشأة والأصول

من المفيد الانتباه إلى أن صاحب مصر عبد العزيز بن مروان هو الذي "أمر موسى بن نصير على إفريقية سنة تسع وسبعين"³⁰⁰ للهجرة (698 ميلادية)، في خلافة عبد الملك بن مروان، إثر إقدامه على عزل الشيخ الأمين حسان بن النعمان. ولا غرو، فحينذاك "كان الوالي على مصر يولي على إفريقية"³⁰¹ دون الاضطرار إلى أخذ رأي الخليفة بدمشق. والجدير بالذكر أن

²⁹⁸ نفسه، 224.

²⁹⁹ للمعيار المغرب، ج6، 133-34.

³⁰⁰ فتوح إفريقية والأندلس، 69 وثمة روايات أخرى تشير إلى أن ذلك قد حدث سنة سبع وسبعين وقال آخرون سنة سبع وثمانيين، انظر الإسفصا، ج1، 95. بينما يحدد معظم المصادر التاريخيه ولاية موسى بن نصير إفريقية والمغرب سنة 86 للهجرة الطور: البيان المغرب، ج1، 41. في حين ذهب البعض إلى أن ولاية موسى بن نصير على إفريقية كانت سنة 89 هجرية، انظر: بهانه العرب، 200.

³⁰¹ البيان المغرب، ج1، 38.

الفضل يرجع إلى عبد العزيز بن مروان في نجاة موسى بن نصير من الإعدام، بعدما نالته التهمة باحتجان الأموال على ما ذكر لنفسه³⁰² أثناء إقامته عاملاً على خراج البصرة. فما كان بعدما تأكدت خيانتة للأمانة، إلا أن "عتب عليه [الخليفة] عبد الملك وأراد قتله، فافتداه منه عبد العزيز بمال"³⁰³ فصار منذ ذلك الحين ضمن أتباعه وخوله. واضحة من خلال هذه التفاصيل نوعية السياسة التي رغبت ولاية مصر تطبيقها ببلاد المغرب في ظل ولاية عبد العزيز بن مروان الذي أسرف في جمع الأموال واحتجان الفئ والمغانم. وقد بلغ الخلاف بين خليفة دمشق عبد الملك بن مروان وواليه على مصر عبد العزيز بن مروان حول السياسة الأموية تجاه البلاد المغربية، أن "أراد أن يخلع أخاه عن مصر في سنة 85، على ما فعل من عزل حسان بن النعمان وفيئه"³⁰⁴.

ومن الملاحظ أن موسى بن نصير لم يتأخر عندما حل بالمغرب عن بذل ما في وسعه لإرضاء ولي نعمته، من خلال الإسراف في الإغارة والقتل والسبي والغنم. وبرغم توقف أهل المغرب عن المقاومة، إذ "لم يدافعه أحد"³⁰⁵ و "لم يلق حرباً منهم"³⁰⁶، فإن موسى بن نصير لم يتعفف عن وضع السيف في قبائلهم المسالمة "فتبعهم وقتلهم قتلاً فاحشاً وسبى منهم سبياً كثيراً"³⁰⁷. ولم يذخر جهداً في محاربة بقايا ممالك "البتر والبرانس ممن لم يكن دخل في الطاعة. فلما دنا من طنجة بث السرايا فانتهدت إلى السوس الأدنى قوطئهم وسباهم وأدوا إليه الطاعة"³⁰⁸. مما يؤكد مرة أخرى أن الأمر بالنسبة للخلافة الأموية وولاتها يتعلق بفرض الطاعة، لا بنشر الإسلام.

³⁰² نفسه، ج 1، 39.
³⁰³ فتوح إفريقية والأندلس، 68.
³⁰⁴ البيان المغرب، ج 1، 41.
³⁰⁵ نهاية الإرب، 200.
³⁰⁶ البيان المغرب، ج 1، 42.
³⁰⁷ تاريخ إفريقية والمغرب، ج 1، 38.
³⁰⁸ فتوح إفريقية والأندلس، 71.

بديهي أن تستقطب المملكة البرنسية المنتظمة حول حاضرة سقوما أو سجومة اهتمام موسى بن نصير الذي بادر بأخذها غرة وقتل ملوكها، وأمر أولاد عفة: عياض وعثمان وأبا عبدة أن يأخذوا حقهم من قاتل أبهم ففعلوا من أمر سجومة ستمائة رجل من كبارهم³⁰⁹، مما بنم على روح الانتقام. وإمعانا في دلال أهل البلد لم يتردد موسى بن نصير عن أسبي ذراريهم، وحمل من مدينة سجومة بنات كسيلة وبنات ملوكهم³¹⁰. كما سبق له أن أغار على قبائل هواره ورنانة وكثامة المنتظمة في مملكة أمازيغية قائمة حول قاعدة سجلماسة. وكان عليهم رجل يقال له طامون³¹¹. وقد انتهت العمليات باختلال أمرها وسر ملكها الذي حمل إلى مصر وقتل صبورا بين يدي عبد العزيز بن مروان. ثم بنو مسور ومزدانة ملك السوس³¹² فقد مالوا إلى الطاعة.

ويخيل إلينا أن موسى بن نصير قد أغار على أطراف بلاد الريف أيضا. والغالب على الظن أن الأمة المعروفة باسم: راح أو راحا أو رداحا كانت من بين نساء بربر نفزة اللواتي وقع في أسر موسى بن نصير، فحملت من ضمن السبايا إلى عبد العزيز بن مروان بفسطاط مصر، ومنها بعثت إلى الحليفة الأموي عبد الملك بن مروان بدمشق. ويتعلق الأمر بوالدة عبد الرحمن الداخل مؤسس الإمارة الأموية بالأندلس، إذ كشفت المصادر عن تأصل "أحواله [في] بكرة من قبائل البربر"³¹³، مؤكدة في أكثر من مناسبة أن أمه بربريه من سبي المغرب³¹⁴. أما مملكه غمارة المصمودية المنتظمة حول حاضرة سينة

³⁰⁹ السيرة المغرب، ج 1، 41.

³¹⁰ فتح المغرب للمغرب، 214.

³¹¹ السيرة المغرب، ج 1، 41.

³¹² نفسه، ج 1، 18.

³¹³ ابن الأثير، المعجم، ج 1، 1963، 350.

³¹⁴ السيرة المغرب، ج 2، 47. عبد الواحد بن زياد، السيرة، ج 1، 1963، 1964.

محمد بن سعيد المغربي، محمد العربي النعماني، القاهرة، 1949، 46.

فقد مالت إلى مسالمة موسى بن نصير "فصانعه صاحبها يليان الغماري بالهدايا وأذعن للجزية، وكان نصرانيا"³¹⁵.

وباستثناء مستخلص صالح بن منصور بتمسان ومملكة يليان بسبنة، واضح أن موسى بن نصير قد عمد إلى إتلاف كافة الأنظمة السياسية المحلية بالمغرب الأقصى، وتخريب أجهزتها التقريرية وتفكيك أنسجتها المجتمعية. أردف ذلك ببناء سلطات بديلة كفيلة بضمان انخراط المغرب الأقصى في سلك التبعية لنظام دمشق عبر ولاية القيروان. فعلى إثر تفكيك مملكة سجلماسة، أعاد موسى بن نصير ترتيب أوضاع قبائل هوارة وزناتة وكتامة "فولى عليهم رجلا منهم"³¹⁶. وبالمثل، فلما أفلح في إخضاع قبائل تامسنا المصمودية بالسوس الأدنى "وأدوا إليه الطاعة ولى عليهم واليا أحسن فيهم السيرة"³¹⁷. ينطبق نفس الشيء على بقية أهل المغرب الأقصى الذين "استأمنوا لموسى بن نصير وبذلوا له الطاعة فقبل منهم وولى عليهم"³¹⁸.

فلما انتظمت أمور المغرب الأقصى لموسى بن نصير ودانت له البلاد "ولى طارق بن زياد"³¹⁹ مقاليد أمورها. وقد ضبط ابن عذاري تاريخ انتظام هذه الولاية بأقصى مغرب دار الإسلام، بالقول: "وكانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى في سنة 85 هجرية (704 ميلادية). ونتوفر على نص منسوب للواقدي بالغ الدلالة في التاريخ لتأسيس ولاية المغرب الأقصى من قبل موسى بن نصير الذي "فتح طنجة ونزلها، وهو أول من اختط فيها للمسلمين"³²⁰. وقد بادر حينئذ إلى تكوين أداة للحكم ممثلة في نواة جيش وضع

³¹⁵ الاستقصاء، ج 1، 96.
³¹⁶ البيان المغرب، ج 1، 41.
³¹⁷ فتوح إفريقية والأندلس، 71.
³¹⁸ الاستقصاء، ج 1، 96.
³¹⁹ فتوح إفريقية والأندلس، 71.
³²⁰ انظر: فتوح البلدان، 232.

تحت إمرة "طارق بن زياد، وكانوا ألفا وسبعمائة"³²¹. ويتعلق الأمر بفرقة من رهائن البربر الذين جمعهم حسان بن النعمان من القبائل التي استأمنت إليه بإفريقية. وقد أضيف إليهم "رهائن المصامدة [الذين] جمعهم موسى بن نصير"³²² من تامسنا وبلاد السوس؛ فصلا عما حصل عليه بسجلماصة من "رهائن كتامة وزناتة وهوارة، فجمعهم مع رهائن حسان وولى عليهم طارق بن زياد"³²³. هكذا فيقدر ما تم ضمان تبعية كافة قبائل المغرب لسلطان طارق بن زياد بفضل رهائنها الموضوعين تحت إمرته، بقدر ما ساهمت جميعها من خلالها في حكم البلاد. فما كان إلا أن استقر "طارق يومئذ بتلمسين، وموسى بن نصير بالقيروان"³²⁴. وبذلك تألفت تلمسان باعتبارها أول حاضرة للمغرب الأقصى، بعد اندماجه السياسي وانتظامه الإداري في دار الإسلام.

وإضافة لما حققه موسى بن نصير من نجاح سياسي، فقد ظل حريصا على بعث أخماس مغانم المغرب وآلاف السبايا مما وقع في شباك جنده إلى ولي نعمته بمصر، الذي كان يسارع إلى إرسال ذلك جملة للخليفة بدمشق، ملتصقا الدعم لسياسته المغربية. وهو ما لم يتأخر، إذ سرعان ما أقر الخليفة ما أمضاه واليه على مصر مخاطبا إياه بالقول: "قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من رأيك في عزل حسان وتولية موسى، وقد أمضى لك أمير المؤمنين ما كان من رأيك وولاية من وليت"³²⁵. وقد كشف أحد الإخباريين بوضوح تام عن حجم الأموال المتدفقة من المغرب ودورها في تغيير موقف الخليفة من موسى بن نصير، إذ قال: فلما "بعث بغنائمه وأنهاها عبد العزيز إلى عبد الملك، سكن ذلك من عبد الملك بعض ما كان يجد على موسى"³²⁶. وبالمثل، فقد شاع بربروع

³²¹ فتح إفريقيا والأندلس، 71 وقد ورد اسمه في الأصل كالتالي طارق بن عمرو
³²² البيان المغرب، ج 1، 42.
³²³ فتح العرب للمغرب، 224.
³²⁴ فتوح إفريقية والأندلس، 72.
³²⁵ البيان المغرب، ج 1، 40.
³²⁶ فتوح إفريقية والأندلس، 69.

نُسِرَقَ نَهْ نَمِ سَمِعَ فِي الْإِسْلَامِ بِمَثَلِ سَبَايَا مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ³²⁷. وَسُرْعَانَ مَا
نَفَتْ صُورَتَهُ فِي بِلَاطِ بَنِي أُمَيَّةَ، فَلَمْ يَتَرَدَّدْ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِثْرَ مَبَايَعَةِ
-نَحْدَفَةِ سَنَةِ 86 تَهْجَرَةَ عَنْ فَصْلِ وَلَايَةِ إِفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ عَنْ وَلَايَةِ مِصْرَ،
رَضَ قَاعِدَةُ قَيْرَوَانَ مَبَاشَرَةً بِحَاضِرَةِ دِمَشْقَ. وَبِذَلِكَ غَدَتْ وَلَايَةُ الْمَغْرِبِ
أَقْصَى الْمُنَظَّمَةِ حَوْلَ قَاعِدَةِ ثَلَاثَانِ تَبْعَةٍ إِدَارِيًّا لَوْلَايَةِ إِفْرِيقِيَّةِ الَّتِي تَضُمُّ
رَضَ مَجْمَعِ الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ بِحَاضِرَةِ الْخِلَافَةِ بِدِمَشْقَ. وَقَدْ بَعَثَ الْخَلِيفَةُ كِتَابًا
نَوِيًّا عَلَى مِصْرَ يَعْلَمُهُ بِالتَّغْيِيرِ الْإِدَارِيِّ وَبَوْلَايَةِ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ إِفْرِيقِيَّةَ
وَالْمَغْرِبَ وَقَطْعَهَا عَنْهُ³²⁸. وَهُوَ مَا أَرَبَكَ جَمَهْرَةُ الْمُؤَرِّخِينَ الْقِدَامِيِّ وَالْمُحَدِّثِينَ
لَدَيْنَ عَنَّا خَطًّا أَنَّ مُوسَى بْنَ نَصِيرٍ قَدْ وَلِيَ عَلَى إِفْرِيقِيَّةَ وَبِلَادِ الْمَغْرِبِ مِنْ
ضَرْفِ نَوَيْدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ سَنَةَ 86 هَجْرِيَّةَ. وَالصَّوَابُ - كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ سَلَفًا -
نَهْ قَدْ وَفَى مِنْ قَبْلِ صَاحِبِ مِصْرَ سَنَةَ تِسْعَ وَسَبْعِينَ لِلْهَجَرَةِ، ثُمَّ أُعِيدَ تَعْيِينُهُ مِنْ
ضَرْفِ نَخْلَفَةِ مَبَاشَرَةٍ، بَعْدَ رِبْطِ وَلَايَةِ إِفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ بِدِمَشْقَ سَنَةَ سِتْ
وَعُصْرٍ تَهْجَرَةَ. إِنْ فِي ذَلِكَ مَا يَدْعُو الْمُؤَرِّخِينَ إِلَى إِعَادَةِ النَّظَرِ فِي تَسْلُسَلِ
الْأَحْدَاثِ وَتَدْعُلِ الْوُقَائِعِ وَفَقَ سَبَاقِهَا التَّارِيخِي.

وَنَعْدَرُ مَا أَصْبَحَ مُوسَى بْنُ نَصِيرٍ مَفُوضَ السُّلْطَةِ بِكَافَةِ إِفْرِيقِيَّةِ
وَالْمَغْرِبِ مِنْ قَبْلِ الْخِلَافَةِ، فَفَدَ حَظِي طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ الْفَرَجِيُّ بِنَفْسِ السُّلْطَاتِ
نَحْدَفَتِهِ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى. حَقِيقَةُ أَنَّ الْمَصَادِرَ لَمْ تَحْتَفِظْ بِنَصْرِ التَّعْيِينِ، مَعَ
ذَلِكَ فَتَعَالَى عَلَى الطَّرِيقِ أَنَّ مُوسَى بْنَ نَصِيرٍ قَدْ فُوضَ لَهُ فَتَحَ مَا اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ
سَلَا مِنْ تِلْكَ الْفَاصِلَةِ. وَبَطَلَ نَحْصِيلُ الْمَغَانِمِ وَاسْتِيفَاءُ الْمَجَابِي وَالْأَمْوَالِ
وَعَنْهَا نَهْ. حَوْلَ الْقَيْرَوَانِ مِنَ الشَّرُوطِ الْمَلْرَمَةِ، حَسِبْنَا بِفَتْحِهِ طَبِيعَةَ الْبَطَامِ
لَا مَنِيَّةَ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى رَأْسِ الْوَلَايَةِ سَنَةَ 85 هَجْرِيَّةَ إِلَى حَبْرِ عَوْرَةِ الْمَحَارِ
نَحْدَفَةِ الْإِسْلَامِ. حَوْلَ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ قَدْ أَمْعَى حَوْلِي سَبْعَ سِنَوَاتٍ فِي حَكْمِ

المغرب الأقصى. وهي في تقديرنا السنوات السبع التي وضعت الأسس الأولى لكيان حضاري متميز، كان له أبلغ الشأن في صياغة تاريخ الجناح الغربي لدار الإسلام.

وبصرف النظر عما سلف ذكره عن تحويل كافة المعابد والكنائس والشنوعات الموروثة عن العهد القديم اختياراً إلى مساجد، وتوجيه محاربيها نحو الكعبة في ظل حكم طارق بن زياد، فقد نجح في استقطاب كافة أهل المغرب للانخراط الإيجابي في صياغة معالم دار الإسلام. إنها السنوات السبع التي تحقق فيها تحول أهل المغرب الأقصى من منطق مواجهة المشروع الحضاري العربي الإسلامي إلى الانخراط في بنائه. ولم يذخر طارق بن زياد وسعا في تكوين الأداة العسكرية الكفيلة بتحقيق ذلك، ممثلة في قوة من عامة قبائل المغرب الأقصى، تراوحت باختلاف التقديرات بين سبعة آلاف³²⁹ نفر و "اثني عشر ألفاً من البربر"³³⁰. أما العرب، فلم يبق منهم بالمغرب الأقصى بعد انصراف ممثل ولاية إفريقية مروان بن موسى بن نصير عن بلاد طنجة قافلاً إلى القيروان إلا "سنة عشر رجلاً"³³¹ حسب بعض الروايات. وهو ما كشف عنه ابن القطان³³² بوضوح تام في سياق حديثه عن تنصيب طارق بن زياد على ولاية المغرب الأقصى، إذ قال مدققاً في عددهم: "وترك موسى بن نصير سبعة عشر رجلاً من العرب". لم يكن هذا الرقم ليروق لكثير من الرواة العرب المأخوذين بهوس التفوق العرقي، فلم يتورعوا عن تفخيمه بإضافة الأصفار على يمين العدد الذي غدا محسوباً بما يطمس الحقيقة في سبعة عشر ألفاً من العرب³³³.

³²⁹ حبار مجموعة، ورقة 3.
³³⁰ أخبار المغرب، ج 1، 24.
³³¹ فتح إفريقية والاندلس، 71.
³³² نظر البربر بالمغرب، ج 1، 43.
³³³ نفس المصدر والصفحة.

وبعدما استقامت له أمور المغرب الأقصى من حدود تلمسان إلى مشارف بلاد السودان، لم يتأخر طارق بن زياد عن الشروع في الإعداد لفتح الأندلس. وحتى يتحقق ذلك في أحسن الظروف، باشر القائد المغربي الاتصال بأحد أبناء الملك غيطشة المخلوع عن عرش القوط بالأندلس بواسطة انقلب قاده الحاكم العسكري لذريق. وقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى ترتيب أمر فتح الأندلس من قبل طارق بن زياد ووريث العرش الفوطي عند وفادة هذا الأخير على تلمسان، فقال له طارق: وما جاء بك؟ قال له: إن أبي مات ووُثب على مملكتنا بطريق يقال له لذريق، وبلغني أمركم فجئت أدعوكم إليها وأكون دليلكم عليها³³⁴. كما باشر طارق بن زياد الاتصال بـ "يليان صاحب سنة"³³⁵ وأمير غمارة لتنسيق المواقف والإعداد للمجاز إلى الأندلس. والغالب على الظن أن أمير غمارة يليان قد سارع إلى فك الارتباط بنظام لذريق العسكري القائم بطليطلة، وأعاد الاستمساك من جديد بعقد الصلح والمصالمة الموقع قديما مع نظام الخلافة بدمشق، بإيعاز من طارق بن زياد الوالي على المغرب الأقصى. مصداق ذلك استحابة يليان لطارق بن زياد لما خاطبه بالقول: "إني لا أطمئن إليك حتى تبعث إلي برهينة، فبعث إليه بابنتيه ولم يكن له ولد غيرهما، فأقرهما طارق بتلمسين واستوثق منهما"³³⁶.

ويحيل إلينا أن طارق بن زياد قد نادر إلى اختراق النسيج المجتمعي بشبه جزيرة إيبيريا عن طريق استمالة اليهود إلى مشروعه، إذ كانوا مستأجرين من طغيان الحاكم العسكري لذريق المتسلط على مقاليد الحكم بطليطلة. لذلك دأب الفتحون المغاربة إثر دخولهم الأندلس في كل بلد يفتحونه أن يضموا

³³⁴ تاريخ قريش والمغرب، 42 ويتعلق الأمر فيما يبدو بالمند بن عيطشة ولقد وقع الفرق القيرواني في الحلط معتقدا أن الأمر يتعلق بعلام يدعى اليان، علم بأن اليان أو يليس كان حاكما على سبته.

³³⁵ فتوح إفريقية والأندلس، 72

³³⁶ نفس المصدر والصحة

يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها³³⁷. وحتى يستكمل كافة الترتيبات، عمد طارق بن زياد إلى بعث سرية عسكرية لاستكشاف حصانة مملكة القوط، وهي المعروفة بسرية طريف التي نزلت بأحوار كورة شذونة، ستوقع الذي ما زال إلى اليوم منسوباً إليه، والمقصود مدينة طريفة.

ويتعلق الأمر حسب محمد بن يوسف الوراق التاريخي عمدة مؤرخي المغرب "بطريف أبا ملوك برغواطية من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحق....، وإلى طريف نسبت جزيرة طريف"³³⁸. ومن المفيد الانتباه إلى أننا أمام رواية أصيلة وردت على لسان أحد أوثق المصادر المغربية. ويتعلق الأمر بأبي صالح زمور بن موسى بن هشام بن واريدين البرغواطي، الذي بادر إلى توضيح أن طريف "كان على ديانة الإسلام"³³⁹. وليس مصادفة أن تتجرد بعض الأقاليم لطمس الأصل المغربي الأمازيغي لطريف باعتباره أول من وطأت قدماه بلاد الأندلس في الإسلام. ولم تتورع عن نسب ذلك لشخصية مشرقية من أصل عربي ترجم لها تارة باسم "طريف بن مالك النخعي"³⁴⁰ وطورا باسم "أبي زرعة طريف بن مالك المعافري"³⁴¹.

ومن المعلوم أن طارق بن زياد قد برهن على قدرات فذة في نقل كافة قواته بالمراكب بحرا نحو الضفة الأخرى، وإقامة معسكره عند الجبل الذي أصبح منذ ذلك الحين يعرف باسمه: جبل طارق. وقد تم عمليات الانزال في سرية تامة خلال شهر رمضان من سنة 92 هجرية (710 ميلادية) "لا يشعر بهم أهل الأندلس ولا يظنون إلا أن المراكب تختلف بمثل ما كانت تختلف به

³³⁷ المغربي، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب (عنفج الطيب)، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968، ج 1، 267

³³⁸ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135

³³⁹ نفس المصدر والصفحة

³⁴⁰ الاستقصا، ج 1، 98

³⁴¹ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الفساط، بصلان جديان (تاريخ الأندلس لابن الكردبوس)، تحقيق أحمد محار العبادي، مدريد، 1971، 45

من منافعهم، وكان طارق في آخر فوج ركب³⁴². وبذلك تحقق لطارق بن زياد أحد شروط التفوق العسكري متمثلاً في مفاجأة لذريق الذي هرب في جموعه مذعوراً لبقاء غريمه. وبعد التدام الجمعان في معركة فاصلة على نهر لكة من أعمال شنودة³⁴³ قتل لذريق وانهزم القوط فلم يلبوا على شيء حتى دخل طارق بن زياد — فيما يشبه نزهة عسكرية — عاصمة ملكهم بطليطلة.

وعلى غرار صالح بن منصور النفزي وطريف بن شمعون المصمودي وغيرهما من أعضاء أهل المغرب ومشاهير رحالاته، ليس مصادفة أن يتم التأكيد في نسب طارق بن زياد. فبصرف النظر عن اختلاف الرواة في ضبط اسمه، بين قائل أنه طارق بن زياد، ومعتقد بأنه "طارق بن عمرو"³⁴⁴، وما ترتب عن ذلك من ارتباك في ضبط نسبه، فقد اُفْقِل ابن زياد وقيل ابن عمرو³⁴⁵، فلأدهى من ذلك طمس أصله. ومن المعلوم أن ثمة روايات تنسبه عربياً في عشيرة بني الليث، بالقول: "طارق بن زياد الليثي"³⁴⁶. بينما ذهب الخلط بآخرين بعيداً فنسبوا "طارق بن زياد فارسياً همدانياً"³⁴⁷. وقد نبهت جملة من المصادر التاريخية³⁴⁸ إلى شذوذ الرواية التي تنسب طارق بن زياد إلى الفرس. بينما تميل المصادر المتداولة إلى اعتبار طارق بن زياد مولى لموسى بن نصير، فثمة إشارة إلى أنه ليس مولاه وأنه من موالى صدف³⁴⁹، إحدى الحشائر العربية. ومن المفيد بهذا الصدد التذكير بموقف أبناء طارق بن زياد وأحفاده الذين ظلوا بالأندلس يكررون ولاء موسى إنكاراً شديداً³⁵⁰. وقد احتفظ

³⁴² فتوح إفريقية والاندلس، 73.

³⁴³ نهاية الإرب، 205.

³⁴⁴ فتوح إفريقية والاندلس، 71.

³⁴⁵ المعجب، 9.

³⁴⁶ الترجمانة الكبرى، 94.

³⁴⁷ أخبار مجموعة، ورقة 3.

³⁴⁸ البيان المغرب، ج 2، 5؛ نفح الطيب، ج 1، 254.

³⁴⁹ أخبار مجموعة، ورقة 3.

³⁵⁰ نفح الطيب، ج 1، 254.

ابن عذاري³⁵¹ بشجرة تسب طارق: هو طارق بن زياد بن عبد الله بن ولعو بن ورفجوم بن يزناس بن ولهاصر بن يطوفت بن نزاو". وهو ما اختصره في نفس السياق بالقول: "فهو نفزي"³⁵². وقد فصلنا في دراسة سابقة³⁵³ أصول قبائل نعة ومواطنها ببلاد الريف في شمال المغرب الأقصى، كما فككنا بطونها وأفخاذها وأحصينا تتعب فصائلها. ويقدم الفقيه القرطبي ابن حرم³⁵⁴ إضافات قيمة عن نسب ميمون بن أبي جميل: وهو ابن أخت طارق بن زياد". ومن المعلوم أن بني جميل من ضمن الفصائل القبلية التي ما زالت إلى اليوم محتفظة باسمها القديم على مقربة من موقع بادس الأثري ببلاد الريف شمال المغرب الأقصى.

وعلى عكس بلاد إفريقية والمغرب التي استغرق فتحها ما ينيف عن نصف قرن من الزمن، اندمجت الأندلس في أقل من سنة، بفضل حكمة طارق بن زياد وحنكته وإقدام جيوشه من أهل الريف وعموم قبائل المغرب الأمازيغية. إن في ذلك ما يذكر بسرعة فتوح عمر بن الخطاب في العراق وخراسان ومصر والشام. ولا غرو، فقد نجح طارق بن زياد في كسب عامة أهل الأندلس من النصارى واليهود للاندماج طوعا في دار الإسلام. كما أضعى تمام الشرعية على عمليات الفتح بممالة الأسرة لمالكة المخلوعة من أبناء غيطشة آخر ملوك القوط. ولعل في حسن معاملته لعامة أهل البلد والتزامه بالعهود والتسجيل للناس بحقوقهم على الأرض³⁵⁵ ومراعاته قواعد العدل، ما جعل فتح الأندلس على يد طارق بن زياد بمثابة تحرير لأهلها من قبضة الطاغية لذريق وسطوة نظامه العسكري.

³⁵¹ البيان المغرب، ج 1، 43.

³⁵² نفس المصدر والمنحة.

³⁵³ إمارة بني صالح، 170-178.

³⁵⁴ جمهرة أنساب العرب (جمهرة أنساب العرب)، بيروت، 1983، 502.

³⁵⁵ لمزيد من التفصيل بهذا الخصوص راجع دراستنا: A. Tahiri, *Agricultura y poblamiento rural en Sevilla durante la época abbadi*, Sevilla, 2001, pp. 57-59.

وبالإضافة لرهائن المعصومة³⁶⁰ فقد كان لقنائل نغرة³⁶¹ من سكان
 ريف التي تسمى إليها طارق بن زياد، ومن لف بهم من قنائل محبته
 نصاريه في نواحي ملوية، أطلع الأثر في فتح الأندلس، إذ استعروا على طول
 المسطحة الممتدة من قرطبة وبلاد جليقية. بتطيق نفس الشيء على
 البرانس³⁶² من بربر صهاجه مفاح المنحدرين من بلاد الريف أيضا، الذين
 استعروا بكورة إشبيلية وبنواحي قرطبة. ولا نعوزيا التفاصيل عن أماكن
 استقرار الفاحين الأوائل من بربر هواره وزناثة³⁶³ المنحدرين من أحواز
 حنسية اثر دخولهم الأندلس. ناهيك عن "عامّة البتر"³⁶⁴ وغيرهم من بطون
 وفحد وقنائل قبائل المغرب الأقصى التي فصلنا في دراسة سابقة³⁶⁵ مواطن
 استقرارها بالأندلس. ونظرا لاندماجهم السريع مع حيرانهم من أهل الأندلس
 لأصلين. فقد اندرج الإخباريون الأوائل على نعتهم بـ "البلديين"³⁶⁶. تجديا إذا
 أمام حقيقة تاريخية ثانية مفادها أن فتح الأندلس قد تم إيجازه بصفة تامة من
 طرف طارق بن زياد النفزي، بواسطة قوة بربرية أمازيغية من أهل المغرب
 الأقصى، ومن عصدهم من رهائن عموم البرابر. ولذلك "اندرجت ولاية
 الأندلس يومئذ في ولاية المغرب" تحت إمرة طارق بن زياد.

لم يكن موسى بن نصير ينتظر أن يتم فتح الأندلس بالسرعة في الحسم
 واعتمده في الإنحار والكفاءة العاليه في التدبير التي باشر بها طارق بن زياد

فتح م... 224...

مستند والمثبت 44

من قبل... (المعنى) (1931)، نشر منشور الملوية، باريس، (1937)، 618
 جميع... 400-409، 409-410

من قبل... (المعنى) (1931)، تحقيق محمود بكري، القاهرة، 1937، 1-1

A. Talon, Berberes en el Andalus o nemes de una historia compendiada de la
 Peninsula Iberica y el Magrib in E. R. en el Magrib de los siglos VII y VIII
 primer siglo de la historia peninsular

من قبل... (المعنى) (1931)، تحقيق محمود بكري، القاهرة، 1937، 1-1

الأمر. لذلك فما أن وصله 'كتاب طارق بالفتح والغنائم حركته الغيرة'³⁶³ فأسرع مهرولاً نحو الأندلس التي غدت بفضل أهل المغرب الأقصى جزءاً من دار الإسلام. وبدلاً من تهنئة طارق بالفتوح، أخذ الحقد والغيرة بلب موسى بن نصير و"خرج مغيطاً على طارق"³⁶⁴ خلال سنة 93 هجرية (711 ميلادية)، "قبر البحر غاضباً على طارق"³⁶⁵ أشد ما يكون الغضب. وعندما حل بالأندلس فارساً بدون ساحة قتال، التمس لنفسه مسلكاً مخالفاً، بهدف إثارة الشكوك تمهيداً لطمس الحقيقة. وبرغم تواضع طارق بن زياد لموسى بن نصير مخاطباً إياه بالقول: "إنما أنا مولاك وهذا الفتح لك"³⁶⁶، تجاسر عليه موسى "فشده وثاقاً وحبسه وهم بقتله"³⁶⁷. ويتواتر ذكر ما تعرض له طارق من إهانة وسوء معاملة، تتم عن دناءة خلق موسى بن نصير وخبت سريرته وضيق نفسه، إذ "ضربه موسى بالسوط على رأسه ووبخه"³⁶⁸.

من الطبيعي أن يعتمد موسى بن نصير على إثر ذلك إلى حبك مؤامرة واسعة لطمس كافة ما يتعلق بفتح الأندلس من حقائق، ويحرك الضمائر والأقلام للنيل من هوية الفاتحين ونسب أعمالهم لشخصه. وهي الروايات التي يبدو أنها قد انطلت على جملة من الرواة القدامى والمحدثين الذين باشروا بثها بدون تحقيق، في مصنفاتهم ودراساتهم. إلا أن إخضاع مجمل ما يتعلق بهذه المرحلة المؤسسة لتاريخ المغرب والأندلس، كفيل بالكشف عن مواطن التدليس والزلل. وهو ما تحرد طارق بن زياد من حينه لمقارعة آثاره، وهو في الأسر مردداً بصوت مرتفع قوله: "إن فتح الأندلس كان على يدي وإن موسى حبسني"³⁶⁹. ما

³⁶³ الاستقصاء، ج 1، 98.
³⁶⁴ فتوح إفريقية والأندلس، 76.
³⁶⁵ البيان المغرب، ج 1، 43.
³⁶⁶ فتوح إفريقية والأندلس، 76.
³⁶⁷ نفسه، 80.
³⁶⁸ نهاية الإرب، 207.
³⁶⁹ فتوح إفريقية والأندلس، 80.

كان لطارق أن ينحو من القتل لولا إسرعه إلى بعث مولاه مغيثا الرومي رسولا إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأخبره بالذي كان من فتح الأندلس على يدي طارق، وحسب موسى إياه والذي أراد به من القتل³⁷⁰. وبالمثل، لم يأخر موسى بن نصير عن مراسلة الخليفة وكتب إليه وادعى أنه هو الذي فتح الأندلس³⁷¹. حري بجمهرة المؤرخين والمهتمين بتاريخ المغرب والأندلس أن يتحرروا الدقة عند استطاق مصادر معارفهم بهذا الخصوص، ويميزوا بين صناع الحدث الحقيقيين من أهل الريف وعموم بلاد المغرب الأقصى، وقد خفق صوتهم وطمست بطولاتهم وأتلفت مناقبهم، وبين المدعين ممن راجت مراعمهم واكتسحت أباطيلهم كتب التاريخ قديما وحديثا.

وبعد إمساكه بزمم الأمور بالأندلس، "جمع موسى من الأموال ما لا يقدر على صفته ودفع طارق كل ما كان غنم إليه"³⁷². أرفف ذلك بعزل طارق بن زياد عن ولاية المغرب الأقصى والأندلس وباشر الفصل بينهما في ولايتين: ولاية الأندلس وأسندها لابنه عبد العزيز، وولاية المغرب الأقصى وأسندها لابنه عبد الملك. وهو نفس المعنى الذي أشار إليه ابن عذاري³⁷³ بذكره تنصيب موسى بن نصير "على طنجة ابنه عبد الملك". ويبدو أنه قد عمد إلى عزل يليان صاحب سبته عن حكم بلاد غمارة التي آلت منذ هذا التاريخ إلى التفكك والانحلال. وعند ما هم موسى بن نصير بالعودة إلى المشرق سنة 95 هجرية (713 ميلادية)، محملا بأثقاله من التحف والذخائر والنفائس والأمتعة والأموال والسناب، "استخلف على إفريقية وأعمالها ابنه الكبير عبد الله"³⁷⁴. وبذلك تكون

170 نفسه، 81.
171 نهاية الإرب، 208.
172 فتوح إفريقية والأندلس، 76-77.
173 النبل المغرب، ج 1، 44.
174 نهاية الإرب، 208.

دولة إفريقية والمغرب والأندلس قد وقعت — إلى حسن — تحت قبضته إلى
موسى بن نصير.

ونعز فيما تواتر من أخبار عن قدوم موسى بن نصير بعنان المغرب
وأنشأ ما يميّز اللثام عن درجات الجشع التي ألت بدواليب النظام الأموي.
في طريق عودته من المغرب، مرض الوليد بن عبد الملك فكان يكتب إلى
موسى يستعجله، ويكتب إليه سليمان بالمكث والمقام ليموت الوليد ويصير ما مع
موسى إليه³⁷⁶ بعد توليه الخلافة. ومن المعلوم أن موسى بن نصير قد لقي على
يد أخيه سليمان بن عبد الملك نفس المصير الذي جرعه لطارق بن زياد، كما
تعرض أبناؤه وأملاكهم ببلاد المغرب للقتل والمصادرة والاستصفاء. وفي ذلك
ما يصح من زاوية ثانية عن طبيعة النظام الأموي الذي سرعان ما يقلب
لمجن لرجاله وصناع عزه، حالما انتفت الحاجة إليهم.

تتابع بعدئذ تعيين الولاة في تلمسان، على وقع التغييرات التي دأبت
الحلقة الأموية على إجرائها — كما هو معلوم — على رأس ولاية إفريقية التي
صارت محكمة إداريا في ولاية المغرب الأقصى. منهم من كان "عادلا حسن
لسيرة"³⁷⁶، مثل محمد بن يزيد. ومنهم من كان خير وال وخير أمير³⁷⁷، مثل
سمعون بن أبي المهاجر الذي ولاه الخليفة عمر بن عبد العزيز. ومن الولاة
من كان ظلوما عشوما³⁷⁸ من أمثال يزيد بن أبي مسلم "كاتب الحجاج"³⁷⁹ وقد
مرد أخيه يزيد بن عبد الملك. ومنهم من "أساء السيرة وتعدى"³⁸⁰ على أموال
عمامة أهل البلاد.

موسى بن نصير والأندلس، 81، 82.

الاستصفاء، ج 1، 100.

موسى بن نصير والمغرب، 62.

الاستصفاء، ج 1، 48.

موسى بن نصير والأندلس، 87.

موسى بن نصير والمغرب، 72.

ويبدو أن الولاة الأمويين على إفريقية قد عمدوا خلال هذه الفترة إلى تقسيم ولاية المغرب الأقصى في ظل التدبير الإداري الجديد إلى عمالتين: الأولى ببلاد طنجة والثانية بالسوس. فقد ورد الخبر أن عبيد الله بن الحبحاب ندي أسندت له ولاية إفريقية سنة 116 هجرية (734 ميلادية) قد "استعمل ابنه إسماعيل بن عبيد الله على السوس"³⁸¹. ومن المعلوم أن عبيد الله بن الحبحاب قد "استعمل على طنجة وما والاها عمر بن عبد الله المرادي"³⁸². ويبدو أن تعمق مجال المغرب الأقصى نحو تخوم بلاد السودان، كان وراء الإقدام على هذا التعديل الإداري. فقد تواتر الخبر عن إنفاذ حملة بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عفة قبلت السوس الأقصى وأرض السودان"³⁸³. وليس مصادفة أن يتم خلال نفس المدة إنفاذ الحملة المشهورة إلى ما وراء جبال البرانس "فغزا عبد نرحمن [الفاقي] إفرنجة، وهم أقاصي عدوة الأندلس"³⁸⁴. واضح أن الاندفاع العسكري لنظام بني أمية قد بلغ أقصى الغايات، مخترقا هوامش الأندلس نحو الأرض الكبيرة خلف جبال البريات، ومندفعا وراء صحراء المغرب الأقصى نحو تخوم بلاد السودان. ومن المعلوم أن استنفاد إمكانيات الفتح، سرعان ما ينعكس سلبا على اقتصاد هــ قائم على المغازي.

لذلك، وبرغم انتظام بلاد المغرب في دار الإسلام، وانقطاع السبي والعم عنها، لم يتوانى خلفاء بني أمية عن مطالبة ولائهم بأصناف في المجابي والهدايا والأموال. وهو ما لحصه أحد الرواة بالقول: "وكان الخلفاء بالمشرق يستنحون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية؛ فيبعثون لهم التبريات السيات"³⁸⁵. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل سرعان ما انعكست

³⁸¹ فوج إفريقية والأندلس، 94.
³⁸² نهاية العرب، 215.

³⁸³ فوج إفريقية والأندلس، 94.

³⁸⁴ فوج إفريقية والأندلس، 92.

³⁸⁵ السوس المغرب، ج 1، 52.

106، ج 1، الاستقصا، ج 1، 51، السوس المغرب، ج 1، 71، السوس المغرب، ج 1، 51، الاستقصا، ج 1، 106.

المطالبات المتزايدة لبني أمية على التوجهات المالية لنظام الخلافة تجاه عموم بلاد إفريقية والمغرب والأندلس. ويبدو أن عبيد الله بن الحبحاب قد سبق أن مناهم بالكثير، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسف وسوء المسيرة³⁸⁶. وهي التوجهات التي بالغ عمر بن عبد الله المرادي في وضعها موضع التطبيق ببلاد طنجة وما والاها "قأساء السيرة، وتعدى في الصدقات والعشر، وأراد أن يخمس البربر، وزعم أنهم فيء المسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كانت الولاة يخمسون من لم يؤمن ولم يجب إلى الإسلام"³⁸⁷.

ولما بالغ ولاة بني أمية في وصع الوظائف والمطالبات و"كثر عيثهم بذلك في أموال البربر"³⁸⁸ تآهب أهل بلاد طنجة وما والاها، واجتمع إليهم عامة أهل المغرب الأقصى فثاروا على الخلافة الأموية وقتلوا عامليها ببلاد طنجة والسوس. حدث ذلك سنة 122 هجرية (739 ميلادية) فكانت أول ثورة بالمغرب الأقصى في الإسلام³⁸⁹. ثم ذلك بزعامة ميسرة المطغري الذي اجتمعت كافة قبائل المغرب الأقصى على ترشيحه للخلافة وتسمى بها وبويع عليها³⁹⁰. وبذلك انفصلت البلاد جملة عن الخلافة الأموية القائمة بدمشق للشروع في صياغة فصل جديد من تاريخها ضمن دار الإسلام؛ وهو ما سنتناوله بتفصيل في الفصل اللاحق.

³⁸⁶ نفس المصدر والمصحة

³⁸⁷ تاريخ إفريقية والمغرب، 73

³⁸⁸ الاستعصا، ج 1، 106

³⁸⁹ نفس المغرب، ج 1، 52

³⁹⁰ فتوح إفريقية والأندلس، 94



الفصل الثاني

بواكير التيارات الفكرية والمذهبية بالمغرب الأقصى

"جل من يعتقد مذهبا من مذاهب الفقهاء فإن فيههم الحتمي والرافضي والحارحي
إلا مذهب مالك فإني ما سمعت أن أحدا يقلد مذهبه قد قال شيء من البدع".
ابن سهل، الأحكام الكبرى. مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم 838 ق، 401

من المفيد الانتباه إلى دور الأصول الفكرية السابقة للإسلام، في صياغة المنحنيات الثقافية التي تحكمت في انتقال أهل المغرب الأقصى، من الانتماء في العصر القديم، والانخراط جملة في صياغة معالم الفكر الإسلامي بالجناح الغربي لدار الإسلام. وقد سلفت الإشارة إلى تعايش الديانتين السماويتين اليهودية والمسيحية، إلى جانب المعتقدات الوثنية، سواء لدى المجموعات القبلية أو في المراكز الحضرية. ولا تعوزنا الإشارات المصدريّة التي تناولت بالذكر "تصاري البربر"¹ وكذا قبائل "البربر [ممن] دانوا بدين اليهودية"². وهو من المواضيع التي تحتاج إلى مزيد من الاستقصاء في بحث مستقل، من خلال النش عن النف المتناثرة والمؤشرات الدالة، اعتماداً على المنهج الذي أخذنا به في مناسبات سابقة، عند البحث في الزوايا المطموسة من تاريخ المغرب. ويتعلق الأمر بمنهجية في العمل تعتمد القراءة الواسعة التي لا تكل في مختلف المصادر المتداولة، مع التنقيب في ثناياها عما تخلف بين السطور من رقع مفككة، وعلق بالرسوم من بصمات باهتة، تفيد أيما إفادة في إعادة بناء الجوانب المبتورة من تاريخ البلد.

إلا أن أهم ما يثير الانتباه عند التجرد للنظر في الأصول الفكرية، عدم انحراط أهل المغرب الأقصى في مواجهة العقيدة الإسلامية، ولا في إقصاء أولى الموجات الفكرية المشرقية المنشأ، ممثلة في الروايات المأثورة على لسان الصحابة والتابعين. والملاحظ أن التصورات الانطباعية الغير الموثقة، التي دأبت على إسقاط الصراع الثنائي الذي دار بالحجاز بين كفار قريش والمسلمين من المهاجرين والأنصار، قياساً على أوضاع المغرب، لا تتماسك عند التحدّد لصياغة تاريخ المغرب الأقصى من خلال مصادره. وقد تبين سلماً كيف يصوّي أهل المغرب الأقصى في الإسلام طوعاً وحتّاراً، فحولوا كفة معادهم

المغرب في ذكر بلاد المغرب والمغرب، 160.
كتب المغرب، ج 6، 140.

اقتناعا نحو الكعبة. أما وأن يصيب التاريخ لخلافة بني أمية هوى في أقلام الباحثين، فينخرطوا في إسقاط الخلاف السياسي بين ملوك المغرب وولاية بني أمية، والحروب بين الآلة العسكرية الأموية والقبائل المغربية، على القضايا المرتبطة بالمعتقدات الدينية والتصورات الفكرية، معتبرين إياه صراعا بين الإسلام والشرك فذاك مكنم الخط.

وليس أدل على تخلي أهل المغرب الأقصى اختيارا عن النهل من منابع المعتقدات الموروثة عن العصر القديم، من انخراطهم منذ البدايات الأولى في التيارات الفكرية والمذهبية التي راجت بدار الإسلام. نخص منها بالذكر مذهب أهل السلف الذين كان لهم مدرسة رائدة في السنة والجماعة بشمال المغرب الأقصى، قلما أثارت انتباه الدراسين في أصول الثقافة والفكر بالمغرب والأندلس. كما شاع التيار الخارجي بشقيه الصفري والإباضي، فكان له أبلغ وقع في صياغة الفصول الأولى من تاريخ الفكر المغربي. ولا يقل المذهب الإعتزالي الواسلي أهمية، إذ شاعت مقالاته في جملة من المناطق. ينطبق نفس الشيء على التيار الشيعي بشقيه العلوي الزيدي الذي شاع في البدايات، والإسماعيلي الفاطمي الذي راج فيما بعد. ويشكل المذهب البرغواطي تركيبا مذهبيا مغربيا، أثار من القدح المنفل أكثر مما استماله من أقلام البحث التاريخي الرصين.

أولا - مذهب أهل السلف في الاستقامة والإقتداء

ترجع الأصول الأولى لأهل السلف المقتدين في المغرب الأقصى بمجتمع الأخوة الأول بالمدينة، المستمسكين بالعدل والصلاح وفق مقتضيات السنة النبوية، المسترشدين بتجربة الخلفاء الأربع الراشدين وبأقوال الصحابة والتابعين، إلى فترة مبكرة. ويمكن التأريخ لذلك بمنتصف العقد السابع من القرن

الهجري الأول، عندما تمكن صالح بن منصور من نشر تعاليم الإسلام، انطلاقاً من رباط نكور، في أوساط قبائل نفزة وصنهاجة البرنسية وغمارة المصمودية ولواتة، وغيرها من قبائل بلاد نكور. يتجلى ذلك من خلال إقرار الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، الذي أوصى واليه على إفريقية والمغرب موسى بن نصير، بألا يعرض لصاحب نكور ولا يتدخل في شؤون بلاده، "لعدله ويتركه على رأيه"³.

ما عسى أن يكون الرأي الذي كان عليه صاحب نكور منذ هذا الوقت المبكر؟ وعلى أي أساس من الأحكام والشرائع أقام عدله؟ لعل فيما ورد في بعض المتنون التاريخية من نعوت في حق صالح بن منصور "المعروف بالعبد الصالح"⁴، ما يقدم خيطاً باهتاً يساعد في الجواب على هذين السؤالين. ولا يخفى المقصود بمضامين العبادة والصالح المجتمعتين في شخص صالح بن منصور، لدى مؤرخي أهل السنة من أمثال محمد بن يوسف الوراق التاريخي المعتمد في رواية أبي عبيد الله البكري. وفي تقديرنا أن الجهد الأوفر المبذول من أجل تأصيل مذهب الاستقامة والإقتداء بالسلف الصالح في بلاد نكور، قد تم على يد ثاني أرائها المعتصم بن منصور، الذي اشتهر بالزهد في شؤون الحكم وأمور السياسة. ولذلك عرف لدى معاصريه من الخاصة والعامة بأخلاقه الفاضلة، إذ كان "شهما شريف النفس كثير العبادة"⁵.

ويخيل إلينا أن مذهب الخوارج الصفرية قد تمكن على إثر تغلغله في كافة قبائل المغرب الأقصى من النيل لحين من بلاد نكور أيضاً. وهو ما عبرت عنه المصادر التاريخية بالقول: "وارتد أكثرهم لما ثقلت عليهم شرائع الإسلام وقدموا على أنفسهم رجلاً يسمى داوود ويعرف بالرندي"⁶. ثم ذلك على يد

³ الترجمة الكبرى، 81.

⁴ المغرب في نكر بلاد إفريقية والمغرب، 91.

⁵ كتاب العبر، ج 6، 384.

⁶ البيان المغرب، ج 1، 176.

داوود الرندي النفزي مقدم الصفرية بقبائل نفزة، حوالي سنة 121 للهجرة (738م). ولا مجال لقبول الأحكام المتسريعة⁷ المبنية على سوء تقدير هذه المرحلة من تاريخ المغرب الأقصى، في تصنيف ما حدث لأهل نكور باعتبارها معتقدات خارجة عن الإسلام، تدرج جدلا في سياق الآراء الهرطقية الهدامة. ومن المفيد الانتباه إلى أن المقصود بالردة هنا الثورة على الأمير القائم صالح بن منصور، وليس الارتداد عن الإسلام كعقيدة. ولا حاجة للتذكير بما شاع في سياق الخلاف الكلامي بين الملل والنحل من مقالات في تكفير الخوارج واتهامهم بالردة والخروج عن الدين كما يخرج السهم من الرمية. ولعل فيما تم إثباته من قول بخصوص نقل شرائع الإسلام على أهل نكور، ما يؤكد درجات العمل بمضامين الكتاب والسنة والالتزام بسياسة الراشدين وإجماع الصحابة والتابعين.

إلا أن أهل نكور سرعان ما عمدوا إلى طرد الصفريين من بلدهم، والتصل من بيعة المدعي بالخلافة ميسرة المطغري رأس الصفرية بالمغرب الأقصى، وخلفه خالد بن حميد الزناتي. وهو ما كشفت عنه المصادر بالقول ثم تلافاهم الله بهداه وتابوا من شركهم وقتلوا الرندي واستردوا صالحا⁸. بمعنى أنهم قد تخلوا بسرعة عن الارتباط بالمذهب الصفري، وعادوا كما كانوا في الأصل إلى الإقتداء بمذهب سلف الأمة من الصحابة والتابعين. وليس أدل على رسوخ مذهب السنة والجماعة ببلاد نكور، مما قيل في حق صالح بن سعيد خامس أمراء بني صالح، إذ سار على النهج في "تقبل مذهب سلفه في الاستقامة والإقتداء"⁹، عند توليه مقاليد الحكم بحاضرة نكور سنة 180 هجرية (798م). ولا يخفى المقصود بالاستقامة في العقائد لدى مؤرخي أهل السنة. كما لا تخفى

⁷ سحر السيد عبد العزيز سالم، المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية، 1993، 58-59.
⁸ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 91.
⁹ كتاب العبر، ج 6، 283.

الدلالات الاصطلاحية لعبارة الاقتداء، في الإحالة على مرجعية أهل نكور في العقائد والأحكام وأصول الدين.

أما دأب الرواة على إثبات تمسك خامس أمراء بني صالح بمذهب سلفه في الاستقامة والإقتداء، فدليل على ثبات أهل نكور على مبادئ السنة والجماعة، رغم الاضطراب المذهبي الذي عم دار الإسلام بقيام خلافة بني العباس، المحسوبين على آل البيت. ومن المعلوم أنه فضلا عن حركات الخوارج الصفرية والإباضية، فقد عمت دعوات الشيعة الزيدية، ومقالات المعتزلة الواصلية، مشرق دار الإسلام ومغربيه، خلال القرن الثاني الهجري. وهو ما لخصه محمد بن يوسف الوراق التاريخي¹⁰ في عبارة مقتضبة دالة بالقول: "ولم يزل آل صالح في السنة والجماعة والتمسك بمذهب مالك بن أنس رضي الله عنه". ولم يكن التشيع الفاطمي¹¹ الذي المنحى الإسماعيلي لينال من عزيمة أهل نكور الذين تصدوا ببسالة منقطعة النظير لموجاتهم المتعاقبة على المغرب الأقصى. وهو ما عبر عنه المؤرخون في إحالتهم على سابع أمراء نكور صالح الملقب باليتيم الذي "لم يزل على هدي أوليه من الإقتداء إلى أن هلك سنة خمس عشرة وثلاثمائة (927م)"¹².

ولا يخفى التأثير البالغ الذي كان للأخذ بمذهب مالك في الفقه والأحكام على الاستمساك بالسنة والجماعة في مجال العقائد والكلام. وهو ما عبر عنه خليفة الأندلس العالم الحكم المستنصر بالقول: "جل من يعتقد مذهبا من مذاهب الفقهاء فإن فيهم الجهمي والرافضي والخارجي، إلا مذهب مالك فإني ما سمعت أن أحدا تقلد مذهبه قد قال بشيء من البدع"¹³. لذلك، لم يتردد أمراء وخلفاء بني أمية بقرطبة في السير على نهج أمراء بني صالح في نكور والأخذ بمذهب

¹⁰ المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، 97.

¹¹ وقد خصصنا لذلك فصلا مستقلا ضمن كتابنا: إمارة بني صالح، 73-99.

¹² كتاب المعبر، ج 6، 285.

¹³ ابن سهل، الأحكام الكبرى، مخطوط المكتبة العامة الرباط، رقم 838 ق، 401.

مالك بن أنس، باعتبار أن "الاستمساك به نجاة"¹⁴، على حد تعبير الخليفة الحكم المستنصر. ومن المعلوم أن أهل الأندلس كانوا على مذهب أهل الشام الأوزاعي، منذ أدخله صعصعة بن سلام¹⁵ إلى حين إلغاء العمل به في إمارة الحكم بن هشام الربضي (ت 206 للهجرة/ 821 م).

وقد أمكننا الوقوف على جملة من الفتوات الدالة على دور حاضرة نكور وإمارتها في تحول الأندلس من العمل بمذهب الأوزاعي إلى الأخذ بمذهب مالك، في حلقة مفقودة من تاريخ الفكر الفقهي بالغرب الإسلامي. حقيقة أن ثمة إجماع على مكانة يحيى بن يحيى الوسلاسي المصمودي المشهور بالليثي المتوفى سنة 234 هجرية (848 م)، فـ "إليه انتهت الرئاسة بالفقه في الأندلس وبه انتشر مذهب مالك"¹⁶. إلا أن إقدام أرباب التراجم على نسبه أندلسيا بحكم إقامته في الأندلس، على غرار غيره من علماء نكور النفزية وغمارة المصمودية، قد ساهم في إغفال موطنه الأصلي بريف غمارة فكاد يمر ضياعا. كما أن إشاعة انتسابه بولاء مفترض لبطن بني ليث العربي قد ساهم في طمس هويته الأمازيغية المغربية. ومن المفيد الانتباه إلى أن "يحيى بن مصمودة"¹⁷. ولا غرو، فقد أشار ابن خلدون¹⁸ إلى أن "قبائل غمارة [المصمودية] وصنهاجة [البرنسية] أسلموا على يد صالح بن منصور صاحب نكور.

ينطبق نفس الشيء على عبد الله بن عيسى بن أبي زمنين وابنه محمد بن عبد الله بن أبي زمنين وغيرهما من آل ابن أبي زمنين الذين ترسخ بفضلهم

¹⁴ المعيار المعرب، ج 6، 357.

¹⁵ الضبي، بغية الملتزم في تاريخ رجال الأندلس، القاهرة، 1967، 324.

¹⁶ الحميدي، حذوة المفتن في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، بيروت، 1983، ج 2، 610.

¹⁷ نفسه، ج 2، 609.

¹⁸ كتاب العبر، ج 6، 283.

مذهب مالك بالأندلس وبلغ على يدهم المرتبة الرفيعة في الفقه والأحكام. ومن الملاحظ أن عبد الله بن أبي زمنين قد نسب لموطن هجرته بالبيرة أندلسيا، في حين أن انتماؤه الأصلي في بلاد نكور. فقد احتفظ القاضي عياض بإشارة هامة تفيد أن "أصله من نفزة من البربر من العدو"¹⁹. وقد كشفنا في دراسة سابقة²⁰ عن تراجم جملة من الفقهاء والعلماء والقضاة المالكية من أهل القرن الثالث والرابع والخامس الهجري المنحدرين من حاضرة نكور، بما يدعو إلى إعادة ترميم هذه الحلقة المفقودة من تاريخ الفقه المالكي بالغرب الإسلامي.

ومن أبرز فقهاء نكور الراسخين في مذهب مالك، ومن أقدم صلحائها الزهاد، نذكر الأمير عبد الرحمن بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الملقب بالشهيد. "وكان عبد الرحمن فقيها بمذهب مالك، وحج أربعاً وعبر إلى الأندلس للجهاد فقطع عليه ابن حفصون الطريق فقتل من كان معه، وتخلص عبد الرحمن على فرسه وحضر غزاة أبي العباس القائد واستشهد فيها"²¹. تجدنا أمام الجذور الفكرية الأولى المتأصلة بحاضرة نكور التي تعتمد إلى الجمع بين التفقه بمذهب مالك، والزهد في الدنيا وفي أمور الحكم وحياة القصور، والتماس الشهادة عبر الرباط والجهاد في أقصى ثغور المسلمين بأطراف الأندلس.

ولا يخفى دور أمراء بني صالح في تأسيس مدرسة رائدة في حفظ القرآن بحاضرة نكور، وفي دمج الإمامة الصغرى للصلاة بالإمامة الكبرى في الحكم والسلطان، على هدي خليفة رسول الله أبي بكر الصديق. فعلى الرغم منبيعة المعتصم بن صالح بن منصور على إثر وفاة أبيه سنة 132 للهجرة (749م) أميراً على بلاد نكور، "كان يلي الصلاة والخطبة لهم بنفسه"²² مدة

¹⁹ ترتيب المدارك وتدريب المسالك في التعرف بأعلام مذهب مالك، تحقيق سعيد اعراب، الرباط، 1982، ج4، 18.

²⁰ إمارة بني صالح، 208-211.

²¹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 92.

²² كتاب العبر، ج6، 284.

حكمه. وبالمثل، فقد كان الأميرين "سعيد وأبوه صالح يصليان بالناس ويخطبان ويحفظان القرآن"²³. والراجح أن الأجيال الأولى من فقهاء المغرب والأندلس قد حفظوا القرآن، وتلقوا أصول الدين على مذهب السلف في الاستقامة والإقتداء بحاضرة نكور، ومنها كانت رحلاتهم المشرقية إلى الحجاز، حيث تلقوا العلم سماعا عن أمام المدينة مالك بن أنس.

ولا غرو، فمنذ البدايات الأولى إلى حين توالي الخراب عليها في موجات متعاقبة، ظلت حاضرة نكور وعموم مملكة بني صالح نبراسا منيرا لأهل السنة والجماعة، وقلعة حصينة في مواجهة الفرق المخالفة من الخوارج والشيعة والمعتزلة. وعلى مدى ما ينيف عن ثلاثة قرون من الزمن، تفانى أهل نكور في الحفاظ على جذوة السنة والجماعة متقدة وسط الإعصارات المذهبية التي هبت رياحها بقوة على مجمل بلاد المغرب والأندلس. كما ظلوا مستمسكين بمذهب مالك فيما يشبه جزيرة منفردة بعد المحنة الشهيرة²⁴ التي نالت المالكية بإفريقية. وهي المهمة الحضارية التي سرعان ما انتقلت مقاليدها من نكور إلى الأندلس، على إثر إعلان الخلافة بقرطبة، التي حجبت بتألقها كثيرا من معالم القرون الثلاث الغابرة.

ثانيا - مذهب الخوارج الصفرية والإباضية

يشكل الخوارج الصفرية والإباضية تيارا مذهبيا مشرقيا المنشأ، كان له إلى جانب مذهب السلف في الاستقامة والإقتداء السالف الذكر، أبلغ الأثر في صياغة الفصول الأولى من تاريخ الفكر بالمغرب الأقصى. ويكشف ابن حوقل عن أولى الموجات المذهبية التي حلت بتخوم إفريقية واستقرت بجبل نفوسة

²³ المغرب في ذكر ملاد إفريقية والمغرب، 97 لمريد من التفصيل، راجع. محمود اسماعيل

مغربيات دراسات جديدة، فاس، 1977، 57-81. محله المالكية في إفريقية المغربية روية اجتماعية، ص 81.

"منذ أول الإسلام، بل منذ عهد علي عليه السلام، وقت انصرافهم عنه بمن سلم معهم من أهل النهروان²⁵ سنة 38 للهجرة (658 ميلادية). وقد ظل دور هذه الجماعة الأولى من الخوارج الناجين من القتل، باهتًا في مكان نزولهم بجبل نفوسة، الذي اعتبر منذ ذلك الحين دار هجرة للخوارج ببلاد المغرب. وما كان للمذهب الخارجي أن ينتشر على أوسع نطاق إلا مع نهايات القرن الأول وبدايات القرن الثاني للهجرة. تم ذلك انطلاقًا من حاضرة القيروان بإفريقية، حسبما تواتره أئمة المذهب الإباضي، إذ تواتر الخبر بأن "أول من جاء بهذه الصفة يريد مذهب الإباضية ونحن بقيروان إفريقية سلمة بن سعيد، قدم علينا من أرض البصرة هو وعكرمة مولى ابن عباس، وهما راكبان على جمل واحد حملا عليه زادهما: سلمة بن سعيد يدعو إلى الإباضية، وعكرمة [مولى] ابن عباس يدعو إلى الصفرية"²⁶.

ومن المعلوم أن الخوارج قد افترقوا بالمشرق في عدة فرق²⁷ تراوحت على اختلاف التقديرات بين أربعة عشر فرقة، أو سبعة عشر فرقة، إلى ستة وثلاثين فرقة. ومن أشهر تلك الفرق: الأزارقة والنجدات والإباضية والصفرية. وقد أجمعوا باختلاف مشاربهم على جواز إمامة كل مسلم عالم بالكتاب والسنة دون اشتراط النسب القرشي أو الانتماء في آل البيت. وبصرف النظر عن ارتباط نشأتهم بحادثة التحكيم الشهيرة بصفين، فقد أجمعت كافة فرقهم على "حوب الخروج عن السلطان الجائر"²⁸. وقد آلت جميع فرقهم خصوصًا الغلاة منهم إلى الاندثار، باستثناء اثنتين: الإباضية والصفرية. وهو ما أشار إليه ابن حزم²⁹ بالقول: "ولم يبق اليوم من فرق الخوارج إلا الإباضية والصفرية فقط".

²⁵ صورة الأرض، 95.

²⁶ أبو زكريا، كتاب سير الأنمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، 1982، 40-41.

²⁷ وهو ما تناوله كتب الملل والنحل ومقالات الإسلاميين وقرهم بتفصيل. عن أثر فرقهم، أنظر: عبد القاهر

²⁸ البغدادي، كتاب الملل والنحل (=الملل والنحل)، تحقيق النير نصري نادر، بيروت، 1986، 57-82.

²⁹ الملل والنحل، 58.

²⁹ الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر / عبد الرحمن عميرة، بيروت، 1985، ج 5، 53.

ومن الملاحظ أن قلة هي القبائل التي اعتنقت المذهب الإباضي في المغرب الأقصى. ذكر ابن خلدون من ضمنها "مطماطة ومكناسة وزناتة... [باعتبارهم] جميعا على دين الخارجية، وعلى رأي الإباضية"³⁰. ومعلوم أنهم يضربون في السهوب الشبه الجافة بنواحي ملوية. ينطبق نفس الشيء على قبائل بني واسين فهم إباضية³¹ أيضا. وقد حدد ابن حيان³² موطنهم في سياق حديثه عن "من كان على ملوية وصاع من قبائل بني واسين". والجدير بالذكر أن المذهب الصفري هو الذي كان له — دون غيره — أبرز تأثير بالمغرب الأقصى. وبرغم تضارب الآراء حول أصل تسميتهم، وترجيح كتب الفرق انتسابهم لشخص يقال له زياد بن الأصفر، فالغالب على الظن أن الفرقة اقتبست اسمها من مؤسسها عبد الله بن الصفار. حدث ذلك سنة 65 هجرية (684 ميلادية) إثر خلاف فقهي بين عبد الله بن الصفار ونافع ابن الأزرق حول مسألة القعدة، فمالوا إلى بلورة مقالة خاصة بهم ميزتهم كفرقة قائمة الذات في موقف وسط بين الأزارقة المتطرفين والإباضية المعتدلين³³.

ومن المفيد الانتباه إلى أن الداعية للمذهب الصفري ببلاد المغرب عكرمة بن عبد الله البربري (25 — 105 للهجرة/ 645 — 723 ميلادية) أمازيغي الأصل. ويعتبر فضلا عن ذلك من التابعين، إذ كان مولى للفقير الشهير ابن عباس، مما أتاح له فرصة مخالطة أعلام الفقهاء والمحدثين كآبي هريرة والسيدة عائشة فسمع منهم وأخذ عنهم، حتى أصبح من النقا في الفقه والحديث³⁴. إلا أنه سرعان ما مال إلى المذهب الصفري، فأصبح من فقهاء

³⁰ كتاب العبر، ج 6، 158.

³¹ جمهرة أنساب العرب، 498.

³² المعنيس، ج 5، نشر ب تالمينا وف كوربيلي وم صبح، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، 1979.

370

³³ محمود اسماعيل، الحوارح في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري (الحوارح في بلاد

المغرب)، الدار البيضاء، 1976، 45.

³⁴ نفسه، 47.

ودعائه، ثم انتقل من العراق نحو القيروان حيث جلس مجلس الداعية الموكول
إليه بث أصول المذهب في أوساط قبائل المغرب.

وفي المصادر التاريخية ما ينم عن دور ميسرة المطغري في تلقي
أصول المذهب الصفري بالقيروان على يد عكرمة بن عبد الله البربري.
ويؤصل علماء الأنساب³⁵ مدغرة أو مضعرة أو مطغرة باعتبارهم من بطون
فاتن بن ضريسة من البرابرة البتر المستقرين بالمغرب الأقصى. وتجتمع معهم
في نفس النسب بطون مديونة ومغيلة ومطماطة وكذا مكناسة الضاربة في
أحوار ملوية. وفضلا عن تفوقهم العددي، فقد امتازت قبيلة مطغرة بميلها نحو
الاستقرار. مصداق ذلك ما ورد على لسان ابن خلدون³⁶ بأن "مضغرة هم من
أوفر هذه الشعوب وكانوا خصاصين أهليين. وتشغل مواطنهم³⁷ تلال المغرب
الأقصى الممتدة ما بين فاس وتلمسان. كما تستقر بعض فروعهم بجبل مطغرة
قلعة من الموقع الذي بنيت فيه مدينة فاس، وكذا بنواحي سجلماسة وتوات في
اتجاه الصحراء. وتكشف المصادر التاريخية عن تصدر زعامة قبائل مطغرة
حلل هذا العصر، إذ "كان شيخهم ميسرة"³⁸. وقد ورد ذكر هذه الشخصية في
أقدم ما وصلنا من روايات إخبارية بصفته "ميسرة بن الفقير البربري ثم
المدغري"³⁹. كما نعت في الحوليات التاريخية باسم "ميسرة السقاء... وكان
حارحيا صفريا وسقاء"⁴⁰. ولعل فيما قيل عن احترافه السقاية ونعته بـ"نائع
الماء بسوق القيروان"⁴¹، ما يدل على إيثاره النقية والاستخفاء عن عيون ولاية

³⁵ راجع كتب المغرب، ج 6، 155، الاستقصا، ج 1، 108.
³⁶ كتب المغرب، ج 6، 155. ومن المعلوم أن الإخصاص يحيل على اتخاذ مساكن للاستقرار بها بعد الحلي عن
حيه الرحال

³⁷ راجع نفسه، ج 6، 157، 58.
³⁸ نفسه، ج 6، 158. وبعد مقتل ميسرة استندت رئاسة مطغرة بعده لويحيى بن حارث المطغري ومن مشاهير
مشايخ قبيلة مطغرة يذكر بهلول بن عبد الواحد الذي يعتبر إلى جانب عبد الحميد الأورسي عماد الدولة الإدريسية،
ميسر نفسه، ج 6، 157

³⁹ فلاح العرفية والأندلس، 94

⁴⁰ نفسه، في التاريخ، م 3، 349

⁴¹ فلاح الأندلس، 34

بني أمية، قصد مداومة الاتصال بداعية المذهب الصفري بالقيروان عكرمة بن عبد الله البربري. والراجح أنه قد انتسب فقيرا حتى لا يثير الشكوك، ثم عمد المخالفون من أهل المذاهب الأخرى بعدئذ إلى وسمه بـ "الحقير"⁴².

وسرعان ما استوعب ميسرة المطغري مقالات الخوارج وتدرج في أصولهم حتى غدا "مقدما في ذلك المذهب"⁴³ ببلاؤه. ونظرا لرسوخ علمه بقواعد التيار الصفري، نعت بكونه "مقدم الصفرية من الخوارج"⁴⁴. وهو ما أشار إليه ابن عذاري بوضوح تام في وصف "ميسرة المدغري [بـ] رأس الصفرية"⁴⁵ بالمغرب الأقصى. ولا يخالجا شك في تمكن ميسرة المطغري من نشر المذهب الصفري في أوساط قبيلته التي لم يتردد أهلها عن الانحياز جملة إلى مقالاته "فكانوا على رأي الصفرية"⁴⁶. وهو ما أكده أحد المؤرخين بالقول: "ولما سرى دين الخارجية في البربر أخذ مضغرة هؤلاء بمذهب الصفرية"⁴⁷.

ومن أبرز مشايخ قبائل المغرب الأقصى التي تلقت أصول الدعوة الخارجية الصفرية على يد عكرمة بن عبد الله البربري، نذكر سمكو بن واسول المكناسي، شيخ قبائل مكناسة. وتشير المصادر التي تناولته بالذكر إلى رحلته منذ وقت مبكر إلى المشرق، طلبا للعلم والمعرفة. وهو ما تناقله المؤرخون بالقول أنه "من حملة العلم، ارتحل إلى المدينة فأدرك التابعين"⁴⁸ وأخذ عنهم الفقه والحديث. ومال بعد رجوعه إلى المغرب إلى داعية المذهب الصفري بالقيروان

⁴² ذكر ابن عبد الحكم أنه "المعروف بالحقير"، نفس المصدر والصحة وفي البيان أيضا "ميسرة الحقير" ج 1، ص 52 وبالمثل، فقد أشار إليه الكري بالقول "ميسرة المطغري المعروف بالحقير"، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135. ومن الملاحظ أن هذه العبارة قد تعرضت للتصحيف مع اضطراب رسمها في جملة من المصادر المتداولة. فلدى صاحب الاستقصا أنه "المعروف بالحقير" ج 1، ص 108 وعدد ابن خلدون أنه "يعرف بلجبير" ج 6، ص 155.

⁴³ الاستقصا، ج 1، ص 108.

⁴⁴ كتاب العبر، ج 6، ص 145.

⁴⁵ البيان المغرب، ج 1، ص 53.

⁴⁶ الاستقصا، ج 1، ص 108.

⁴⁷ كتاب العبر، ج 6، ص 155.

⁴⁸ نفسه، ج 6، ص 172.

فـ "لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه"⁴⁹. وهو ما أكدته ابن خلدون⁵⁰ بقوله: أن سمكو بن واسول قد "أخذ عن عكرمة مولى ابن عباس" أصول المذهب الصفري.

وعلى غرار ميسرة شيخ قبائل مطغرة، سرعان ما اكتمل تكوين سمكو بن واسول على يد الداعية بالقيروان، فأصبح هو الآخر "مقدم الصفرية"⁵¹ في بلده. تجدنا إذاً أمام أصول انتشار الدعوة الصفرية في أوساط قبائل مكناسة، وكانت مواطنهم على وادي ملوية من لدن أعلاه سجلماسة إلى مصبه في البحر⁵². وليس أدل على انخراط كافة فروع قبائل مكناسة ويطونها للدعوة الصفرية، مما ذكره بعض الرواة بالقول: "كان أهل موطن سجلماسة من مكناسة يدينون لأول الإسلام بدين الصفرية من الخوارج"⁵³. وهو ما أكدته الحوليات التاريخية التي أشارت إلى "دخول سائر مكناسة من أهل تلك الناحية في دينهم"⁵⁴.

كما لا تعوزنا الدلائل عن انتشار المذهب الصفري - حول ذات التاريخ - ببلاد تامسنا والسوس الأدنى. مصداق ذلك ما نص عليه ابن عذاري⁵⁵ في إشارة لمن "كان بالمغرب حينئذ، قوم ظهرت فيهم دعوة الخوارج، ولهم عدد كثير وشوكة كبيرة، وهم برغواطة". ويرجع الفضل في ذلك إلى شيخهم الذي استمال أهل بلده "برغواطة، [وهم] قبيل من قبائل البربر على البحر المحيط"⁵⁶، حسب توضيحات ابن حوقل. وبرغم ما أثير من خلاف حول

⁴⁹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 149.
⁵⁰ كتاب العبر، ج 6، 172. وهو ما أشار إليه في مكان آخر بالقول: "فكان من مشاهير حملة العلم فيهم سمكو بن واسول جد بني مدرار ملوك سجلماسة، أدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس" ج 6، 138.
⁵¹ محمد الشطي المغربي، الجمان في أخبار الرماح، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 1416 تاريخ، ورقة 203، نقلا عن: الخوارج في بلاد المغرب، ج 1، 170.
⁵² كتاب العبر، ج 6، 170.
⁵³ نفسه، ج 6، 171-72.
⁵⁴ الاستقصاء، ج 1، 124.
⁵⁵ البيان المغرب، ج 1، 52.
⁵⁶ صورة الأرض، 82.

أنسابهم وما شاع بخصوص أصولهم من غموض، نميل إلى ترجيح الرأي الذي يقر بأن "برغواطة بطن من المصامدة"⁵⁷. وهو ما كشف عنه ابن خلدون⁵⁸ الذي أثبت أصولهم باعتبارهم من "الجيل الأول منهم، كان لهم في صدر الإسلام التقدم والكثرة، وكانوا شعوبا كثيرة مفترقين، وكانت مواطنهم خصوصا من بين المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط، من سلا وأزمور وأنفا وآسفي" إلى مشارف جبل درن. تجدنا إذا أمام أقدم البطون القبلية التي عمرت مجمل هذه المناطق المغربية قبل اختلاط الأعراق بها. فهم بذلك "أهل تامسنا، وهم الذين يقال لهم في القديم برغواطة"⁵⁹.

وقد تم انتشار المذهب الخارجي الصفري في أوساطهم على يد كبيرهم وشيخهم "طريف من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحق"⁶⁰. وهو المكنى في بعض المصادر باسم "طريف أبو صبيح"⁶¹. وقد أشار أحد المؤرخين⁶² إلى اتصاله هو الآخر بعكرمة البربري مولى ابن عباس، وتلقيه أصول المذهب على يديه بالفيروان. وليس أدل على انتمائه في المذهب الصفري، مما ورد على لسان البكري الذي أكد أن "طريفا... كان من أصحاب ميسرة المطغري"⁶³. وهو ما أكدته ابن خلدون⁶⁴ بالتصريح أن "طريف أبو صبيح كان من قواد ميسرة الحقيير القائم بدعوة الصفرية". وقد تواتر في المصادر المتأخرة الخبر بأن "طريف أحد قواد ميسرة المدغري"⁶⁵.

⁵⁷ الاستقصا، ج 1، 114

⁵⁸ كتاب العبر، ج 6، 276

⁵⁹ أبو راس العسكري، الحلل السندسية في شان وهران والحريرة الاندلسية (-الحلل السندسية)، تحقيق سليمة بنعمر، ليبيا، 2002، 506.

⁶⁰ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135 وهو ما أشار إليه اس عداري أيضا بالقول "طريف من ولد شمعون بن إسحاق"، البيان المغرب، ج 1، 56.

⁶¹ كتاب العبر، ج 6، 276؛ الاستقصا، ج 1، 114

⁶² الخوارج في بلاد المغرب، 48.

⁶³ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135

⁶⁴ كتاب العبر، ج 6، 276.

⁶⁵ الحلل السندسية، 506.

ونظرا لسيادته في قومه، فقد ورد ذكره على لسان الراوية أبو صالح زمر بن موسى بن هشام بن واريذن البرغواطي بصفته "طريفا أبا ملوك"⁶⁶ برغواطة. ولقد سلفت الإشارة لإسناده مهمة قيادة أول حملة استكشافية لسواحل الأندلس من طرف طارق بن زياد أمير المغرب الأقصى. وهو ما دأبت أوثق المصادر التاريخية بالإشارة إليه بالقول: "قال طريف نسبت جزيرة طريف"⁶⁷. وليس مصادفة أن يتم النيل من شخصه، على غرار ما تعرض له قادة الخوارج الصفريّة من تجريح واتهام بالزندقة والمروق في الدين، على لسان خصومهم من أهل الملل الأخرى. وهو ما حدا بزمر بن واريذن البرغواطي إلى الاصرار توكيدا على أنه "كان على ديانة الإسلام"⁶⁸.

ولا نعوزنا الدلائل الكاشفة عن سريان المذهب الخارجي الصفري في معظم مناطق المغرب الأقصى. وهو ما أشارت إليه المصادر بالقول: "وظهرت الخوارج في كل جهة"⁶⁹. وقد كشف زمر البرغواطي⁷⁰ في لائحة مفصلة عن مختلف البطون القبلية التي أخذت بقواعد المذهب الخارجي الصفري بالمغرب الأقصى. نخص منهم بالذكر جراوة وزواغة ومطغرة وبنو دمر ومطماطة. ومن المفيد الإشارة إلى انخراط "زناتة الجبل... وبنو يفرن"⁷¹ وغيرها من القبائل المغربية في المذهب الصفري. وليس أدل على تصاعد مكانة زناتة ضمن المنظومة القبلية، وحدة شوكتها وكثرة عددها وأوليئها في الانتماء للمذهب، من تنصيب زعيمها "خالد بن حميد الزناتي"⁷² على رأس كافة صفرية بلاد المغرب، على إثر مقتل ميسرة المطغري.

⁶⁶ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

⁶⁷ نفس المصدر والصفحة

⁶⁸ انظر نفس المصدر والصفحة

⁶⁹ كتاب العبر، ج 6، 157.

⁷⁰ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 140-41.

⁷¹ نفسه، 141.

⁷² النصارى المغرب، ج 2، 54.

ويخيل إلينا أن داوود الرندي النفزي المنسوب إلى رندة بكورة تاكرنا المجاورة بالضفة الأخرى من العدو الأندلسية، قد انخرط في المذهب الصفري. ولا نستبعد أن يكون هو الآخر من ضمن مشايخ قبائل المغرب الأقصى الذين تتلمذوا على الداعية عكرمة البربري بالقيروان. وهو ما يتضح من خلال رواية محمد بن يوسف الوراق التاريخي الذي أشار إلى اتصال أهل نكور من قبائل نفزة وغمارة وصنهاجة المنضوين في كنف إمارة بني صالح، من بيعته. وقد أشار إلى ذلك بالقول: "ثم ارتد أكثرهم لما ثقلت عليهم شرائع الإسلام وقدموا على أنفسهم رجلاً يسمى داوود ويعرف بالرندي وكان من نفزة"⁷³. والراجح أن المقصود بالارتداد في هذا السياق، التخلي عن مذهب السنة والجماعة الذي كان عليه أهل البلد، والأخذ بمذهب الخوارج الصفرية.

نخلص إلى أن عكرمة البربري قد تمكن بصفته داعية للمذهب الصفري من تكوين شبكة من مقدمي الصفرية في أوساط مشايخ أبرز المجموعات القبلية بالمغرب الأقصى وأشدها شوكة: مطغرة ومكناسة وزناتة ومصمودة ونفزة وغيرها. وقد اعتمد في ذلك على استمالة ذوي الجاه والسطوة والنفوذ، ممن كان لهم باع في العلم والحكمة، وممن سبق له أن تلقى أصول الفقه ورواية الأحاديث. ولعل في ذلك ما يكشف عن مكونات أقدم نخبة من أهل المعرفة وعلم الكلام بالمغرب الأقصى: سمكو بن واسول المكناسي وميسرة المطغري وطريف بن شمعون وداوود النفزي وخالد الزناتي "ومغرور بن طالوت"⁷⁴، وغيرهم ممن لم نتمكن من استقصاء أسمائهم. ومن خلال هذه الشبكة، أمكن للمذهب الخارجي الصفري أن يتغلغل إلى أعماق المغرب الأقصى "وصار منهم عدد كبير وشوكة قوية"⁷⁵.

⁷³ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 91.

⁷⁴ نفسه، 135.

⁷⁵ نهاية الإرب، 214.

والغالب على الظن أن مقدمي الصفرية بالمغرب الأقصى قد بادروا، خلال العقد الثاني من القرن الثاني الهجري، إلى الانتظام في مجلس للنظر في شؤون البلاد وأمور الحكم والسلطان. فما كان إلا أن أجمعوا على تقديم ميسرة المطغري ليكون رأسهم وإمامهم. وهي المرتبة التي تناولتها المصادر المتداولة بذكر "ميسرة المطغري رأس الصفرية، أمير الغرب"⁷⁶. فما كان على ميسرة المطغري إلا أن أعلن على إثر ذلك إمامة الظهور بقيادة ثورته المشهورة ضد ولاية بني أمية بالمغرب الأقصى، عملاً بأحد مبادئ الخوارج القائل "بوجوب الخروج على السلطان الجائر"⁷⁷.

والجدير بالملاحظة أن ثورة الخوارج الصفرية بالمغرب الأقصى قد تم الإعداد لها بعناية فائقة. تشير بعض المصادر إلى تزعم ميسرة المطغري وفدا من البربر المغاربة متوجها بهم إلى الشام لمقابلة الخليفة هشام بن عبد الملك، والشكوى من جور عبيد الله بن الحبحاب وولاته على بلاد طنجة والسوس. وهو ما اعتبره أحد المختصين⁷⁸ مبادرة للوقوف على مسؤولية الخلافة الأموية فيما يحدث بالمغرب، وإقامة الحجة عليها فيما سلف ذكره عن تخميس البربر، وللتأكد "أعن رأي أمير المؤمنين هذا أم لا؟"⁷⁹. لم ينل أعضاء الوفد المغربي حظوة لقاء الخليفة، إذ أحيل بينهم وبينه، فما كان إلا أن يتقن الجميع من تواطؤ دار الخلافة بدمشق مع ولايتها بإفريقية حول تفاصيل ما يتعرض له أهل المغرب من تعسف ومظالم. كما تم اختيار الوقت المناسب للخروج وإعلان الثورة، أثناء غياب جيش إفريقية في حملة عسكرية ضد روم صقلية. "قلما بلغ البربر خروج حبيب بن أبي عبيدة إلى بلاد الروم، انتفضوا على عبيد الله بن

⁷⁶ البيان للمغرب، ج2، 53.

⁷⁷ الملل والنحل، 58.

⁷⁸ الخوارج في بلاد المغرب، 63-64.

⁷⁹ حسب رواية الطبري، انظر: نفسه، 64.

الحبّاب⁸⁰ وأعلنوا مفارقتهم لسلطان بني أمية، وانسحاب بلاد المغرب من نظام الخلافة القائم بدمشق.

تم ذلك سنة 122 هجرية (739 ميلادية)، إذ انتفضت بلاد طنجة بأسرها، وتداعت كافة أهل هذه الجهة من المغرب الأقصى ضد رموز الخلافة الأموية. وهو ما لخصه قداماء رواة الأخبار، بالقول: "وانتفضت البربر على عبيد الله بن الحبّاب بطنجة، فقتلوا عامله عمر بن عبد الله المرادي"⁸¹. وهو الانتفاض الذي اعتبر من طرف الرواة "أول فتنة كانت بإفريقية في الإسلام"⁸². وليس مصادفة أن يتم ذلك بالمغرب الأقصى وبلاد طنجة بالذات، التي كانت منذ أقدم العصور وفي ظل دار الإسلام القلب المحرك لمجمل البلاد المغربية، بما في ذلك شبه جزيرة الأندلس. ولا غرو، "فلما بلغ أهل الأندلس ثورة البربر بطنجة ثاروا على واليهم عقبة بن الحجاج فخلعوه"⁸³.

وفي خضم تلك الأحداث، بادر ميسرة المطغري وأهل الحل والعقد من مقدمي الصفريّة بإعلان خلافة بديلة للأمويين بالمغرب الأقصى. وهو ما عبر عنه ابن عبد الحكم في عبارة مقتضية دالة بالقول: "تولى ذلك ميسرة بن الفقير البربري ثم المدغري، وهو الذي قام بأمر البربر وادعى الخلافة وتسمى بها وبويع عليها"⁸⁴. وبرغم صمت المصادر العربية عن إيراد تفاصيل إعلان أقدم نظام بديل للخلافة الأموية بالمغرب الأقصى، فقد تواتر الخبر على أن الأمر يتعلق فعلاً ببيعة، وفق قواعد الشورى. فثمة إشارات مقتضبة وردت في جملة من المصادر المتداولة تشير أن ميسرة المطغري "قد بويع بالخلافة"⁸⁵ و"خوطف

⁸⁰ تاريخ إفريقية والمغرب، 73

⁸¹ فتوح إفريقية والأندلس، 94. وقد تناول ابن العوطية أيضاً هذا الحدث بالقول "انتفضت البربر بطنجة على عبد

الله بن الحبّاب"، افتتاح الأندلس، 39

⁸² تاريخ إفريقية والمغرب، 73، فتوح إفريقية والأندلس، 94، نهاية الإرث، 214

⁸³ افتتاح الأندلس، 39.

⁸⁴ فتوح إفريقية والأندلس، 94.

⁸⁵ نهاية الإرث، 214.

بأمير المؤمنين⁸⁶. وثمة خبر ورد عرضاً بما يفيد أن الأمر يتعلق باستلهم تجربة الخلفاء الراشدين. يتجلى ذلك من خلال تعاقد الخليفة بواسطة بيعة الترشيح مع الخاصة من أهل الحل والعقد من مقدمي الصفرية. كما تعاقد في جولة ثانية بواسطة بيعة العامة مع عموم أهل المغرب الأقصى عن طريق إثبات "ما كانوا بايعوه عليه"⁸⁷ من الشروط.

وثمة إشارة كاشفة عن شروع ميسرة المطغري في ممارسة سلطانه بوصفه خليفة للمسلمين بالمغرب الأقصى. ومن مظاهر ذلك الإقدام على تنصيب وال يمثلّه في بلاد طنجة، إذ استعمل ميسرة على طنجة عبد الأعلى بن حديج الإفريقي، وكان أصله روميا وهو مولى لابن نصير⁸⁸. واضح أن عبد الأعلى بن حديج والي ميسرة على بلاد طنجة ليس بربريا أمازيغيا، بل "كان [روميا] من موالي العرب وأهل خارجيتهم، وكان يرى رأي الصفرية"⁸⁹. ولعل في ذلك ما يفصح عن خطأ مزاعم القدامى والمحدثين على السواء، ممن دأب على إدراج ثورة الخوارج بالمغرب ضد النظام الأموي، في زاوية تصادم عرقي مفترض بين البربر والعرب. أردف ميسرة المطغري ذلك بمد نفوذ خلافته ليشمل كافة أقاليم وأرجاء المغرب الأقصى. وقد تحقق ذلك بعدما "سار إلى السوس وعليها إسماعيل بن عبيد الله فقتله"⁹⁰. والراجح أنه قد عمد إلى تعيين عامل بدله على بلاد السوس، اختاره من بين أتباعه الراسخين في المذهب الصفري.

وما دامت الخلافة قد أعلنت ببلاد طنجة وشملت بلاد السوس وكافة أرجاء المغرب الأقصى، فقد أصبح لازماً على جميع من ببلاد إفريقية والأندلس

⁸⁶ الكامل في التاريخ، ج 3، 349.

⁸⁷ تاريخ إفريقية والمغرب، 74.

⁸⁸ فتوح إفريقية والأندلس، 94.

⁸⁹ كتاب العبر، ج 6، 156.

⁹⁰ فتوح إفريقية والأندلس، 94.

من المخالفين لبني أمية التتصل من بيعتهم والالتحاق بسلك الخلافة المعلنة والإقرار بالبيعة لميسرة. بمعنى أن فصلا جديدا من المواجهة بين الخلافة الأموية القائمة بدمشق، وخلافة الخوارج الصفرية المعلنة بطنجة، قد انفتح في ظل الخلاف المذهبي المستحكم ضمن دار الإسلام الواحدة. وهو ما أشار إليه المؤرخون بالقول: "واضطرم المغرب نارا وانتقض أمره على خلفاء المشرق، فلم يراجع طاعتهم بعد"⁹¹.

وسواء بالمغرب أو بإفريقية والأندلس، فمن المعلوم أن ثورة الخوارج الصفرية بقيادة ميسرة المطغري سرعان ما دبت دبيب النار في الهشيم، مما أسفر عن اختلال سلطان بني أمية بمجمل الجناح الغربي لدار الإسلام. وهو ما أشارت إليه الحوليات التاريخية بالقول: وما لبث أن "وثب كل قوم من البربر على من يليهم"⁹² من ولاية وعمال بني أمية. وليس أدل على شيوع المذهب الصفري في أوساط عامة أهل البلد، من دعر الأمويين الذين لم يتمالكوا عن التصريح: "قما بال التحكيم قد فشا فيهم ورفع المصاحف وحلق الرؤوس إقتداء بالأزارقة وأهل النهروان؟"⁹³. كما سار أهل الأندلس على ذات المنوال، فأقروا بالبيعة و"حلقوا رؤوسهم إقتداء بميسرة"⁹⁴. وتكشف بعض الروايات ميل البربر البلديين بالأندلس إلى الانتظام في سلك الخلافة الصفرية المعلنة بالمغرب الأقصى، إذ "رأست البربر بالأندلس على أنفسهم ابن مدين"⁹⁵ مقدم الصفرية. وللوقوف في وجه تقدم الخوارج الصفرية نحو القيروان، لم يجد والي بني أمية عبيد الله بن الحبحاب بدا من تجريد حملتين عسكريتين متلاحقتين:

الأولى بقيادة خالد بن أبي حبيب الفهري الذي سار "حتى عبر وادي شلف، وهو

⁹¹ كتاب العبر، ج 6، 156

⁹² مجموعة (=أخبار مجموعة 1989)، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة - بيروت، 1989، 35.

⁹³ نفسه، 37.

⁹⁴ نفسه، 44.

⁹⁵ نفسه، 43.

نهر بمقربة من تيهرت⁹⁶ في اتجاه تخوم المغرب الأقصى، ومضى "حتى لقي ميسرة دون طنجة"⁹⁷. وهو نفس التحديد الجغرافي الذي كشفت عنه رواية ابن عذاري، إذ قال: إن خالد "لقي ميسرة بمقربة من طنجة"⁹⁸. ولم يكن ابن الأثير⁹⁹ يختلف مع الروايات السالفة في ضبط موقع "التقاء خالد وميسرة بنواحي طنجة". على منوالهم، أشار البعض الآخر إلى أن اللقاء قد تم "بأحواز طنجة"¹⁰⁰. أما الموجة العسكرية الثانية التي بعثت من القيروان فقد تقدمت بقيادة حبيب بن أبي عبيدة "حتى نزل على وادي شلف فأقام ولم يبرح"¹⁰¹ مكانه، تحسبا لكل الاحتمالات. وتجمع المصادر التي تعرضت للقاء بين الخصمين، أنهم "اقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع بمثله"¹⁰². ويبدو أن المعركة قد حدثت عند التخوم الشرقية للمغرب الأقصى، في مكان ما بين ثلمسان وتيهرت، وبدلا عن الوقوف في وجه الخصم واختراق صفوفه كما هو منتظر، "انصرف ميسرة إلى طنجة"¹⁰³، في عملية انسحاب ظلت إلى اليوم غير مفهومة الأسباب. إلا أن ثمة رواية وردت على لسان أحد المؤرخين تشير إلى حدوث اقتتال شديد بين الفريقين، إلى أن ينس كلاهما عن حسم الأمور فـ "تجاوزا ورجع ميسرة إلى طنجة"¹⁰⁴.

والراجح أن ثمة خلافات قد دبت بين قيادات الصفرية في خضم المعارك، حسبما يستفاد من الإشارات المصدرية التي تناولت بالذكر مؤاخذة ميسرة بعدم الالتزام بمضمون البيعة، إذ "أنكرت عليه البربر سيرته وتغيره عما

⁹⁶ البيان المغرب، ج 2، 52.

⁹⁷ تاريخ إفريقية والمغرب، 74.

⁹⁸ البيان المغرب، ج 2، 53.

⁹⁹ الكامل في التاريخ، م 3، 349.

¹⁰⁰ لاستقصا، ج 1، 109.

¹⁰¹ تاريخ إفريقية والمغرب، 74.

¹⁰² الكامل في التاريخ، م 3، 349.

¹⁰³ فتوح إفريقية والأندلس، 95.

¹⁰⁴ البيان المغرب، ج 1، 53.

نهاية الإرب، 214.

البيان المغرب، ج 1، 53.

البيان المغرب، ج 1، 53.

البيان المغرب، ج 1، 53.

كانوا بايعوه عليه¹⁰⁵. ويخيل إلينا أن ثمة انقسام إلى تيارين في صفوف الثوار: الأول بقيادة الخليفة ميسرة المطغري الذي يبدو أنه قد أثر وقف القتال والاكتفاء باقتطاع المغرب الأقصى وبلاد الأندلس من نفوذ خلافة دمشق، مع رسم الحدود بين الخلافتين الأموية بدمشق والصفرية بطنجة، عند المكان الذي تحاجزوا فيه. بينما استمسك الفريق الثاني بالمبادئ والأصول التي تدعو إلى الاستمرار في القتال إلى حين إسقاط الخلافة الأموية الجائرة بدمشق، وإقامة خلافة خارجية عادلة لكافة المسلمين. وبدلاً من تقويم الوضع بالطرق المناسبة، لم يتمكن الخوارج الصفرية بالمغرب الأقصى من تجاوز الآفة التي لازمت تاريخ الخوارج الدامي. ومرة أخرى تتأجج خلافاتهم الداخلية في خضم المعارك وأثناء الأوقات العصيبة. وبدلاً عن التريث في تطبيق مبادئهم المعلنة، بادروا توا إلى خليفتهم ميسرة المطغري الذي حاد عن شروط البيعة، "فقتلوه، وولوا أمرهم بعده خالد بن حميد الزناتي"¹⁰⁶.

لم تتأخر جموع الخوارج الصفرية عن الالتئام تحت قيادتهم الجديدة لاستئناف القتال ضد جيوش ابن الحبحاب المرابطة في معسكرين قتاليين متدرجين، الأول بأحواز تلمسان والثاني عند وادي شلف. وحتى يتمكن خالد بن حميد الزناتي من اختراق معسكر خالد بن حبيب الفهري المتحصن في شكل "حاجز"¹⁰⁷، بعث بفرقة ثانية من جيشه في حركة النفاذ من الحلف لقطع الاتصال بين المعسكر المتقدم وقاعدته الخلفية المرابطة عند وادي شلف. ولما تاهب الجيش الأموي لقتال طلائع الصفريين المهاجمة والتحم الجمعان، "ظهر عليهم كمين من البربر"¹⁰⁸ فهاجمهم من الخلف، فوقعوا فيما يشبه كمامة. أسفرت المعركة عن إبادة الجيش الأموي برمته ومقتل قائده خالد بن حبيب

¹⁰⁵ فتوح إفريقية والأندلس، 195، السار المغرب، ج 1، 135، نهاية الإرب، 214.

¹⁰⁶ السار المغرب، ج 1، 53.

¹⁰⁷ الامتصاص، ج 1، 109.

¹⁰⁸ الكامل في التاريخ، 11.

العربي حتى لم يبق من أصحابه رجل واحد، فقتل في تلك الواقعة حماة العرب
ورسانها وكماتها وأبطالها، فسميت الغزوة غزوة الأشراف¹⁰⁹.

لم يتمالك الخليفة هشام بن عبد الملك أمام فداحة الهزيمة عن الانفعال
متعصبا في حمية عرقية غير مناسبة لمنصبه كأمير للمؤمنين. فقد صرح قائلاً
في عبارة مأثورة: "والله لأغضبن لهم غلبة عربية ولأبعثن إليهم جيشاً أوله
عندهم وآخره عندي"¹¹⁰. وهو الجيش الذي أمر عليه كلثوم بن عياض
القشيري، وعهد بخلافته إن قتل إلى بلج بن بشر، ومن بعده إن قتل لثعلبة بن
سلامة العاملي. وتقدمت القوات المهاجمة من إفريقية ومصر والشام نحو
المغرب الأقصى في ثلاثين ألف مقاتل، "فيهم عشرة آلاف من صلب بني أمية
وعشرون ألفاً من سائر العرب"¹¹¹. وتقدم المصادر العربية¹¹² تفاصيل
المعركة التي دارت رحاها سنة 123 هجرية (740 ميلادية) على وادي سبو،
عد الموضع المعروف بـ بقدورة¹¹³. أسفرت المواجهات عن إحدى أكبر
الهزائم في تاريخ الخلافة الأموية، إذ آلت جيشها إلى "ثلث مقتول، وثلث
منهزم، وثلث مأسور"¹¹⁴.

ثالثاً - الحركة الاعتزالية الواصلية.

ومن أبرز التيارات الفكرية التي أثرت في صياغة الخريطة المذهبية
بالمغرب الأقصى نذكر تيار الاعتزال الواصلي الذي تبلور بمدينة البصرة على
يد واصل بن عطاء، حوالي سنة 100 للهجرة (718م). وبرغم فقدان جميع

¹⁰⁹ لبيل المغرب، ج 1، 54.
¹¹⁰ تاريخ إفريقية والمغرب، 75.
¹¹¹ لبيل المغرب، ج 1، 55.
¹¹² جمع تفاصيل المعركة في إصدار مجموعته 1989، 37، 40، 44، 45، 46، 47، 48، 49، 50، 51، 52، 53، 54، 55، 56، 57، 58، 59، 60، 61، 62، 63، 64، 65، 66، 67، 68، 69، 70، 71، 72، 73، 74، 75، 76، 77، 78، 79، 80، 81، 82، 83، 84، 85، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 92، 93، 94، 95، 96، 97، 98، 99، 100، 101، 102، 103، 104، 105، 106، 107، 108، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 117، 118، 119، 120، 121، 122، 123، 124، 125، 126، 127، 128، 129، 130، 131، 132، 133، 134، 135، 136، 137، 138، 139، 140، 141، 142، 143، 144، 145، 146، 147، 148، 149، 150، 151، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 166، 167، 168، 169، 170، 171، 172، 173، 174، 175، 176، 177، 178، 179، 180، 181، 182، 183، 184، 185، 186، 187، 188، 189، 190، 191، 192، 193، 194، 195، 196، 197، 198، 199، 200، 201، 202، 203، 204، 205، 206، 207، 208، 209، 210، 211، 212، 213، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 223، 224، 225، 226، 227، 228، 229، 230، 231، 232، 233، 234، 235، 236، 237، 238، 239، 240، 241، 242، 243، 244، 245، 246، 247، 248، 249، 250، 251، 252، 253، 254، 255، 256، 257، 258، 259، 260، 261، 262، 263، 264، 265، 266، 267، 268، 269، 270، 271، 272، 273، 274، 275، 276، 277، 278، 279، 280، 281، 282، 283، 284، 285، 286، 287، 288، 289، 290، 291، 292، 293، 294، 295، 296، 297، 298، 299، 300، 301، 302، 303، 304، 305، 306، 307، 308، 309، 310، 311، 312، 313، 314، 315، 316، 317، 318، 319، 320، 321، 322، 323، 324، 325، 326، 327، 328، 329، 330، 331، 332، 333، 334، 335، 336، 337، 338، 339، 340، 341، 342، 343، 344، 345، 346، 347، 348، 349، 350، 351، 352، 353، 354، 355، 356، 357، 358، 359، 360، 361، 362، 363، 364، 365، 366، 367، 368، 369، 370، 371، 372، 373، 374، 375، 376، 377، 378، 379، 380، 381، 382، 383، 384، 385، 386، 387، 388، 389، 390، 391، 392، 393، 394، 395، 396، 397، 398، 399، 400، 401، 402، 403، 404، 405، 406، 407، 408، 409، 410، 411، 412، 413، 414، 415، 416، 417، 418، 419، 420، 421، 422، 423، 424، 425، 426، 427، 428، 429، 430، 431، 432، 433، 434، 435، 436، 437، 438، 439، 440، 441، 442، 443، 444، 445، 446، 447، 448، 449، 450، 451، 452، 453، 454، 455، 456، 457، 458، 459، 460، 461، 462، 463، 464، 465، 466، 467، 468، 469، 470، 471، 472، 473، 474، 475، 476، 477، 478، 479، 480، 481، 482، 483، 484، 485، 486، 487، 488، 489، 490، 491، 492، 493، 494، 495، 496، 497، 498، 499، 500، 501، 502، 503، 504، 505، 506، 507، 508، 509، 510، 511، 512، 513، 514، 515، 516، 517، 518، 519، 520، 521، 522، 523، 524، 525، 526، 527، 528، 529، 530، 531، 532، 533، 534، 535، 536، 537، 538، 539، 540، 541، 542، 543، 544، 545، 546، 547، 548، 549، 550، 551، 552، 553، 554، 555، 556، 557، 558، 559، 560، 561، 562، 563، 564، 565، 566، 567، 568، 569، 570، 571، 572، 573، 574، 575، 576، 577، 578، 579، 580، 581، 582، 583، 584، 585، 586، 587، 588، 589، 590، 591، 592، 593، 594، 595، 596، 597، 598، 599، 600، 601، 602، 603، 604، 605، 606، 607، 608، 609، 610، 611، 612، 613، 614، 615، 616، 617، 618، 619، 620، 621، 622، 623، 624، 625، 626، 627، 628، 629، 630، 631، 632، 633، 634، 635، 636، 637، 638، 639، 640، 641، 642، 643، 644، 645، 646، 647، 648، 649، 650، 651، 652، 653، 654، 655، 656، 657، 658، 659، 660، 661، 662، 663، 664، 665، 666، 667، 668، 669، 670، 671، 672، 673، 674، 675، 676، 677، 678، 679، 680، 681، 682، 683، 684، 685، 686، 687، 688، 689، 690، 691، 692، 693، 694، 695، 696، 697، 698، 699، 700، 701، 702، 703، 704، 705، 706، 707، 708، 709، 710، 711، 712، 713، 714، 715، 716، 717، 718، 719، 720، 721، 722، 723، 724، 725، 726، 727، 728، 729، 730، 731، 732، 733، 734، 735، 736، 737، 738، 739، 740، 741، 742، 743، 744، 745، 746، 747، 748، 749، 750، 751، 752، 753، 754، 755، 756، 757، 758، 759، 760، 761، 762، 763، 764، 765، 766، 767، 768، 769، 770، 771، 772، 773، 774، 775، 776، 777، 778، 779، 780، 781، 782، 783، 784، 785، 786، 787، 788، 789، 790، 791، 792، 793، 794، 795، 796، 797، 798، 799، 800، 801، 802، 803، 804، 805، 806، 807، 808، 809، 810، 811، 812، 813، 814، 815، 816، 817، 818، 819، 820، 821، 822، 823، 824، 825، 826، 827، 828، 829، 830، 831، 832، 833، 834، 835، 836، 837، 838، 839، 840، 841، 842، 843، 844، 845، 846، 847، 848، 849، 850، 851، 852، 853، 854، 855، 856، 857، 858، 859، 860، 861، 862، 863، 864، 865، 866، 867، 868، 869، 870، 871، 872، 873، 874، 875، 876، 877، 878، 879، 880، 881، 882، 883، 884، 885، 886، 887، 888، 889، 890، 891، 892، 893، 894، 895، 896، 897، 898، 899، 900، 901، 902، 903، 904، 905، 906، 907، 908، 909، 910، 911، 912، 913، 914، 915، 916، 917، 918، 919، 920، 921، 922، 923، 924، 925، 926، 927، 928، 929، 930، 931، 932، 933، 934، 935، 936، 937، 938، 939، 940، 941، 942، 943، 944، 945، 946، 947، 948، 949، 950، 951، 952، 953، 954، 955، 956، 957، 958، 959، 960، 961، 962، 963، 964، 965، 966، 967، 968، 969، 970، 971، 972، 973، 974، 975، 976، 977، 978، 979، 980، 981، 982، 983، 984، 985، 986، 987، 988، 989، 990، 991، 992، 993، 994، 995، 996، 997، 998، 999، 1000.

مصنفات واصل بن عطاء، وإتلاف رسائل أبي الهذيل ومقالات النظام، وغير ذلك مما وضعه رواد مشايخ المعتزلة، فقد تمكن الدارسون من خلال ما وصلنا من كتب المعتزلة المتأخرين ومن مقالاتهم الموثقة في كتب الخصوم، من إعادة بناء جزء هام من فكرهم الكلامي بالمشرق الإسلامي. وقد لخص الدارسون مذهبهم في أصول خمس، منها قولهم في التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إلا أن دورهم المتعظيم، منذ مطلع القرن الثاني الهجري، في صياغة تاريخ الإسلام، قد ظل في معظمه مجهولاً. وقد نبه بعض الدارسين¹¹⁵ إلى أهمية الشروع إخضاع حركة الاعتزال للبحث التاريخي أملاً في ترميم الحلقات المخرومة من تاريخهم السياسي.

وغني عن القول أن تاريخ الاعتزال ببلاد المغرب قد ظل إلى عهد قريب من المواضيع الغير المطروحة على بساط البحث، سواء تعلق الأمر بدورهم الفكري والكلامي أو بمكانتهم في صياغة فصول التاريخ العام بالجناب الغربي لدار الإسلام. وهو ما حاول بعض الدارسين¹¹⁶ تداركه من خلال فتح أبواب البحث في تاريخ المعتزلة بالمغرب. وقد أمكننا في مناسبة سابقة¹¹⁷ مساهمة تداعيات الفكر الاعتزالي والوقوف على دور هذا التيار الفكري في صياغة معالم المذهب المسري بالأندلس خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة. ناهيك عما تجمع لدينا من تفاصيل عن دور الاعتزال الواصلي في تكوين نثـة من أهل القلم الذين تصدروا خطط الفتيا والقضاء والمظالم والرد وغيرها من الخطط الجليـة بقرطبة. وبرغم فقدان الأصول المصدريـة، لا تخلو كتب التراجم

¹¹⁵ محمود إسماعيل، المعتزلة بين النظر العقلي والعمل السياسي، ضمن: الحركات السرية في الإسلام رؤية
عصرية، بيروت، 1973، 83-100. ومن الدراسات التي أنجزت في هذا المعنى نذكر كتاب عبد الرحمن سالم،
¹¹⁶ التاريخ السياسي للمعتزلة حتى القرن الثالث الهجري (=التاريخ السياسي للمعتزلة)، القاهرة، 1989.
¹¹⁷ محمود إسماعيل، المعتزلة في المغرب تأسيس تاريخي، ضمن مغربيات دراسات جديدة،
بيروت، 1986، 45-54. العامة والاتجاهات الفكرية بالأندلس في عصر الخلافة، دراسات عربية، العدد 3، السنة 22،

والطبقات والأنساب، ومصنفات الملل والنحل، وكتب الطب والفلاحة والنبات، من ننف إخبارية متناثرة، كفيلة بترقيع بعض القطع المخرومة في تاريخ الفكر ببلاد المغرب. وفي تقديرنا أن مدرسة الاعتزال الواصلي المغربية الأندلسية قد تشكلت معالمها الأولى في بلاد غمارة المصمودية، ومنها شاعت مقالاتها خلال القرن الثاني للهجرة في القبائل المجاورة بأوربة وصنهاجة مفتاح البرنسيين ونامسا المصمودية. إلا أن إشعاع ضيئها ما لبث أن تألق خلال القرون اللاحقة بجبال قرطبة وبكافة نواحي الأندلس.

وتكشف كتب المعتزلة¹¹⁸ عن بواكير الاعتزال التي ظهرت في أقصى الجناح الغربي لدار الإسلام على يد أوائل الدعاة الواصلية ببلاد المغرب. ففي سياق حديثه عن واصل بن عطاء، ذكر المرتضى "أنه أنفذ أصحابه إلى الأفاق وبعث دعائه في البلاد، قال أبو الهذيل: بعث عبد الله بن الحارث إلى المغرب فأحياه الخلق"¹¹⁹. ويضيف القاصي بن عبد الجبار¹²⁰ أنه على إثر مقتل أحد قطاب الاعتزال واسمه بشير الرحال "لحق بعض أولاده وأصحابه بالمغرب". وفي سياق حديثه عن المناطق التي ساد فيها الاعتزال، يخص البلخي¹²¹ بالذكر من المغرب البيضاء، وهي كورة كبيرة يقال أن فيها مائة ألف تحمل السلاح يقال لهم الواصلية". وقد تمكن ياقوت الحموي¹²² من توطئ هذه المنطقة تميمًا بالقول: "البيضاء كورة بالمغرب". وقد ضبطها محمد بن عبد المنعم الحميري¹²³ في معجمه الجغرافي بتحديد لها في 'طنجة البيضاء المذكورة في النوارخ'. والغالب على الظن أن الأمر يتعلق بكافة المناطق التي تتدرج ضمن

¹¹⁸ البلخي، مقالات الإسلاميين، في كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة (مقالات الأسلاميين)، تحقيق فواد سيد، تونس 986، 66-67.
¹¹⁹ كتاب لعنية والأمل في شرح الملل والنحل، تحقيق محمد حواد مشكور، بيروت، 1979، 141.
¹²⁰ نفسه، 227.
¹²¹ نفسه، 128.
¹²² معجم البلدان، ج 1، 529.
¹²³ الروض المعطار، 397.

كورة طنجة، وتشمل فضلا عن بلاد الهبط، قبائل عمارة المصمودية التي
 اسرحت جملة مند هذا التاريخ في المذهب الإعتزالي الواصلي. ونظرا لعدد
 بطونهم وتفرع فصائلهم، كثيرا ما وصفوا بكونهم خلفا لا بحصيتهم إلا حالهم،
 وأنهم شعوبا وقبائل و"أما لا تحصى"¹²⁴. وتشغل هذه القبائل المجال الجغرافي
 الذي حدده ابن خلدون¹²⁵ في "رحاب الريف بساحل بحر الدر من عن يمين
 سبتة المغرب ... [وهي] جبال شاهقة اتصل بعضها ببعض سياجا بعد سياج".
 ولا نعوزنا القرائن الدالة على امتداد نفوذ التيار الواصلي ليشمل إحدى
 أهم المجموعات القبلية المغربية. ويتعلق الأمر بقبيلة أوربة البرنسية الصارية
 بحوز حاضرة وليلي ونواحي مدينة سقوما بقلب المغرب الأقصى. وقد كانت
 أوربة انداك من أعظم قبائل بلاد المغرب¹²⁶. ولا غرو، فقد تواتر في
 المصدر التاريخي¹²⁷ نعت شيخها "وصاحبها إسحاق بن عبد الحميد الأوربي
 المعتزلي". وهو ما أكده صاحب الإستبصار¹²⁸ بالقول: "وكان إسحاق بن محمد
 لأوربي معتزلي المذهب". وهو المذهب الذي ظلت مؤثراته حية في أوساط
 هذه المجموعة القبلية خلال الفرون اللاحقة. مصداق ذلك ما أورده ابن
 حوقل¹²⁹ عن "أصحاب البرانس المقيمين بين السوس وأغمات وفاس [إذ كان]
 في بعضهم الاعتزال والعلم".

ويميل إلى الاعتقاد أن الاعتزال قد تمكن من الانتشار في أوساط ثاني
 هذه الفروع القبلية البرنسية بالمغرب الأقصى. ويتعلق الأمر بقبائل "صنهاجة
 مباح"¹³⁰ الصارية من سواحل مدينة بادس ببلاد نكور إلى أن نتصل بمواطن

124 - كتاب الاستبصار، 190.
 125 - ابن خلدون، ج 6، 281.
 126 - كتاب الاستبصار، 194.
 127 - ابن خلدون، ج 6، 180. لايس لمصرب، 19.
 128 - كتاب الاستبصار، 194، 95.
 129 - ابن حوقل، ج 1، 103.
 130 - ابن خلدون، ج 6، 284. لايس لمصرب، 19.

بني عموميتها أوربة. وهو ما ضبطه محمد بن يوسف الوراق التاريخي¹³¹ بالقول: أن "صنهاجة من ورائهم أوربة". وقد تمكنا في دراسة سابقة¹³² من ضبط أنساب صنهاجة وأوربة المتفرعين من نفس الأصل القبلي باعتبارهما من "ولد برنس"¹³³. وهو ما أكدته النسابة¹³⁴ الذين أشاروا إلى "القبيلة الثالثة من البرانس صنهاجة".

والجدير بالذكر أن قبائل صنهاجة البرنسية المتأثرة فيما يبدو بالتأثير الإعتزالي الواصلي قد أعلنت الثورة¹³⁵ على إمارة بني صالح السنية، خلال السبعينات من القرن الهجري الثاني وكان الأمير على حاضرة نكور آنذاك سعيد بن إدريس المتوفى سنة 188 للهجرة (803م). وقد أشارت المصادر إلى هذه الثورة بالقول: "وقامت البرانس على سعيد بن إدريس وقدموا على أنفسهم رجلا يسمى سكن وتألوا عليه من كل جهة"¹³⁶. ومن الملاحظ أن ثورة البرانس ضد بني صالح كانت بإيعاز من قبائل غمارة الواصلية المذهب التي تولت القيادة وعمدت إلى خلع طاعة أمير بني صالح القائم بنكور وبيعة أمير بديل. وهو ما كشفت عنه ابن خلدون¹³⁷ بالقول: "وانتفضت غمارة على سعيد فخلعوه وولوا عليهم رجلا منهم اسمه سكن".

والغالب على الظن أن الأمر يتعلق بخلع قبائل غمارة المصمودية وصنهاجة البرنسية لطاعة بني صالح في نكور، والإقدام علىبيعة إدريس بن عبد الله القائم بالدعوة الشيعية الزيدية بوليلي. وهو ما أثبتته المصادر الإخبارية بالقول: فلما بويع لإدريس بن عبد الله بوليلي "أنته أصناف قبائل البربر من أهل

¹³¹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 90.

¹³² راجع، إمارة بني صالح، 89-186.

¹³³ جمهرة أنساب العرب، 495؛ كتاب العبر، ج 6، 116.

¹³⁴ العلقسدي، قلاند الجمان في التعريف بقبائل عرب الرمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، 1963، 170.

¹³⁵ وهي الثورة الاعتزالية الواصلية التي تناولها بهصر تفاصيلها في كتابها، إمارة بني صالح، 52-56.

¹³⁶ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 92.

¹³⁷ كتاب العبر / ج 6، 284.

المغرب منهم...نفرة ومكناسة وغمارة فبايعوه ودخلوا في طاعته¹³⁸. ومن
المعلوم أن ثمة توافق تام بين المذهبين: الاعتزال الواصلي والتشيع الزيدي¹³⁹
قد انعقد بين إدريس بن عبد الله وإسحاق بن عبد الحميد الأوربي. يذكر
البكري¹⁴⁰ أن إدريس لما "نزل على إسحق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي
المعتزلي، فتابعه على مذهبه". وهو ما أكدته الرواة¹⁴¹ بالقول: "وكان إسحاق
بن عبد الحميد الأوربي معتزلي المذهب فوافقه إدريس على مذهبه".

تجدنا إذاً أمام جذور الصراع السياسي والمذهبي بالمغرب الأقصى بين
أهل الاستقامة والإقتداء المتأهبين للدفاع عن السنة والجماعة بحاضرة نكور،
وبين المعتزلة الواصلية من الدعاة للتشيع الزيدي، انطلاقاً من ويلي أولاً ثم من
حاضرة فاس بعدئذ. هكذا، فبعد تصدي أهل نكور بحزم - خلال العشرينات
من القرن الهجري الثاني - لتيار الخوارج الصفرية المتغلب على كافة ربوع
المغرب الأقصى الذي انتظم في كنف خلافة ميسرة المطغري، سرعان ما
وجدوا أنفسهم خلال السبعينات من نفس القرن يواجهون إحدى أعنى الموجات
الشيعية الاعتزالية الواصلية، التي هبت رياحها بقوة على البلاد.
حقيقة أن حاضرة نكور كانت قاب قوسين أو أدنى من الوقوع تحت

سيطرة الثوار المعتزلة القائمين بدعوة الشيعة، إذ أنهم "غزوا [سعيد بن صالح]
في عقر داره"¹⁴². إلا أن بني صالح قد تمكنوا في النهاية من تكسير شوكة
الثوار الشيعة من المعتزلة الواصلية المتكالبين من غمارة وأوربة وصنهاجة
على حاضرة نكور. وهو ما كشفت عنه المصادر التاريخية في ذكر أميرهم

¹³⁸ الأنيس المطرب، 20.

¹³⁹ وهو التوافق المذهبي الذي ترجع أصوله إلى أقطاب التيارين بالمشرق كما هو معلوم لمزيد من التفصيل

راجع الفصل الذي خصصه أحد الدراسات للموضوع بعنوان: الاتجاه الشيعي في الفكر السياسي للمعتزلة، ص 41-123.

¹⁴⁰ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 118.

¹⁴¹ كتاب الإستبصار، 95-194.

¹⁴² المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 92.

سعيد بن إدريس الذي "أظهره الله عليهم وهزمهم وقتل رئيسهم وافترق جمعهم ورجع من بقي منهم إلى الطاعة"¹⁴³. وقد تمكنا في دراسة سابقة¹⁴⁴ من ضبط مواطن قبائل غمارة المصمودية وصنهاجة البرنسية المنضوية في سلك أهل السنة والجماعة بنكور، وغيرهم ممن انحاز إلى إمامة الأدارسة من الشيعة الزيدية. وليس أدل على أهمية البعد المذهبي في تأجيج الصراعات التي دارت رحاها بين صاحب بكور سعيد بن إدريس ومقدم الثوار سكن الغماري، من إقرار الرواة بثبات ملوك نكور خلال هذه الفترة العصبية من تاريخ المغرب الأقصى على مذهب أهل السنة والجماعة. مصداق ذلك ما أورده ابن خلدون¹⁴⁵ بالقول: متحدثا عن صمود سعيد بن إدريس الذي "استوسق أمره إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين ومائة، لسبع وثلاثين من أيامه وقام بأمره ابنه صالح بن سعيد، فنقبل مذهب سلفه في الاستقامة والإقتداء، حسبما أشرنا إلى ذلك سلفا.

وثمة مؤشرات دالة على انتشار الاعتزال في بلاد تامسنا ولدى قبائل "زناتة الجبال"¹⁴⁶. فمن أعلام المذهب المشهورين بالمغرب الأقصى خلال هذه الفترة المبكرة، تناولت المصادر المتداولة بالذكر "زيد بن سنان الزناتي صاحب الواصلية"¹⁴⁷. وبالمثل، فقد وقفنا على إشارة غاية في الأهمية تفصح عن تتلمذ أحد ملوك بلاد تامسنا على غيلان الدمشقي القدري، "ونظر في الكلام والجدال وأخذ ذلك عن غيلان"¹⁴⁸. وليس أدل على مدى انتشار الاعتزال في أوساط القبائل المغربية مما أحصاه ابن حزم¹⁴⁹ من بطونهم قائلا: "وكل من ذكرنا معتزلة". وتتوفر على رواية كاشفة عن مكانة الاعتزال ضمن الخريطة المذهبية

¹⁴³ نفس المصدر والصفحة

¹⁴⁴ إمارة بني صالح، 55-56.

¹⁴⁵ كتاب العبر، ج6، 284.

¹⁴⁶ كتاب الاستبصار، 200.

¹⁴⁷ للمغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

¹⁴⁸ نفسه، 137-38.

¹⁴⁹ جمهرة أنساب العرب، 498.

بالمغرب الأقصى خلال القرن الثاني الهجري، إذ كان أهل طنجة والسوس الأقصى صفرية ومعتزلة¹⁵⁰.

رابعا - التشيع الزيدي والإمامي والإسماعيلي

من المعلوم أن الزيدية فرقة من فرق الشيعة، تنتسب لمؤسسها زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وفضلا عن مواقفهم المعتدلة تجاه أهل السنة، فقد اقتربوا من فكر الخوارج في القول بالثورة العلنية على أئمة الجور، وكادوا أن يندمجوا مع المذهب الاعتزالي في حركة واحدة، خصوصا بعد انفصال إمامهم محمد النفس الزكية عن الدعوة العباسية. ولا غرو، فقد أخذوا في قضية الإمامة بالبيعة والشورى في ولد الحسن والحسين "بأختيار أهل الحل والعقد لا بالنص"¹⁵¹. وفضلا عن عدم مجاراتهم للمتعارف من مبادئ الشيعة في التقية والعصمة، فقد أجازوا إمامة المفضول مع وجود الأفضل. كما أجازوا قيام إمامين في وقت واحد، إذا كانا في بلدين متباعدين¹⁵². وقد لخص المرتضى¹⁵³ مذهبهم بالقول: "قالزيدية منسوبة إلى زيد بن علي عليه السلام، ويجمع مذهبهم تفضيل علي عليه السلام وأولويه في الإمامة، وقصرها على البطينين، واستحقاقهما بالفضل والطلب لا بالوراثة، ووجوب الخروج على الجائرين، والقول بالتوحيد والعدل والوعد والوعيد".

ومن المعلوم أن التوافق بين الاعتزال والمذهب الزيدي ترجع أصوله إلى صاحب المذهب زيد بن علي الذي تتلمذ في "مذاهب المعتزلة وأخذها عن

¹⁵⁰ ابن سهل الرازي، أخبار فخ وخبر يحيى بن عبد الله وأخيه إدريس بن عبد الله (=أخبار فخ)، تحقيق ماهر جرار، بيروت 1995، 181.

¹⁵¹ ابن خلدون، المقدمة (-مقدمة ابن خلدون)، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، 1958، ج 2، 534.

¹⁵² راجع لمريد من التفصيل، محمود إسماعيل، الأدرسة في المغرب الأقصى حقائق جديدة (=الأدرسة)، الكويت، 1989، 19-35.

¹⁵³ المنية والأمل، 20.

واصل بن عطاء¹⁵⁴. وفي المقابل، يشير مؤرخي المعتزلة إلى تأصل مذهبهم في فكر الشيعة من آل البيت، باعتبار أن شيخا الاعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد قد 'أخذا عن محمد بن علي بن أبي طالب وابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد؛ ومحمد [بن الحنفية] هو الذي ربي واصلًا وعلمه حتى تخرج واستحكم'¹⁵⁵. بلغ الارتباط بين المذهبين أن تم الرجوع بأصل الاعتزال إلى "محمد بن الحنفية، [و] أن واصلًا أخذ علم الكلام عنه وصار كالأصل لسنده"¹⁵⁶.

ولا عرابة في أن يندمج المذهبان الاعتزالي الواصلي والشيوعي الزيدي في دعوة واحدة بالمغرب الأقصى. وقد سلّفت الإشارة إلى أن زعيم البرانس إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي كان معتزلي المذهب فوافقه إدريس على مذهبه¹⁵⁷. وبالمثل، فقد أكد البلخي أن إسحاق الأوربي هو الذي "اشتمل على إدريس بن عبد الله حين ورد عليه فأدخله في الاعتزال"¹⁵⁸. ولا تختلف رواية البكري¹⁵⁹ في الإقرار بأنه لما "نزل إدريس على إسحاق الأوربي المعتزلي، فتابعه على مذهبه". ومن المفيد الانتباه إلى أن إدريس بن عبد الله قد اصطحب معه أحد المتكلمين المعتزلة في رحلته إلى المغرب الأقصى، إلا أن المصادر صمّنت عن ذكر اسمه. ويتعلق الأمر بـ "أحد الرجلين اللذين مع إدريس، من أهل البصرة، من شيعة أخيه إبراهيم بن عبد الله، [وكان] معتزليًا بليغًا حطيبًا"¹⁶⁰. ومن المتعارف عليه لدى مؤرخي الشيعة الزيدية أن يحيى بن

¹⁵⁴ مقدمة ابن خلدون، ج2، 529.

¹⁵⁵ كتاب المنية والأمل، 125.

¹⁵⁶ نفسه، 131.

¹⁵⁷ كتاب الاستبصار، 195.

¹⁵⁸ مقالات الإسلاميين، 109 نقلًا عن الأدارسة، 55.

¹⁵⁹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 118.

¹⁶⁰ أخبار فح، 173.

عبد الله قد وجه في جميع الأمصار ثلاثة ثلاثة، وأنه قد وجه أخاه إدريس مع رجلين نحو المغرب يقال لأحدهما إسحاق بن راشد، وذكر الآخر¹⁶¹.

ومن المعلوم أن "إسحاق بن راشد" مولى إدريس بن عبد الله من البربر البرانس ينتسب في قبيلة أوربة، وهو ممن وقع في أسر موسى بن نصير أثناء اقتحامه سقوما حاضرة المملكة البرنسية، كما تقدم ذكره. وهو ما كشف عنه أحد المؤرخين بالقول: "وراشد بن منصت الأوربي كان قد سبي مع أبيه في عروة موسى بن نصير، وقفل مع أبيه إلى المشرق وهو صغير، ثم أتى مع مولانا إدريس ودله على المغرب"¹⁶². هكذا نتمكن من خلال هذا التحليل من فك اللغز المتعلق بالثلاثة المبعوثين إلى المغرب الأقصى. ويتعلق الأمر في مقام أول بداعية زيدي من آل البيت، وهو إدريس بن عبد الله. أما الثاني فهو متكلم معتزلي من أهل البصرة. بينما يتعلق الأمر في مقام ثالث بمرافق مغربي أوربي من أهل البلد، وهو إسحاق بن راشد الأوربي، المكلف بالتوسط للداعية الشيعي الزيدي عند مشايخ قبيلة أوربة البرنسية التي تعد من أعظم قبائل المغرب.

وبالمقابل، فثمة روايات موازية تشير إلى أن زعيم قبائل أوربة قد مال فعلا إلى التشيع الزيدي. فما أن حل إدريس بن عبد الله بقبيلة أوربة على شيخها إسحاق بن عبد الحميد حتى "أظهر له المولى إدريس أمره وعرفه نفسه، فوافقه في حاله"¹⁶³. وليس أدل على مدى انتشار المذهب الشيعي الزيدي بقبائل أوربة البرنسية، من إقدام هارون الرشيد على توكيل مهمة اغتيال إدريس بن عبد الله "إلى سليمان بن جرير الجزيري، وكان رجلا من ربيعة متكلمًا، ممن يرى رأي الزيدية، متعصبا لآل أبي طالب... وكانت له إمامة في الزيدية"¹⁶⁴. وأثناء

¹⁶¹ نفسه، 169.

¹⁶² السوسي، الت. السنية في احداث الدولة لابن عيسى، تدمر 1954، 47، فعلا عن الأمانة، 41.

¹⁶³ الأمانس المغرب، 19.

¹⁶⁴ كتاب الاستبصار، 195.

مفامه بأوربة "كان سليمان يجلس في مجالس البربر، ويظهر الدعاء إلى ولد رسول الله صلعم، ويحتج لأهل البيت كاحتجاجه بالعراق"¹⁶⁵. وقد كان أحد الدارسين¹⁶⁶ دقيق الملاحظة في وصف ما حدث بأنه احتواء فكريا للتشيع الزيدي من قبل الاعتزال، وفي نفس الوقت احتواء سياسيا للاعتزال من قبل التشيع الزيدي.

حقيقة أن ثمة إجماع بين الدارسين على ربط انتشار التشيع الزيدي وادخول العلويين بلاد المغرب فيما زعموا¹⁶⁷، بمعركة فخ وبلجوء إدريس بن عبد الله إلى قبيلة أوربة، ونزوله بحاضرة وليلي سنة 172 للهجرة (788 م). إلا أن في التحليل السابق ما ينم عن وجود بصمات خلفتها الدعوة العلوية الزيدية بالمغرب الأقصى، منذ ما ينيف عن ثلاثة عقود سابقة عن قيام دولة الأدارسة. ولعل في إقدام أحد الدارسين¹⁶⁸ على ربط اندماج الحركتين الاعتزالية الواصلية والزيدية العلوية في دعوة واحدة، وتأريخ ذلك بقيام الدولة العباسية، وانفصال حركة محمد النفس الزكية عنها، ما يدعو إلى البحث عن أصول التشيع الزيدي بالمغرب الأقصى، في ارتباط مع سريان حركة الاعتزال بأقاليمه.

وعلى عكس ما اندرج عليه الدارسون في تسفيه رواية ابن أبي زرع بهذا الخصوص، كل المؤشرات تدل على صحة ما ذكره عن ظهور التشيع الزيدي ببلاد المغرب أثناء إمامة محمد النفس الزكية، في خلافة أبي جعفر المنصور. حدث ذلك خلال الفترة الممتدة بين سنة 136 و 145 للهجرة، الموافق لسنوات 753 و 762 للميلاد. نص ذلك أن محمد النفس الزكية قد بعث أخاه

¹⁶⁵ الروض المعطار، 610.
¹⁶⁶ محمود إسماعيل، الأدارسة، 55.
¹⁶⁷ نفس المصدر والصفحة.
¹⁶⁸ الأدارسة، 28.

عيسى إلى إفريقية، فأجابه بها خلق كثير من قبائل البربر¹⁶⁹. ونتوفر على رواية أخرى لا تقل أهمية في الكشف عن دخول "داود بن القاسم بن إسحق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب... إلى المغرب" الأقصى، على إثر مقتل محمد النفس الزكية، في خلافة أبي جعفر المنصور. وبينما ذهب البعض إلى القول خطأ بأنه هو "الذي أفلت من وقعة فخ، وهرب إلى المغرب... [فالصواب] أنه إنما فر حين خرج أخواه على المنصور¹⁷⁰ سنة 145 هجرية (762م). نجدنا إذا بصدد الكشف عن القرائن التاريخية الدالة عن أسماء أوائل آل البيت، ممن دخل المغرب الأقصى واستقر بأوربة، قبل ما ينيف عن ربع قرن من وصول إدريس بن عبد الله، في رحلته الشهيرة من فخ إلى ذات المكان. مصداق ذلك ما ذكر عن استقرار "ذرية داود هذا بفاس وبنو إدريس يناكحونهم، وانصراف داود إلى المشرق"¹⁷¹ بعدئذ.

وفي نفس السياق تشير رواية ابن أبي زرع إلى انتهاء طواف سليمان بن عبد الله بعد مقتل محمد النفس الزكية في "تلمسان من بلاد المغرب فنزلها واستوطنها"¹⁷² ودعا فيها لإمام الوقت الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وهو ما أكده البكري¹⁷³ اعتمادا على رواية عيسى بن جنون الحسني الذي ذكر "أن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن دخل المغرب أيضا ونزل بتلمسان". وتفصح المصادر التاريخية عن كثرة من تأصل من آل البيت من أعقاب سليمان بن عبد الله بتلمسان وأحوازها. نذكر منهم على سبيل المثال "محمد بن سليمان بن عبد الله"¹⁷⁴ و "عبد الله الترناي بن إدريس بن محمد

¹⁶⁹ الأنيس المطرب، 15.

¹⁷⁰ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 122.

¹⁷¹ نفس المصدر والصفحة

¹⁷² الأنيس المطرب، 16.

¹⁷³ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 122.

¹⁷⁴ الروض المعطار، 135.

بن سليمان بن عبد الله¹⁷⁵. ومهما يكن من أمر، فبإعلان إمامة إدريس بن عبد الله بوليلي سنة 172 هجرية (788م)، بلغ التشيع الزيدي غاية المنى بالمغرب الأقصى. بعد حوالي نصف قرن من البيعة بالخلافة الصفورية لميسرة المطغري. وعلى إثر ذلك، تمكن إدريس بن عبد الله من تبوؤ مرتبة الإمامة لدى فريق من الشيعة الزيدية، حسبما يتضح من إشارات المؤرخين لمن كان يقول "من الزيدية بن الإمام بعد محمد بن عبد الله، أخوه إدريس الذي فر إلى المغرب"¹⁷⁶.

وإلى جانب التشيع الزيدي، ثمة إشارات فائقة الأهمية عن بعض البصمات الدالة عما خلفه التشيع الإمامي¹⁷⁷ والروافض الغلاة من آثار، منذ عهد مبكر في ثنايا الفكر المغربي. نذكر من ذلك فكرة 'غيبة الإمام إلى آخر الزمان'¹⁷⁸ التي برزت لدى أهل بلاد تامسنا في إمارة صالح بن طريف حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة، وفكرة المهدي المنتظر الذي يظهر في آخر الزمان ويملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. ومن المعلوم أن بعض من نسب لفرقة الجارودية¹⁷⁹ من الشيعة الزيدية، والإمامية من الشيعة الرافضة، والغلاة من السبائية والكيسانية¹⁸⁰، يجمعون على القول بعدم موت أئمتهم وأنهم أحياء يرزقون وسيظهرون في آخر الزمان لملء الأرض عدلاً كما ملئت جوراً¹⁸¹. وهي ذات الفكرة التي نسبت لصالح بن طريف الذي تخلى عن ملكه لابنه

¹⁷⁵ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 80.

¹⁷⁶ مقدمة ابن خلدون، ج 2، 535.

¹⁷⁷ ويجتمع الشيعة الإمامية والإسماعيلية في القول بإمامة جعفر الصادق. ويختص الإمامية الإثنا عشرية بالقول عن نزع الإمامة بعده في موسى الكاظم وعرفوا بالإمامية لحملهم أمور الدين كلها للإمام وأنه كالنبي. وسموا رافضة لرفضهم زيد بن علي، وقيل لتركهم نصرة محمد النفس الزكية. واجمعوا أن النص من علي وأن أكثر الصحابة ارتدوا، وأن الإمام معصوم وتظهر عليه المعجرات، ويعلم جميع ما تحتاج إليه الأمة، ولا يجوز أخذ شيء من الدين إلا عنه.

¹⁷⁸ مقدمة ابن خلدون، ج 2، 535.

¹⁷⁹ نسبة إلى أبي الحارود زياد بن منذر العبدي "وينسب إلى بعضهم القول بالغيبة" المنية والأمل، 20.

¹⁸⁰ "والروافض السبائية أصحاب عبد الله بن سبا زعموا أن علياً إله فتعاه إلى المدائن، ورغم أصحابه أن علي في السحاب وأن الرعد صوته والبرق صوته" المنية والأمل، 29. أما الكيسانية أصحاب كيسان فقد زعموا أن "جعفر بن محمد حي لم يموت ولا يموت حتى يملك الأرض وأنه مهدي نفسه"، 31.

¹⁸¹ لمزيد من التفصيل بهذا الخصوص، راجع: كتاب الفصل، ج 5، 35-36.

وخرج "إلى المشرق وواعد أنه ينصرف إليهم في دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال، وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه ويصلي خلفه، وأنه يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً"¹⁸².

ونميل إلى الاعتقاد بتسرب هذا الصنف من التشيع إلى بلاد تامسنا عن طريق الاحتكاك بدعاة ينتمون إلى إحدى فرقتي الروافض الإمامية. ويتعلق الأمر بـ "الفرقة التي تدعى الممطورة [وتزعم] أن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حي لم يموت ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً"¹⁸³. ولا يستبعد أن يكون ذلك قد تم على يد فرقة "الناوسية" أصحاب بن ناووس المصري [التي تزعم] مثل ذلك في أبيه جعفر بن محمد"¹⁸⁴. بمعنى أن ظهور هذا الصنف من المعتقدات بالمغرب الأقصى قد تم خلال الفترة الممتدة من وفاة جعفر الصادق سنة 148 هجرية (765م) إلى تاريخ وفاة موسى الكاظم سنة 183 هجرية (799م). وهو ما يوافق فترة حكم صالح بن طريف ببلاد تامسنا.

ولا تعوزنا القرائن الدالة على استمرار تدفق بعض تيارات الشيعة الروافض على أطراف المغرب الأقصى، خلال القرون اللاحقة. نخص منها بالذكر إحدى فرق الروافض الكيسانية التي تسمى البجلية نسبة إلى الحسن بن علي بن ورصند البجلي، أصله من مدينة نفطة من عمل إفريقية. فقد ذكر ابن حزم أن متكلميهم هذا قصد "إلى السوس في أقاصي بلاد المصامدة فأضلهم وأضل أمير السوس أحمد بن إدريس بن يحيى بن إدريس بن إدريس بن عبد

¹⁸² المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

¹⁸³ كتاب الفصل، ج 5، 36.

¹⁸⁴ عن المصدر والصلحة والناوسية يسوقون الإمامة إلى أبي جعفر محمد بن علي، وأن أبا جعفر نص على إمامة جعفر بن محمد بن علي جعفر بن محمد بن علي لم يموت. انظر: كتاب الفصل، ج 5، 36. 'والناوسية ممنسوبون إلى أبي ناووس رئيس لهم، زعموا أن جعفر بن محمد حي لم يموت ولا يموت حتى يملك الأرض وأنه المهدي' المسبب والامل، 31.

الله بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب. فهم هناك كثير سكان في
ربض مدينة السوس معلنون بكفرهم. وصلاتهم خلاف صلاة المسلمين، لا
يأكلون شيئا من الثمار ذبل أصله. ويقولون إن الإمامة في ولد الحسن دون ولد
الحسين¹⁸⁵.

أما التشيع الإسماعيلي فمن المتداول أن ظهوره ببلاد المغرب يرتبط
بالدعاة الأوائل الذين بعثهم محمد الحبيب من مقر إقامته بسلمية في أرض
حمص بالشام قصد نشر المذهب ببلاد كتامة من عمل إفريقية. ويرجع الفضل
في انتشار أصوله لأبي عبد الله الشيعي الذي نزل بقبائل كتامة سنة 280
للهجرة (893م). ومن المعلوم أن عبيد الله المهدي¹⁸⁶ قد اضطر إلى الاستخفاء
لفترة بسجلماسة بالمغرب الأقصى، حيث لم يعد أنصارا وأتباعا بين
سكانها¹⁸⁷ على حد تعبير بعض الدارسين. لم يتوقف التشيع الإسماعيلي عند حد
التأثير المذهبي في بعض سكر سجلماسة، بل سرعان ما هب الداعية أبي عبد
الله الشيعي في حملته المشهورة من أجل افتكاك عبيد الله المهدي الذي وقع في
الأسر بسجلماسة. أسفر ذلك عن إسقاط إمارة بني مدار ومقتل أميرهم اليسع بن
مدرار وإحراق حاضرة سجلماسة، فضمت جملة أعمالها بالمغرب الأقصى إلى
نفوذ الخلافة الفاطمية التي تم إعلانها برقادة سنة 297 هجرية (909م).

ومنذ ذلك الحين، لم يتوقف التهديد الإسماعيلي عن اختراق المغرب
الأقصى مذهبيا وعسكريا، فيما عرف في الدراسات المعاصرة بالصراع
الأموي الفاطمي للهيمنة على المغرب الأقصى. ومن المفيد الانتباه إلى دور
إمارة بني صالح في بلاد نكور التي وقفت بحزم منقطع النظر في مواجهة
موجات التشيع الإسماعيلي المدفقة في حملات متتالية أسفرت في أكثر من

¹⁸⁵ كتاب الفصل، ج 5، 41.
¹⁸⁶ لمزيد من التفصيل عن عبيد الله المهدي انظر ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيدتهم، تحقيق الداهسي، ص 56.
¹⁸⁷ الخوارج في بلاد المغرب، 211.

مناسبة عن احتلال نكور والتقدم منها إلى حاضرة فاس التي وقعت بدورها في شباكههم. وهو ما تناولناه ببعض التفصيل في دراسة سابقة¹⁸⁸.

وقد تناقلت المصادر التاريخية بعض المقتطفات من الرسائل المتبادلة بين الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي وأمير بني صالح في نكور سعيد بن صالح يدعوهُ إلى "الدخول في طاعته والتدين بإمامته"¹⁸⁹. ولا تخفى نبرة التهديد والوعيد التي ميزت الخطاب الشيعي العبيدي الموجه لأهل نكور. يتضح ذلك من خلال مقتطفات شعرية موجهة لأميرهم من طرف الخليفة عبيد الله المهدي، إذ خاطبهم متوعداً:

فإن تستقيموا نستقم لصلاحكم وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلاً
وأعلوا بسيفي قاهراً لسيوفكم وأدخلها عفواً وأملؤها قتلاً¹⁹⁰
وبرغم التفاوت في الحجم والقوة والجبروت، لم يذخر أهل نكور وسعاً في مواجهة المد الشيعي الإسماعيلي الذي غدا يهدد مهد أهل السنة والجماعة بالمغرب الأقصى، حيث ترعرع مذهب السلف في الاستقامة والاعتدال. يتجلى ذلك من خلال أبيات شعرية من نظم شاعر بلاط نكور، وجهت في رسالة جوابية للخليفة الفاطمي برقادة، لا تخفي معالم القدح في التشيع العبيدي، إذ خوطب بالقول:

"كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا ولا علم الرحمن من قولك الفصل
وما أنت إلا جاهل ومنافق تمثل للجهال في السنة المناسلي
وهمتاً العليا لدين محمد وقد جعل الرحمن همتك السفلى"¹⁹¹
تجدنا إذاً أمام فصل من فصول الصراع المذهبي والعسكري بين مذهب أهل الاستقامة والاعتدال بالسنة والجماعة بالمغرب الأقصى والتشيع الإسماعيلي

¹⁸⁸ ضمن فصل منفرد بعنوان: "التدخل الأموي الفاطمي في نكور وانقراض الامارة". لمرة في صالح. 73-99.

¹⁸⁹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 94، البيان المغرب، ج 1، 178.

¹⁹⁰ البيان المغرب، ج 1، 178.

¹⁹¹ الحلة السيرة، ج 1، 194.

المتدافع من إفريقية. وعلى عكس ما ذهب إليه عموم الدارسين من تأكيد تجرد
عد الرحى الناصر المتأهب لإعلان الخلافة بقرطبة لدعم مجهود صاحب
نكور فى هذه المواجهة، فقد تبين لنا فى دراسة سابقة¹⁹² بما لا يدع مجالاً للشك
تطافىر جهود كلا الخلافتين فى إنلاف إمارة نكور. ولا غرو، فقد تصدى أهل
نكور طوال عقود لمطامع الطرفين المتكالبين على ضم المغرب الأقصى بالقوة،
رغبة فى إدراجه ضمن إحدى الدعوتين المعلنتين: الشيعة الإسماعيلية برقادة
أو الأموية بقرطبة. وبسقوط إمارة بني صالح بنكور وتعاقب فصول الخراب
العمرائى بمجمل بلاد الريف، على يد الفاطميين والأمويين على السواء، انفتحت
أبواب المغرب الأقصى أمام التيارات الفكرية المتدفقة طورا من رقادة والمهدية
ونارة من قرطبة، وفيما بعد من القاهرة، فى موجات متدفقة أسفرت عن تفكيك
النسيج الفكرى والمذهبي الذى ساد البلاد طوال القرون الثلاث الماضية.

خامسا - المذهب البرغواطى

من الطبيعى فى ظل الاجتثاث الذى تعرضت له فصول واسعة من
تاريخ المغرب الأقصى، والطمس الذى تعرضت له معظم مصادره الأصلية،
أن يسود حلقاته غطاء سميك من الغموض والاضطراب. وغنى عن البيان أن
الجمهور الأعظم من المؤرخين المغاربة ما زالوا يراوحون مكانهم متخططين
منذ القرن الماضى فى إعادة ترويح جملة القضايا المطروحة فى حينها من لدن
رواد المدرسة الفرنسية. وما زالت الهمم متكاسلة عن نفى مخلفات التبعية
الثقافية، للأخذ برمام المبادرة والغوص فى متون المصادر المتاحة، أملا فى
إعادة ترميم حلقات تاريخ البلد المحرومة.

¹⁹² مرهسى صليح، 73 99

وبصرف النظر عما كتب منذ بدايات القرن العشرين عن عقائد برغواطة¹⁹³، فثمة إشارات مفيدة وردت في سياق جملة من الدراسات التي تناولت تاريخ المغرب. ويرجع الفضل لأحد رواد المجددين¹⁹⁴ الذي عمد خلال السبعينات من القرن الماضي إلى تكسير الحلقة المفرغة التي ظلت طوال العصرين الوسيط والحديث وإلى اليوم تردد عبارات التكفير في حق البرغواطيين من أهل المغرب، وتغالي في سبهم ولعنهم والتشهير بفساد معتقداتهم. وقد تجرد عندئذ لهيكله اللبانات المصدريّة ومراجعة المناهج التقليديّة ونقد تصورات المدارس الأجنبية. وقد تمّ بذلك فتح الطريق لكتابة تاريخ برغواطة وفق قواعد البحث المتعارفة التي تهدف إلى معرفة ما حدث، وليس بالركون إلى أنساق الاحتجاج الكلامي برغبة قبول أو طرد أهل تامسنا من ملة الإسلام.

وقد كان للعمل المذكور أبرز الأثر في إعادة انتباه المؤرخين إلى غموض هذه الحقبة، واتساع الفجوات المجهولة في تاريخ المغرب الأقصى. إلا أنهم آثروا الالتفاف على نفس القضايا المطروحة في شكل ردود فعل ملونة بألوان مختلفة. منها ما ظل أسير الثنائية التي تقابل بين الكفر والإيمان، من موقف دفاع مفترض عن الإسلام تنتهي بالتأكيد أن "برغواطة دولة خارجة عن الإسلام"¹⁹⁵. ومنها ما أقر بعد استعراض ومناقشة المعلومات المتداولة أن "الديانة البرغواطية لا يمكن البت بأصولها بشكل حاسم"¹⁹⁶. بينما التمس بعضهم البريق لمقاله من خلال إعادة صياغة ذات الأفكار المتداولة باستعمال

¹⁹³ G. Marcy, "Les Dieux des Abâdites et des Barguâta", *Hesperis*, T. XXII, fasc. I, Paris, 1936.

¹⁹⁴ محمود إسماعيل، حقيقة المسألة البرغواطية، اصواء جديدة، ضمن معريبات، 15-56

¹⁹⁵ ومعال سحر عند العربي سالم، من جديد حول برغواطة فراطة، اسكندرية، 1993.

¹⁹⁶ راجع عمل ابن هيم حلف العبيدي، البرغواطيون في المغرب، منشورات الجامعة، الدار البيضاء، 1983.

مفردات مقتبسة من قاموس مفرس أجوف المحتويات، من قبيل "المثاقفة
ولنزعة الوطنية"¹⁹⁷.

وفي تقديرنا أن الشروع في اقتناص الشذرات المتناثرة فيما يند عن
الحصر من المصادر المتاحة، والنقاط الدرر المبتوثة في المتون المختلفة، كفيل
بتوفير مفاتيح إضافية من أجل استكمال هذا الجزء المبتور من تاريخ المغرب
الأقصى. وقد أشرنا في مناسبات سابقة إلى قيمة منهج التنقيب التوثيقي المقرون
بالقراءات الواسعة في مختلف أصناف التأليف في إعادة ترميم الفصول المنسية
من تاريخ المغرب. إلا أن الإمساك بالخيوط الموجهة للبحث في تاريخ القرون
الهجرية الأولى يتطلب فضلا عن ذلك فتح أوراش متعددة فيما ظل إلى الآن من
المواضيع البكر المستعصية. لذا لا يسعنا في هذا المقام إلا التجرد للنش عن
العناصر التي قد تفيد في إعادة تركيب أصول أحد أقدم روافد الفكر المغربي
الوسيط.

لا يخالجننا شك في دور فكر الخوارج الصفرية في صياغة المذهب
البرغواطي. وقد سلف ذكر مكانة طريف بن شمعون بن يعقوب بن إسحق
باعتباره أحد أوائل مقدمي الصفرية ممن أخذ قواعد المذهب على يد عكرمة
البربري. كما لا يخفى دوره في إنجاز إحدى أكبر ثوراتهم التي أفضت إلى
إعلان الخلافة الصفرية ببلاد المغرب. وقد أشار ابن خلدون¹⁹⁸ إلى أن "طريف
أبو صبيح كان من قواد ميسرة الحقير المطغري القائم بدعوة الصفرية". كما
أكد أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن واريذن البرغواطي ذات الحقيقة،
إذ "أخبر أن طريفا أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحق وأنه كان
من أصحاب ميسرة المطغري"¹⁹⁹.

¹⁹⁷ محمد الطالبي، البرغواطيون في المغرب، الدار البيضاء، 1998، 7

¹⁹⁸ كتاب المير، ج 6، 276

¹⁹⁹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135

والراجح أن طريف بن شمعون قد ظل مستمسكا بالمذهب الصفري، بعدما "قتل ميسرة وافترق أصحابه واحتل ببلد تامسنا"²⁰⁰ حيث نصب أميراً. واستناداً على أصول الصفرية "شرع لهم ما شرع ومات بعد مدة"²⁰¹. وبرغم ثبات انحيازه للمذهب الصفري، لم يكن ذلك ليشكك في صفاء عقيدته لدى الخصوم، الذين أقروا بأنه "كان على ديانة الإسلام"²⁰². ونميل إلى الاعتقاد أن إمارة تامسنا الصفرية لم تكن معروفة خلال هذه الفترة المبكرة باسم برغواطة، وهو المصطلح الذي أطلق عليها لاحقاً. ما كان لخلفه ووريث ملكه صالح بن طريف إلا أن يغرف من ذات المعين المذهبي. ولا غرو، فقد احتك منذ نعومة أظفاره بكبار مشايخ ورؤوس الصفرية "وحضر مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير"²⁰³. وعندما تولى زمام الأمور ببلاد تامسنا حوالي سنة 127 هجرية (744م) "أقام فيهم على الشرع الذي شرعه أبوه طريف"²⁰⁴.

وبرغم استمساك صالح بن طريف بالمذهب الصفري خلال الفترة الأولى من حكمه، يبدو أنه قد مال إلى النهل من منابع الغلاة من تيارات الشيعة، في سياق التحولات المذهبية التي هبت بقوة على مشرق دار الإسلام ومغربه، إثر قيام الخلافة العباسية. وهو التحول الفكري والمذهبي الذي نرجح حدوثه بعد وفاة جعفر الصادق سنة 148 وقبل انصراف صالح بن طريف إلى المشرق سنة 174 (790م). وقد سلفت الإشارة إلى ارتباط ذلك بمؤثرات فرقتي الناووسية والممطورة، إلى ما عدا ذلك من فرق الشيعة الغلاة. وليس أدل على انسياقه مع مزاعم الشيعة من قوله بالغيبة والرجعة، فقد "خرج صالح إلى المشرق ووعد أنه ينصرف إليهم في دولة السابع من ملوكهم"²⁰⁵. وهو ما

²⁰⁰ نفس المصدر والصفحة.

²⁰¹ البيان المغرب، ج 1، 57.

²⁰² المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

²⁰³ نفس المصدر والصفحة.

²⁰⁴ البيان المغرب، ج 1، 57.

²⁰⁵ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

تُعرف عنه ابن حزم⁽¹⁰⁾ بوصف صحيح الباب الذي حصه لشيع الشيعه بالقول:
 ويكره برعوايته إلى اليوم يستلزمون صالح بن طريف الذي شرع لهم دينهم .
 وفي سائر حديثه عن الشيعة الروافض، اعتبر أحد مؤرخي⁽¹¹⁾ الفرق أن "أديانهم
 كبر، المستلزمون لإمام بظهره وليس لهم معالم دينهم". كما لا تخفى الأصول
 شيعة لفكره المهدوي المنتظر الذي أحد بها أبصا صالح بن طريف وروحها
 بين قومه، كما سلف الذكر .

وقد تناولت المصادر المتداولة دعوى صالح بن طريف في أهل تامةنا
 أن تسأفهم وسرع لهم الديانة التي هم عليها إلى اليوم، وادعى أنه نزل عليهم
 فرائضهم الذي نفوعونه إلى اليوم. قال زمور وهو صالح المؤمنين الذي ذكره عز
 وجل⁽¹²⁾. وهو ما أشار إليه ابن حوقل⁽¹³⁾ أيضا بالقول: أنه 'كان بربري الأصل
 معربي المولد مضطلعا بلغة البربر يفهم غير لسان من ألسنتهم، فدعاهم إلى
 اللسان به وذكر أنه نبي ورسول مبعوث إليهم بلغتهم، واحتج بقول الله تعالى
 وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، وأن محمدا صلى الله عليه نبي حق
 عربي اللسان مبعوث إلى قومه وإلى العرب خاصة، وأنه صادق فيما أتى به
 من القرآن والأحكام، وإياه أراد الله عز وجل بقوله وصالح المؤمنين والملائكة
 بعد ذلك ظهير . وبالمثل، فقد ذكر ابن الخطيب⁽¹⁴⁾ كيف "تسمى صالح بصالح
 المؤمنين ورعى أنه المشار إليه في القرآن وشرع لهم الديانة . وقد شاع لدى
 مصفى أهل المغرب، اجتماع حملته من قبائل المغرب على "صالح بن طريف
 القائم بتامةنا حين ادعى النبوة"⁽¹⁵⁾.

١٠ المصدر: ١٨٠٦٠
 ١١ المنا والجمال: ٥١
 ١٢ المصدر: ١٨٠٦٠
 ١٣ سورة الأعراس: ٨٢
 ١٤ أصل الأعلام: ١٨٢
 ١٥ الألبس المطرب: ١١٠

وهو ما تواتر في كتابات أهل الأندلس الذين أشاروا إلى صالح بن طريف "الذي تنبأ ببرغواطة، فاتبعوه على دينه"²¹².

والجدير بالذكر أن كتب الملل والنحل والأهواء الإسلامية تنسب هذا الانحراف العقائدي إلى "الغالية من الشيعة [التي] أوجبت النبوة بعد رسول الله (صلعم) لغيره"²¹³. وقد أطببت في ذكر الفرق التي قالت "بنبوة علي وبنيه الثلاثة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية"²¹⁴، وفي تعداد من كان "يدعي النبوة لنفسه"²¹⁵، معتبرة ذلك من شنع الشيعة. إلا أن ثمة دلائل على انزلاق إحدى فرق الخوارج أيضا في نفس المنحى. وهو ما كشف عنه عبد القاهر البغدادي بالقول: لا نعلم "من ادعى نبيا بعد محمد صلى الله عليه وسلم غير اليزيدية من الخوارج"²¹⁶. وقد لخص أحد مؤرخي الفرق مقالة الخوارج اليزيدية بالقول: أن يزيد بن أبي أنيسة "زعم أيضا أن الله تعالى سيبعث رسولا من العجم، وينزل كتابا من السماء جملة واحدة، وينسخ به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم"²¹⁷. لذلك أجمع مؤرخي الفرق على القول أن اليزيدية ليست من فرق الإسلام.

لا يستبعد أن يكون صالح بن طريف قد احتك بهذه الأفكار والتوجهات المغالية لدى الشيعة والخوارج. إلا أنه من المفيد الانتباه أيضا إلى مغالاة الفرق المخالفة في مهاجمة الخصوم عن طريق تحوير مقالاتهم بقصد تسهيل نسبهم إلى الكفر. ونتوفر بهذا الخصوص على أمثلة ساطعة. نذكر من ذلك أن أهل الأندلس كانوا ينسبون إلى إسماعيل بن عبد الله الرعيني "القول باكتساب النبوة،

²¹² جمهرة أنساب العرب، 500-501.

²¹³ كتب الفصل، ج 5، 42.

²¹⁴ نفسه، ج 5، 43.

²¹⁵ نفس المصدر والصفحة.

²¹⁶ الملل والنحل، 56 ويصنف اليزيدية من ضمن فرق الخوارج، وهم أتباع يزيد بن أبي أنيسة وكان من البصرة ثم انتقل إلى جور من أرض فارس.

²¹⁷ الملل والنحل، 78. لمزيد من التفصيل عن هذه العرفه انظر كتاب الفصل، ج 5، 51.

وأن من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس أدرك النبوة²¹⁸. وهو ما ينطبق على صالح بن طريف الذي اشتهر بأنه "كان من أهل العلم والفضل"²¹⁹.

والراجح أن المقصود بالنبوة في هذا السياق الإرجاف، بقوة البصيرة أو بصفاء النفس، بحدوث أمور، فإذا حصلت اعتبر ذلك من باب التنبؤ بالمستقبل. ولا غرو، فقد اشتهر إسماعيل بن عبد الله الرعيني المتهم بالتنبؤ "بأنه كان ينذر بأشياء قبل أن تكون فتكون"²²⁰. وبالمثل فقد كان صالح بن طريف متنبئاً في قومه بهذا المعنى، إذ "وعدهم غير كسوف فوجدوه، وأنذرهم غير شيء فأدركوه"²²¹. على غرار، اشتهر رابع أئمتهم يونس بن إلياس بن صالح بن طريف بنبوته، إذ كان "يخبرهم بأشياء قبل كونها ما تدل عليه النجوم عندهم فتكون على ما يقول أو قريباً منه"²²². ومن جهة أخرى، فمن المتعارف عليه لدى مؤرخي الفرق أن كثير من الشيعة لم يتورعوا عن تشبيه أئمتهم بالنبي، مثل "الإمامية، سميت بذلك لجعلها أمور الدين كلها للإمام، وأنه كالنبي"²²³. وثمة إشارة دالة على أن تنبؤ ملوك تامسنا لا يعدو أن يكون بهذا المفهوم إذ ثبت "أنهم يقدمون مع الإقرار بالنبیین، الإقرار بنبوة صالح بن طريف ونبوة من تولى الأمر بعده من ولده"²²⁴ باعتبارهم أئمة موكولة إليهم أمور الدين.

إلا أن ثمة عامل آخر لم يكن أقل تأثيراً في تأليب عموم أهل القلم من مختلف الفرق ضد مذهب صالح بن طريف. ويتعلق الأمر بما نسج من روايات حول "قرآن" برغواطة المزعوم. فقد ذكر البكري أن صالح بن طريف 'ادعى

²¹⁸ كتاب الفصل، ج 5، 67.

²¹⁹ المغرب في ذكر بلاد المغرب، 135.

²²⁰ نفس المصدر والصفحة.

²²¹ صورة الأرض، 82.

²²² المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 138.

²²³ المسبب والأمل، 21.

²²⁴ ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 138.

أنه نزل عليه قرآنهم الذي يقرأونه إلى اليوم²²⁵. وهو ما أشار إليه ابن حوقل²²⁶ بالقول: "وعمل لهم كلاما رتله بلغتهم". وقد ورد في أكثر من مصدر أن عدد سور "قرآنهم" الذي وضع لهم صالح بن طريف ثمانون سورة، أكثرها منسوبة إلى أسماء النبيين²²⁷.

ويتضح من خلال بعض الشذرات التي تناقلها الرواة أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد ترجمة للقرآن باللسان البربري²²⁸. نذكر منها على سبيل المثال قوله: مقر ياكش²²⁹ ومعناه: الله أكبر، و إيجن ياكش ومعناه: الله أحد، و وردام ياكش ومعناه الله الصمد. من الطبيعي أن يقر صالح بن طريف "أن الكلام الذي ألف لهم وحى من الله تعالى"²³⁰ باعتبار أن دوره اقتصر على ترجمته إلى لسان قومه ممن لم يكن قد تعرب، حتى يقرب كلام الله لأفهامهم. ومن الطبيعي أيضا أن تنتفض همم العرب ممن لا يفقه لسان أهل البلد ضد هذا المتن المكتوب في أول ترجمة معروفة للقرآن في التاريخ باللغة المغربية، ويكفروا من ينسب هذا الكلام إلى الله تعالى.

مع ذلك، لم يكن أهل تامسنا ليعتبروا الترجمة البربرية الجزئية لثمانين سورة من القرآن بديلا عن القرآن الأصل. مصداق ذلك ما رواه ابن حوقل²³¹ بالقول: "وفيهما الآن من يقرأ القرآن بغاية الاحترام ويحفظ منه السور ويتأول آياته، على موافقته لكتابهم وقرآنهم". ولعل في ذلك ما يكشف عن استمرار علمائهم في مقابلة المتن: الأصلي والمترجم باللسان البربري، ودأب

²²⁵ نفسه، 135.

²²⁶ صورة الأرض، 82.

²²⁷ نفسه، 140، راجع التفاصيل أيضا في: الأنيس المطرب، 131.

²²⁸ وهو الرأي الذي ذهب إليه محمود إسماعيل. مغربيات، 53.

²²⁹ لمزيد من التفاصيل عما كان شأنه لدى عموم الدارسين منذ النصف الأول من القرن الماضي عن ياكوش اله البربر راجع: Autor anónimo, "Yakuch, Dios Bereber", *Diario de Africa*, el 5 de Agosto de 1949, pp. 123-25.

²³⁰ نفسه، 138.

²³¹ صورة الأرض، 83.

حفظهم على تفسير وتأويل بعض الآيات. ويحتفظ البكري وغيره ببعض
 الشذرات، التي نميل إلى اعتبارها من ضمن هذه التفاسير، إذ لا تتطابق تمام
 الانطباق مع منطوق ومضمون الآيات القرآنية. والجدير بالذكر أن صالح بن
 طريف لم تكن تعوزه القدرات العلمية ولا الأدوات اللسانية لإنجاز هذا
 المشروع. وباعتباره سيدا في قومه، وسليل أب ملوك برغواطة وشيخ صفرية
 تامسنا، فقد أتيح له حفظ القرآن وضبط ما تداوله كبار رؤوس الصفرية
 ومشايخهم بالمغرب الأقصى من روايات وأحاديث عن الفقيه الشهير "ابن
 عباس"²³². ناهيك عما قد يكون تلفاه من تعاليم، واحتك به من مقالات الخوارج
 الصفرية وطرقهم الاحتجاجية ومناهجهم الكلامية. كما تميز بقدرته على
 المقارنة بين الأديان من خلال حفظه للتوراة، إذ كان يتكلم "كلما كثيرا نسبه
 إلى موسى الكليم"²³³.

ومن الطبيعي أن يكون 'مضطلعا بلغة البربر يفهم غير لسان من
 أسنتهم'²³⁴. لم تقتصر معارفه اللغوية على ضبط تشعبات لسان قومه
 الأمازيغي، بل تجاوزته إلى التحكم في ألسنة عصره "العربي والسرياني
 والأعجمي والعبراني"²³⁵. ولا يستبعد أن يكون صالح بن طريف قد أخذ اللسان
 العبراني بالمغرب عن أبحار ومصنفات اليهود الموروثة عن العهد السابق
 للإسلام. أما اللسان الأعجمي فالغالب على الظن أنه قد تمرس به أثناء ترعرعه
 بكورة شذونة من بلاد الأندلس. ولم يذخر صالح بن طريف وسعا في ضبط
 لسان العرب والتمرس على الكتابة بالرسم العربي، حتى اشتهر لدى معاصريه
 من أهل القلم أنه "كان له خط حسن وفهم بأطراف من العلم"²³⁶.

²³² المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

²³³ نفسه، 135.

²³⁴ سورة الأرض، 82.

²³⁵ المغرب في ذكر بلاد المغرب، 136.

²³⁶ سورة الأرض، 82.

ونميل إلى الاعتقاد أنه قد تعلم اللسان السرياني أثناء مقامه ببلاد الشام والعراق، حيث جلس لـ "طلب علم النجوم والكهانة والجان"²³⁷ وقراءة أمهات المصادر الموروثة عن الحضارات القديمة. ولم يذخر صالح بن طريف وسعا في استيعاب مقالات المعتزلة والمتكلمين وغيرهم من أرباب الفرق، ونظر في الكلام والجدال وأخذ ذلك عن غيلان²³⁸ الدمشقي. ولعل في هذا ما يكشف عن المؤثرات الاعتزالية في فكر صالح بن طريف، خصوصا ما يتعلق منها بفهم القرآن وتفسير آياته وتأويل مقتضياته. وثمة إشارة لدى ابن حوقل دالة على نسبة تلك الرحلة المشرقية لصالح بن طريف، وعلى الغاية العلمية منها، إذ قال: أن "صالح بن عبد الله دخل العراق ودرس شيئا من النجوم وصلحت منزلته في علمها، إلى أن قوم الكواكب وعمل التقاويم والمواليد وأصاب في أكثر أحكامه"²³⁹. وليس أدل على مكانة الفكر الاعتزالي في الأنساق النظرية التي صاغها صالح بن طريف ضمن مذهب البرغواطي من دأب بعض المصادر العربية على نعتة "بالقديري صالح بن طريف البرغواطي"²⁴⁰. نجدنا إذا أمام أحد أقطاب الفكر والعلم والثقافة بالمغرب الأقصى، ممن استبحر في علوم عصره وتفتح على ثقافات الأمم وحضاراتها وألسنتها، وعلى الأصول القديمة

²³⁷ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137. نولق رأي الدارسين الذين كشفوا عن خلط الرواة بين صالح بن طريف ويونس بن الليث فيما يتعلق بهذه الرحلة المشرقية، مغربيات، 25. أما فيما يخص الأصول الموروثة عن الحضارات القديمة الكسدانية والنبطية وغيرها مما كتب باللسان السرياني في علم النجوم والسحر والطلسمات، راجع مصامير المؤلف الصخم الذي وضعه أبو بكر أحمد بن علي بن فيس الكسداني المشهور بابن وحشية، كتاب الفلاح، تحقيق توفيق مهد، (3 أجزاء) دمشق، 1993، 1995، 1998. وقد خصصنا للتعريف بالمؤلف وصاحبه وأصول النقل القديمة مقالا، انظر: أحمد الطاهري، ابن وحشية، موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس (تحت الطبع) ولمزيد من المعلومات عن الإرث القديم في مجال الطلسمات والنجوم المتداولة بالعرب الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري، راجع: أحمد الطاهري، المساح الحصارى بالمغرب والأندلس وتقدم تقنيات ومناهج العلوم التجريبية، ضمن مفهوم التقدم في العلم، بتسيق سالم يفوت، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 2004.

²³⁸ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137-138.

²³⁹ صورة الأرض، 82. ومن الملاحظ أن ابن حوقل نسبته كذلك باسم صالح بن عبد الله بدل صالح بن طريف ولا يستبعد أن يبعث طريف بن شمعون وهو اب الملوك باسم عبد الله، اعتنارا لبلاده في الدين ببلاد نامسا وقد أصول المذهب الصغري.

²⁴⁰ فروض المعطار، 435.

والديانات السماوية، جامعا بين ثقافة الغرب والشرق وعلوم الدين والدنيا، بما يجعله متميزا عن معاصريه من أهل القلم.

ونميل إلى ترجيح الرواية التي تؤكد منطلق الرحلة المشرقية لصالح بن طريف من كورة شذونة الأندلسية، ومن وادي برباط على وجه التأكيد. وليس في ذلك ما يشكك في أصله البربري المغربي، ولا في بنوته لطريف بن شمعون. وقد قدمنا في دراسات سابقة²⁴¹ من الحجج ما ينم عن امتدادات قبائل مسمودة المغربية في كورة شذونة الأندلسية بالذات، منذ الفترة السابقة للإسلام. وهو العامل الأساس الذي كان وراء إقدام طارق بن زياد على اختيار طريف بن شمعون لقيادة أول سرية استكشافية للأندلس قبل الشروع في فتحها. كما برهنا في أعمال سابقة على دور الأقلام الأموية المأجورة والروايات المغرضة في طمس الحقائق المتعلقة بشخص طريف، بإيعاز من موسى بن نصير الذي هرب إلى الأندلس فدخلها فارسا بدون ساحة قتال.

وبرغم ما ذكرناه عن سريان المؤثرات الشيعية في مذهب صالح بن طريف، إلا أنه ظل مستمسكا بأصول سلفه من الخوارج الصفرية، ولم يتردد عن بثها في الأعقاب. وهي الأصول الخارجية التي سبق أن تناولها أحد الدارسين²⁴² في دراسة رائدة بما يكفي من التفصيل. نخص من ذلك بالذكر ما ورد عن إكثارهم من العبادة والسجود وقيام الليل، حسبما هو معروف عن الخوارج. فقد كان أهل تامسنا يصلون خمس صلوات في اليوم وخمس صلوات في الليلة²⁴³، فضلا عما كان في برغواطة [من] أمانة وبذل للطعام وتجنب للكبر من الحرام والمحظورات من الآثام²⁴⁴. ناهيك عن أشهر من ملوكهم

²⁴¹ A. Talon, *El Rif en el Magrib y al-Andalus durante los primeros siglos del Islam* (ss. VIII-IX), Fundación El Legado Andalusi, Granada (en prensa).

²⁴² معربات، 50-53.

²⁴³ المغرب في ذكر بلاد المغرب والمغرب، 138.

²⁴⁴ صورة الأرض، 82.

بكونه سخيًا ضريفًا يفي بالعهد ويحفظ الجار²⁴⁶. كما اشتهروا بكونهم أشداء في
 بقية الحور. فليقتل السارق بالإقرار والبيئة ويرجم في الزنا عندهم وينفي
 الكذب ويسمونه المغير²⁴⁷. ورغم ما ذكرناه من تطورات مذهبية، ليس أدل
 على مدى رسوخ تآليل الخوارج الصفيرية لدى أهل تامسنا من كون "الحوت لا
 يؤكل إلا أن يذكي"²⁴⁸. وقد كشف ابن حزم²⁴⁹ في نص دال عن سريان هذا
 التقيد لدى بعض فرق "الخوارج ... [ممن] يحرمون أكل السمك حتى ينبح".
 وقد أفصح أحد الشعراء المغاربة يدعى سعيد بن هشام المصمودي عن استمرار
 الإزت الصفري لدى البرغواطين. كما كشف عما طرأ على معتقداتهم من
 تصور مذهبي ضمن قصيدة نظمها بمناسبة وقعة بهت التي خاضها رابع ملوكهم
 يونس بن إلياس ضد المخالفين. وقد ذكرهم ضمن قصيدته بأصولهم المذهبية إذ
 قال: فليس اليوم ردتكم ولاكن ليالي كنتم مستيسرينا. يعني بقوله مستيسرين:
 من المياسرة أصحاب ميسرة²⁴⁹.

إلا أن المذهب البرغواطي وإن ظل وفيًا لجزء من مبادئ الخوارج
 الصفيرية، فقد تعرض لتحولات جوهرية مست جملة من قضايا الفكر والسياسة
 والأحكام. وهو التغير الذي أشارت إليه المصادر بالقول: "فأفسد عقولهم وبذل
 معارفهم"²⁵⁰. ونظرا لشيوع مذهب الخوارج الصفيرية لدى عامة أهل تامسنا من
 قبائل مصمودة، وخوفا من ردود فعلهم ضدا على التحول المذهبي المستحدث،
 فقد أثر صالح بن طريف التريث في إشاعته والنقية في أمره. وهو ما نصت
 عنه رواية أبي صالح زمور بن موسى بن واردة بن البرغواطي بقوله: "وعهد

²⁴⁶ نمر - في بحر بلاد إفريقية والمغرب، 127

²⁴⁷ نمر - في بحر بلاد إفريقية والمغرب، 139

²⁴⁸ نمر - نصير ونصحة ومر مغلو، الحوت في لسان عامة أهل المغرب والإسكندرية هو السمك

²⁴⁹ كتاب نصير، ج 5، 51-52

²⁵⁰ نمر - نمر، ج 1، 226

²⁵¹ صورة الأرض، 82

صالح إلى ابنه إلياس بديانته وعلمه شرائعه وفقهه في دينه، وأمره ألا يظهر ذلك إلا إذا قوي أمره وأمن، فإنه يدعو إلى ملته ويفتل حينئذ من خالفه"²⁵¹.

ولم يكن حلفه إلياس بن صالح ليتجراً على إظهار مخالفة المذهب الصفري وإشاعة المعتقدات الجديدة في عامة أهل البلد، وأثر هو الآخر "كتم الشريعة التي عهد إليه أبوه خوفاً وثقية"²⁵². وهو ما أكدته الروايات المتداولة بالقول: فلما "تولى إلياس الأمر بعد خروج أبيه [طل] يظهر ديانة الإسلام ويسر الذي عهد إليه به أبوه خوفاً وثقية"²⁵³. بمعنى أن إمارة تامسنا قد ظلت منذ قيامها على يد طريف بن شمعون وطوال فترة حكم ابنه صالح بن طريف إلى حين وفاة ثالث ملوكهم إلياس بن صالح تظهر المذهب الخارجي الصفري وتضمّر التوجهات المذهبية الجديدة.

وهو الوضع الذي انتهى مع ولاية يونس بن إلياس الذي جهر بالأمر "فاظهر دينهم ودعا إلى كفرهم وقتل من لم يدخل في أمره"²⁵⁴. وتقصح المصادر التاريخية عن استمساك قبائل تامسني بالأصول الصفرية "واستلحام أهلها بالسيف لمخالفتهم"²⁵⁵ التوجهات المذهبية المعلنة ليونس بن إلياس. فما كان إلا أن "حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه"²⁵⁶. ولا تعوز القرائن الدالة على احتدام الصراع المذهبي بين عامة أهل البلد المستمسكين بأصول مذهب الخوارج الصفرية وبين جيش الإمارة وأجهزة الدولة بقيادة الأمير يونس بن إلياس الذي نسب إليه "إحراق ثلاثمائة وثمانين مدينة"²⁵⁷. وثمة إحصاءات تحدد عدد الرؤوس التي حصدها سيوف يونس بن إلياس من أهل تامسنا خاصة

²⁵¹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

²⁵² كتاب الاستبصار، 108.

²⁵³ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

²⁵⁴ كتاب المغرب، ج ١، 277.

²⁵⁵ نفس المصدر، الصفحة.

²⁵⁶ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

²⁵⁷ كتاب المغرب، ج ١، 277.

في "سبعة آلاف وسبعة مائة وسبعين قتيلا"²⁵⁸. وبمجرد إحكام قبضته على البلاد وكنم أنفاس المخالفين من قبائل تامسنا المصمودية، عمد الأمير يونس بن إلياس إلى نشر مذهبه بالسيف في القبائل المجاورة فـ "قتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وغد"²⁵⁹. وقد بلغ ارتباط المذهب البرغواطي بيونس بن إلياس، الذي يرجع إليه الفضل في إعلانه ونشر أصوله وفرضه على الخاصة والعامة، أن النبس الأمر على بعض المصادر التاريخية، فخلطت بينه وبين جده صالح بن طريف مؤسس المذهب. ومنذ ذلك الحين أصبح المذهب المعروف باسم المذهب البرغواطي هو المذهب الرسمي المعلن في إمارة برغواطة ببلاد تامسنا بالمغرب الأقصى.

وهو المذهب التي ترسخ على يد خلفه أبي غفير محمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف الذي توطد له أمر البلاد "بدين أبائه واشتدت شوكته وعظم أمره"²⁶⁰. ولما تولى بعده الأمر ابنه أبو الأنصار عبد الله بن محمد "فاقتفى سننه"²⁶¹ ووسع دائرة نفوذ مذهبه. على غرار، سار خلفه أبو منصور عيسى بن عبد الله "فسار سير أبائه"²⁶² وأخذ بنهجهم ودان بديانتهم واشتدت شوكته وعظم سلطانه"²⁶³. وقد ظل أهل تامسنا مستمسكين بالمذهب البرغواطي "يتداولون هذه الديانة إلى غزو عبد الله بن ياسين الجزولي لهم"²⁶⁴. وبقيام دولة المرابطين خفت صوت المذهب البرغواطي لدى أهل تامسنا فتحولوا عنه بالسيف إلى مذهب أهل السنة والجماعة "واسلموا إسلاما جديدا"²⁶⁵.

²⁵⁸ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

²⁵⁹ نفس المصدر والصفحة.

²⁶⁰ كتاب العبر، ج 6، 277.

²⁶¹ نفس المصدر والصفحة.

²⁶² نفس المصدر والصفحة.

²⁶³ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

²⁶⁴ كتاب الإستبصار، 198.

²⁶⁵ أعمال الأعلام، 187.

وفضلاً عن المؤثرات الشيعية، لا تخفى بصمات الاعتزال الواصلي في المذهب البرغواطي. ومن المفيد الإشارة بهذا الخصوص إلى الصحبة التي كانت لصالح بن طريف مع زيد بن سنان الزناتي صاحب الواصلية²⁶⁶ بالمغرب الأقصى، والجدير بالذكر أن واضع أصول المذهب البرغواطي قد تتلمذ على أقطاب الاعتزال بالمشرق "ونظر في الكلام والجدال وأخذ ذلك عن غيلان"²⁶⁷ الدمشقي. وهو ما أكدته بعض المصادر التي نصت على أن "صالح بن طريف كان رحل إلى المشرق وقرأ على غيلان القدري"²⁶⁸. كما تواترت الإشارات المصدريّة مفصّحة عن اهتمام صالح بن طريف بتلقي أصول الاعتزال على مشايحه فـ 'رحل إلى المشرق فقرأ على عبيد الله المعتزلي القدري'²⁶⁹. وبخيل إلينا أن مقالات المعتزلة الأوائل في الخلق وقضايا الوجود والقدم وتأويلاتهم للقرآن، كان لها أبلغ الأثر في إقدام صالح بن طريف على ترجمة ثمانين سورة من سوره إلى لسان قومه من البربر الأمازيغ.

وبالإضافة للإعتزال الواصلي والتشيع الإمامي، لا تعوز القرائن الدالة على تأثر المذهب البرغواطي بالزهد والتصوف. ولعل في إقدام صالح بن منصور على تسمية ولي عهده والإمام بعده باسم إلياس تيمنا، ما يؤشر على ذلك. ومن المعلوم أن "بعض نوكي الصوفية زعموا أن الخضر وإلياس عليهما السلام حيان إلى اليوم"²⁷⁰. ولا تخفى التوجهات الصوفية وقيم الزهد التي أخذ بها الإمام إلياس بن صالح، الذي اشتهر لدى الموالين والمخالفين على السواء أنه "كان طاهراً عفيفاً لم يلتبس بشيء من الدنيا إلى أن هلك"²⁷¹. وهي ذات

²⁶⁶ للمغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

²⁶⁷ نفسه، 137-38.

²⁶⁸ كتاب الإستثمار، 197.

²⁶⁹ عمال الأعلام، 182؛ الألبس المطرب، 130.

²⁷⁰ كتاب الفصل، ج 5، 37.

²⁷¹ للمغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

أوصاف شتى تؤثرها رواية الأحبار النير أكدوا أن صالح بن طريف كان صمًا عفيفًا رها²⁷². كما شاع لدى عموم أهل المغرب الأقصى ما كان عليه من أخلاق الزهد والورع²⁷³.

ويسوّل الرهد والتصوف قد انتقل من مجرد مؤثرات إضافية في المذهب السرعوصي، ليندرج في مستوى أعمق ويصبح أصلا من أصوله الفكرية. وهو التطور المذهبي الذي تحقق على يد ثالث أئمة برغواطة إلياس بن صالح بن ضريف (172-222 هجرية). مصداق ذلك ما نسب إلى هذا الإمام من إصدت وتعيرات في مذهب سلفه "قزاد في رسمه أشياء ذكر أن له فيها تربية" والعصر والحر والعقد فيما قدمه صالح لهم من الأحوال²⁷⁴. وليس أدل على صحة هذا الاعتقاد مما قيل عن دور إلياس في إعادة صياغة المذهب السرعوصي لدى من آمنوا فدعاهم إلى السك وترك الدنيا والإقبال على النفل والرهد²⁷⁵.

يختصر إلى أن المذهب الرعواطي المغربي النشأة الأمازيغي اللسان،
سم صوته تفكيره وقواعد الطريقة من مشارب شتى، تجمع بين فكر
خوارج بصرية، ومعتقدات الشيعة من الروافض الإمامية، وتعاليم الفدرية
ومعركة نويسية، ومبادئ الزهد والصوفة، واعتمادا على هذه الأصول
مبسوغة إلى حد لا يقصر، أمكن تصالح بين طريف وللائمة الرعواطيين بعده
من صبيحة مذهب إسلامي متميز عن كافة ما هو معروف من المذاهب
الإسلامية ونظر في مختلف المذاهب الفكرية والكلامية المسترفية المنشأ،
وخصوصا لأعمده تنسب لأمازيغي، ما يفسر انفصالها من طرف كافة

١١١
 ١٢١
 ١٣١
 ١٤١
 ١٥١
 ١٦١
 ١٧١
 ١٨١
 ١٩١
 ٢٠١
 ٢١١
 ٢٢١
 ٢٣١
 ٢٤١
 ٢٥١
 ٢٦١
 ٢٧١
 ٢٨١
 ٢٩١
 ٣٠١
 ٣١١
 ٣٢١
 ٣٣١
 ٣٤١
 ٣٥١
 ٣٦١
 ٣٧١
 ٣٨١
 ٣٩١
 ٤٠١
 ٤١١
 ٤٢١
 ٤٣١
 ٤٤١
 ٤٥١
 ٤٦١
 ٤٧١
 ٤٨١
 ٤٩١
 ٥٠١
 ٥١١
 ٥٢١
 ٥٣١
 ٥٤١
 ٥٥١
 ٥٦١
 ٥٧١
 ٥٨١
 ٥٩١
 ٦٠١
 ٦١١
 ٦٢١
 ٦٣١
 ٦٤١
 ٦٥١
 ٦٦١
 ٦٧١
 ٦٨١
 ٦٩١
 ٧٠١
 ٧١١
 ٧٢١
 ٧٣١
 ٧٤١
 ٧٥١
 ٧٦١
 ٧٧١
 ٧٨١
 ٧٩١
 ٨٠١
 ٨١١
 ٨٢١
 ٨٣١
 ٨٤١
 ٨٥١
 ٨٦١
 ٨٧١
 ٨٨١
 ٨٩١
 ٩٠١
 ٩١١
 ٩٢١
 ٩٣١
 ٩٤١
 ٩٥١
 ٩٦١
 ٩٧١
 ٩٨١
 ٩٩١
 ١٠٠١

مؤرخي الفرق الإسلامية، فضربوا صفحا عن ذكرها مقتصرين على كيل النهم لها بالكفر والزندقة والخروج عن الملة.

حقيقة أن المذهب البرعواطي قد ارتبط في نشأته وتطوره بمملكة بني طريف المصمودية في بلاد تامسنا. إلا أن تعاليمه سرعان ما انتشرت لدى جملة من القبائل والجهات بالمغرب الأقصى. وتتوفر بهذا الخصوص على لوائح مفصلة للبطون القبلية المغربية التي اعتنقت المذهب البرعواطي. نذكر منها على سبيل المثال: 'حراوة وزواغة والبرانس ومجكسة وبنو واعمر ومطغرة وبنو دمر ومطمطة وزنائة الجبل وبنو يفرن'²⁷⁶. وهو ما عبر عنه بعض المؤرخين بالقول: أن "برعواطة قبائل كثيرة وليس لهم أب واحد"²⁷⁷. وقد أشر إلى ذلك ابن خلدون²⁷⁸ أيضا كاشف على أن برعواطة كان "لهم في صدر الإسلام التقدم والكثرة وكانوا شعوبا كثيرة مفترقين".

واضح أن لفظ برعواطة يحيل على مذهب وأفكار ومعتقدات، وليس له أي أصل قبلي يرتبط بأنساب البربر. وهي المعتقدات التي اعتنقتها بادئ ذي بدء قبائل تامسنا المصمودية، وانتشرت بعدئذ لدى غيرها من البطون القبلية. ولا يعدو قول ابن حوقل²⁷⁹ أن برعواطة قبيل من قبائل البربر أن يكون خطأ في التقدير، ناتجا عن التطابق الذي دأب المؤرخون على نسجه بين أهل تامسنا كقبائل ومعتقداتهم البرعواطية كفكار. ويتحلى هذا التطابق بين العمق القبلي والمعنى المذهبي لدى علماء اللسان أيضا. فقد ورد لدى ابن هشام اللخمي²⁸⁰ أن العامة "يقولون لهذه القبيلة برعواطة والصواب بلعواطة بلام مفتوحة وإسكان الغين والنسب إليها بلعواطي". وهو الخطأ الذي كان وراء الالتباس الذي وقع

²⁷⁶ راجع لمزيد من التفصيل - المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 140-41؛ كتاب العبر، ج 6، 278.

²⁷⁷ الأنيس المطرب، 130.

²⁷⁸ كتاب العبر، ج 6، 276.

²⁷⁹ صورة الأرض، 82.

²⁸⁰ المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان، تحقيق خوسيه بيريث لاثرو، مدريد 1990، م 2، 190.

فيه عموم الدارسين²⁸¹ بخصوص أصل برغواطة، فخلطوا معيار النسب بمعايير الانتماء المذهبي. فما كان للتحاليل النظرية التي قدموها بهذا الشأن إلا أن انسأقت مع إشكالية مفتعلة أضفت مزيداً من الغموض على موضوع شائك، مما تجدنا في غنى عنه. أما عن اشتقاق مصطلح برغواطة الذي وسم به المذهب الذي أصله صالح بن طريف ببلاد تامسنا، ونسبت إليه كافة قبائل المغرب الأقصى التي اتبعت مفاآله فيعود — كما هو متواتر في المصادر المعتمدة — إلى قرية برباط الواقعة بكورة شذونة من الأندلس. وهو ما سنتأوله بما يستحق من توضيح ضمن الفصل الثالث من هذا الكتاب.

ومن أبرز المجموعات القبلية التي سارت في ركاب المذهب البرغواطي، نذكر بني واغمر — حسب اللسان المحلي — أو غمارة، كما هو متداول في كتب التاريخ والأنساب. وهي المجموعة القبلية التي تجتمع مع قبائل تامسنا في نفس النسب المصمودي. ويتجلى انخراطها في المذهب البرغواطي من خلال تحليل مضامين ما تواترت المصادر التاريخية عن حركة أبو محمد حاميم بن من الله بن حريز بن عمرو بن وجفوال بن وزروال بن مكسة الغماري. وقد أعلن إمامته بجبل حاميم على مقربة من مدينة تطاوين، وشملت دعوته كافة بطون مكسة ونواحي وادي راس ووادي لاو وغيرها من القبائل المجاورة. تم ذلك سنة 313 هجرية (925 م) "ودخل في دينه خلق كثير من غمارة"²⁸². وعلى غرار ملوك برغواطة، فقد نعت بكونه "تنبأ بذلك الصقع"²⁸³ واتهم بالكفر والزندقة والخروج عن الملة.

ولا تعوزنا الدلائل الكاشفة عن أخذ حاميم بأصول المذهب البرغواطي وتنصيب نفسه إماماً في المذهب لدى عامة أهل بلده. فما كان إلا أن "اجتمع إليه

²⁸¹ نظر على سبيل المثال: البرغواطيون في المغرب، 6-18 المغرب في العصر الإسلامي، 4-5.

²⁸² الأنيس المطرب، 98.

²⁸³ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100.

كثير منهم وأقروا بنبوته وشرع لهم الشرائع والديانات من العبادات والأحكام²⁸⁴، على حد تعبير المخالفين لمذهبه. وليس أدل على صحة الاعتقاد بأن حركة حاميم تمثل امتدادا للمذهب البرغواطي في بلاد غمارة، مما تواترت المصادر التاريخية عن كونه قد "وضع لهم قرآنا بلسانهم"²⁸⁵ الأمازيغي المصمودي اللكنة. والعالب على الظن أن الأمر يتعلق بنفس المتن المترجم إلى اللسان البربري على يد صالح بن طريف البرغواطي. وهو ما أشارت إليه بعض الروايات بالقول: "وصنع لهم قرآنا كان يتلوه عليهم بلسانه"²⁸⁶. ويبدو أن التطابق كان تاما بين المذهب البرغواطي وحركة حاميم. فبالإضافة لما نسبوا إليه من تنبؤ وافتراء، فقد اشتهر باهتمامه بالفلك "وعلم استجلاب روحانية ما يشاؤون من الكواكب"²⁸⁷. بل وحتى فيما يتعلق بالتفاصيل يتجلى التطابق التام، إذ أن حاميم قد "حرم عليهم الحوت حتى يذكى"²⁸⁸، حسبما كان شائعا لدى عموم أهل مملكة برغواطة ببلاد تامسنا. لذا لا يسعنا إلا الإقرار بأن حركة حاميم تندرج شكلا ومضمونا ضمن المذهب البرغواطي.

لم يقتصر دور المذهب البرغواطي على صياغة مكونات النسيج المذهبي والكلامي بالمغرب الأقصى، بل سرعان ما تألفت تعاليمه في الضفة الأندلسية المجاورة، حيث أصبح له شأن منذ نهايات القرن الثالث الهجري. ويتعلق الأمر بالحركة المسرية²⁸⁹ التي رسخها بجمال قرطبة وبكافة نواحي الأندلس عبد الله بن مسرة الجبلي. ونميل إلى الاعتقاد بأن المدرسة المسرية مثل حركة حاميم، شكلت امتدادا لأندلسيا للمذهب البرغواطي. ولا غرو فمن

²⁸⁴ كتاب العبر، ج 6، 288.

²⁸⁵ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100.

²⁸⁶ كتاب العبر، ج 6، 288.

²⁸⁷ نفس المصدر والصفحة.

²⁸⁸ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100.

²⁸⁹ وهي المدرسة التي خصها أحد الدارسين الإسبان ببحث رائد سبق أن تناولنا محتوياته بما يستحق من قراءة وتقييم
A. Palacios, *Ibn Massarra y su escuela (=Ibn Massarra y su escuela)*, obras recogidas, Madrid, 1946

خلال إمعان النظر في أمهات المصادر المغربية الأندلسية، انتهينا في دراسات سابقة²⁹⁰ إلى الإقرار بأن الحركة المسرية قد عمدت إلى الجمع بين عقلانية وبرهانية الاعتزال وثورية التشيع وشعبية التصوف لصياغة مذهب جديد. ولم نكن حينئذ قد انتبهنا إلى الأصول المغربية الأمازيغية للمدرسة المسرية، ممثلة في المذهب البرغواطي.

هكذا نتضح في خيوط باهتة معالم إحدى أبرز المذاهب الفكرية المغربية التي تظل بحاجة إلى نظائر جهود المؤرخين والمفكرين لانتشال معالمها، بعيدا عن المهاترات الكلامية العقيمة التي ظلت أسيرة ثنائية مغلقة قاصرة على قياس درجات الكفر والإيمان. ولعل في كشف امتدادات المذهب البرغواطي في قبائل غمارة على يد إمامهم حاميم، ولدى أهل الأندلس في شخص أئمتهم محمد بن عبد الله بن مسرة وإسماعيل الرعيني، ولدى غيرهم من المتهمين بالتنبؤ والافتراء مثل عاصم بن جميل اليزدجومي، ما يوفر إمكانيات هامة للانتقال بمعارفنا التاريخية عن أصول الفكر الكلامي المغربي إلى مستويات أرقى.

صفوة القول أنه ليس من قبيل الصدفة أن تتأصل ببلاد المغرب وبلاد نكور بالذات أقدم مدرسة لأهل السنة والجماعة، قبل حوالي قرن من الزمن على ظهور مذهب مالك بن أنس، ممثلة فيمن عرف حينئذ بأهل الاستقامة والاعتداء. وبالمقابل، ليس مصادفة أن يتمكن المغاربة من صياغة قواعد مذهب متميز عن كافة المذاهب المعروفة لدى مؤرخي الفرق، ممثلا في المذهب البرغواطي الإسلامي الأصول. وإذا كان في انتشار فكر الخوارج الصفرية والإباضية وتعاليم الاعتزال الواصلي وتيارات التشيع الزيدي والإمامي والإسماعيلي، ما يفصح عن متانة الروابط الثقافية والفكرية بين المشرق

²⁹⁰ لمزيد من التفصيل عن الحركة المسرية راجع: العامة والاتجاهات الفكرية 45 - 154 راجع كذلك عامه قرطبة في عصر الخلافة، 195-198.

والمغرب في ظل دار الإسلام، فمن شأن مبادرة بني صالح بنكور في وضع
قواعد مغربية مبكرة لأهل السنة والجماعة، وإقدام أهل تامسنا على صياغة
معالم المذهب البرغواطي المخالف، ما يكشف عن روح المبادرة في صياغة
أسس ومعاليم الفكر والثقافة والكلام انطلاقاً من الجناح الغربي لدار الإسلام. لعل
في هذا التحليل ما يدعو إلى ترميم هذه الحلقة المطموسة من تاريخ الفكر
المغربي وإعادة تركيبها ضمن السياق العام لتاريخ الفكر بدار الإسلام.

الفصل الثالث

إمارة بني طريف البرغواطية

ببلاد تامسنا

"أحضر زمور أن طريفا أنا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحق
وكان من أصحاب مبسره المطعري وكان على دينه الإسلام
النكري، المغرب في سكر بلاد المغرب والمغرب، 135



يمتد تاريخ مملكة برغواطة منذ تأسيسها على يد أب ملوكهم، طريف بن عبد الله من أبناء شمعون بن يعقوب بن إسحاق سنة 122 هجرية (739 م)، إلى حين سقوطها على يد المرابطين سنة 452 هجرية (1060م)، على مدار حوالي ثلاثة قرون وربع من الزمن. ورغم دورها المتعاضد في صياغة تاريخ المغرب الأقصى، خلال قرون عز العطاء الحضاري المتألقة، لم تحظ بما تستحقه من اهتمام المدارس التاريخية قديما وحديثا¹. فبينما يجمع قدامى أهل القلم من كافة الملل على كيل التهم للمملكة البرغواطية وأهلها بالمروق والزندقة والكفر، لم يتوان معظم الدارسين العرب المحدثين عن السير على وقع مقالاتهم، مرددين ذات العبارات الموجهة أصلا للنيل من عقائدهم لا لمعرفة تاريخهم.

مع ذلك، يبدو أن القدامى رغم تحاملهم المذهبي، كانوا أكثر إنصافا واهتماما بتاريخ هذه المملكة المغربية العريقة. يتجلى ذلك من خلال ما أفردوه من مصنفات في أخبار برغواطة، قد الت جملة إلى الضياع. مصداق ذلك، ما ورد على لسان أحد المهتمين بمفاخر البربر في إشارة توجيهية لـ "من أراد الوقوف على أخبار برغواطة فليرجع إلى الكتب المصنفة في أخبارهم"² مما يطول ذكره. ولم يكن قدامى المؤرخين ليشتكوا من شح المادة التاريخية المتعلقة بأخبار وعقائد برغواطة التي كانت متاحة و"معروفة في كتب المؤرخين"³. ونظرا لما دأب عليه قدامى أهل القلم — على وجه العموم — من فصل قناعاتهم المذهبية عن المعرفة التاريخية، لم يتردد بعض مؤرخي السنة عن الاهتمام بأخبار برغواطة، وإن من زاوية نظر متحاملة. لذلك ليس من قبيل المفاجأة أن يتجرد أحدهم لوضع مصنف في "أخبار برغواطة مستوفاة في كتاب كبير"⁴.

¹ قد لفتني بعض الدارسين منذ بداية القرن الماضي إلى أهمية المملكة البرغواطة وأفردوا لها بعض المقالات
نحصر منها بالذكر: N Slouch, "L'empire des Bergouata et les origines des blades siba",

Revue du Monde Musulman, T. X, N° 3, 1910, p. 396-97

² مفاخر البربر، 186.

³ المعبر، ج 6، 276.

⁴ الأنيس المطرب، 131.

وهو المصنف الموسوم "بأزهار البستان في أخبار الزمان وذكر الموجود مما وقع في الوجود"⁵.

ومن المعلوم أن البكري وابن عذاري وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم ممن استقصينا مصنفاتهم ضمن هذا العمل، يحتفظون بنقول وشذرات من تاريخ برغواطة مستقاة من مصادرها الأصلية التي غدت في حكم المفقود. وتصادفنا عشرات الننف عن تاريخ برغواطة وعقائدهم مبنوثة في المتون القديمة، ومئات الاشارات العرضية المتناثرة. ومن المعلوم أن الجزء الأوفر من المصادر المغربية الأندلسية الموضوعية فيما يند عن الحصر من أصناف التأليف، ما زالت بكرا قد أتت عليها الرطوبة والأرضة في أقبية خزائن الكتب. مما يجرد المؤرخين المغاربة المحدثين من كل مصداقية لدى ترديد الشكوى من شح المادة المصدرية مع جمهرة المشتكين، قبل استنفاد القراءة في كافة المتون المتاحة، وبالأحرى الاطلاع على مضامين ما لم يفهرس بعد من المجاميع المخطوطة.

واضح أن المحدثين كانوا أكثر نقاعسا عن إعادة ترميم هذا الخرم الواسع في تاريخ المغرب الأقصى. وباستثناء المقالات الرائدة⁶ في هذا الشأن، ظل تاريخ مملكة برغواطة يراوح مكانه مرددا في بضع صفحات نفس المادة التاريخية المتداولة. بينما أثر البعض ممن يأنف الاجتهاد في معاركة الأصول، الإيهام بالتجديد من خلال تحاليل انطباعية كان لها الأثر السيء في إثارة الغبار على موضوع شائك. ونسعى من خلال المنهج الذي تبنيناه منذ حوالي ربع قرن مضى من البحث في تاريخ المغرب والأندلس، إعادة ترميم الفصول المخرومة من تاريخ مملكة برغواطة. وقد أمكننا لم جملة من مفاصله في هذا العمل،

⁵ الأنييس المطرب، 131.

⁶ لخص منها بالذكر بحث محمود إسماعيل عبد الرزاق الذي كان له أنفع الأثر في إعادة انظر في الموضوع، من خلال إجراء دراسة نقدية متكاملة في المصادر التاريخية الأصلية، بالنظر إلى موقع مملكة برغواطة في سياق تاريخ المغرب.

ينتابنا الأمل في جمهور الباحثين الشباب في تاريخ المغرب، لمتابعة النشر في
المطالعة الأصلية عن المعارف التاريخية، علنا نتمكن بتظافر الجهود من انتشال
فصول من تاريخ البلد من غياهب النسيان.

أولاً: بلاد تامسنا وأهلها، المصطلح والأصول

لا نعوزنا الإشارات المتواترة في المعاجم الجغرافية والمصادر
التاريخية إلى "إقليم تامسنا من بلاد المغرب"⁷. ولا يخفى الأصل الأمازيغي
البربري للفظ، المؤنث الصيغة بإثبات التاء عند الاستهلال /تا/. ونميل إلى
الاعتقاد بارتباط المصطلح في لسان أهل البلد بالبحر المحيط. فقد ذكر أحد
الجغرافيين "بحيرة كبيرة تسمى أمسنا"⁸. ويتعلق الأمر بنفس المصطلح مذكر
الصيغة بإثبات الألف عند الاستهلال /أ/. من ثم يمكن التماس دلالة اللفظ
بالتذكير والتأنيث أي أمسنا وتامسنا بالإحالة على مقابلهما العربي أي البحيرة
والبحر. والجدير بالذكر أننا قد عمدنا في دراسة سابقة⁹ إلى ضبط دلالات لفظ
مماثل ورد في المصادر العربية بلسان أهل المغرب الأمازيغ. ويتعلق الأمر
لفظ تامسامان، الذي يحيل — حسبما انتهينا إليه — على الأرض الساحلية
القريبة من الماء. ولا تخفى مكانة الماء في صياغة الحذر اللغوي لمصطلح
/تامسنا/، علماً بأن أحد أغزر الأتھار المغربية المعروف اليوم بأمر الربيع ظل
موسوماً في لسان أهل البلد باسم "تھر ماسنات"¹⁰. ومن المعلوم أن حرف السين
الذي يشكل الجذر اللغوي لأسماء الأماكن الجغرافية المغربية من قبيل: أمسنا
وتامسنا وتامسامان وماسنات، يحيل على الماء في لسان أهل البلد الأمازيغ. وما
زال أهل المغرب إلى اليوم ينطقون عبارة /سو/ في الأمر بمعنى: اشرب،

⁷ فروض المعطار، 129.

⁸ فروض المعطار، 141.

⁹ الربيع: المصطلح والعمران، 12.

¹⁰ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 141.

وعبارة /إس/ في المضارع بمعنى: يشرب. نجدنا إذا أمام مصطلحات مغربية أصيلة صيغت منذ أقدم العصور بلسان أهل البلاد، تحتاج مثل غيرها من المصطلحات المتداولة في الأصول المصدرية العربية إلى ضبط دلالاتها، من خلال الحفريات الوثائقية في النصوص المتاحة، واستكشاف البصمات العالقة بذاكرة أهل البلد الطيبين الذين ظلوا مستمسكين بالأصول.

والجدير بالملاحظة أن حدود بلاد تامسنا قد تقلصت بشكل ملحوظ طوال القرون المتأخرة، حتى كادت تختفي من المعجم الجغرافي المغربي. فقد ذكر أحدهم أن "أهل تامسنا يدعون اليوم بالشاوية ومواطنهم من سلا إلى أزمو¹¹". وبالمثل تناولت بعض المصادر الجغرافية المتأخرة¹² تامسنا باعتبارها مجرد إقليم تابع لفاس ينضبط بين مجري نهر أبي رقراق وأم الربيع طول ثمانين ميلا، وبين جبال الأطلس وساحل البحر المحيط، عرض ستين ميلا. بينما يمتد الإقليم حسب بعض الحوليات المغربية المتأخرة نحو الجنوب إلى حيز مدينة آسفي. وقد أشار إلى ذلك أحد الرواة، بالقول: "وتامسنا من بلاد المغرب الأقصى على ساحل البحر المحيط فيما بين سلا وآسفي"¹³. وهو نفس التحديد الذي أخذ به ابن خلدون الذي يضبط الموطن "في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط من سلا وأزمو¹⁴ وأنفا وآسفي"¹⁴. على غرار هدد البكري¹⁵ امتداد بلاد تامسنا على طول البحر المحيط من "مرسى آسفي إلى البيضاء وهو رأس جبل داخل في البحر ثم إلى جزيرة فضالة وهو ساحل بلد تامسنا".

ونميل إلى الاعتقاد أن بلاد تامسنا كانت تشمل خلال القرون الهجرية الأولى كافة المناطق الواقعة بين "نهر أسمير"¹⁶ المعروف أيضا بنهر سلا إلى

¹¹ الحل التنسية، 506

¹² الحسن الورال، وصف تريبيا (وصف تريبيا)، ترجمه محمد حجي ومحمد الاحصر، بيروت 1983، 194

¹³ الاستمب، ج 1، 114

¹⁴ كتب العبر، ج 6، 276

¹⁵ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 87

¹⁶ برهة المشتق، م 1، 239

غاية جبل أدرن¹⁷ المعروف اليوم بالأطلس الكبير. مصداق ذلك ما ورد على لسان أحد رواة الأخبار بالقول: "وإذا جرت سلا وأخذت إلى ناحية الجنوب تركت مغرب الشمس يمنة وأخذت منها قافلا إلى القبلة، فتسمى تلك البلاد بلاد تامسنا، ويقال لها أيضا بلاد السوس الأدنى وحدها إلى جبل درن"¹⁸. وقد حدد الواقدي¹⁹ المسافة الفاصلة بين الحدين للراكب من "السوس الأدنى وبينه وبين السوس الأقصى نيف وعشرون يوما"، كما سلف الذكر. والراجح أن بلاد سبلماسة حيث مضارب قبائل مكناسة، وبلاد أوربة حيث مواطن البرانس وبلاد فازاز، المنضوية جميعا ضمن حدود السوس الأدنى سرعان ما تبلورت في شكل مجالات تاريخية وجغرافية متميزة خارج نطاق بلاد تامسنا.

ولا يخالجنّا شك في تأصل أهل بلاد تامسنا منذ أقدم العصور في النسب المصمودي. مصداق ذلك ما ورد من روايات تعود إلى عصر الفتوحات الإسلامية تؤكد أن "بلاد تامسنا هي بلاد المصامدة"²⁰. وهو ما ضبطه ابن خلدون بالنص على أن "برغواطة من بطون المصامدة"²¹ الذين تشعبوا في ثلاث مجموعات قبلية كبرى متجاورة على طول ساحل البحر المحيط، من بحر المجاز إلى تخوم بلاد صنهاجة اللثام بالصحراء. ويتعلق الأمر بـ "برغواطة وغمارة وأهل جبل درن، ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الأحقاب المتطاولة"²². أما ما قيل عن اختلاط أنسابهم وما ذهب إليه "بعض الناس في نسب برغواطة في قبائل زناتة [مما] ذكره صاحب كتاب الجواهر وغيره من النسابين البربر فهو من الأغاليط البينة، وليس القوم من زناتة"²³.

¹⁷ والمقصود بأدرن في اللسان المغربي الأمازيغي شجرة البلوط.

¹⁸ البيان المغرب، ج 1، ص 5.

¹⁹ انظر: فتوح البلدان، ص 232.

²⁰ البيان المغرب، ج 1، ص 26.

²¹ كتاب العبر، ج 6، ص 276.

²² نفسه، ج 6، ص 275.

²³ نفسه، ج 6، ص 280.

و الراجح أن اضطراب الأنساب ناتج عما حدث بالمنطقة خلال القرن
الهجري الخامس إثر اختراق قبائل مغراوة وبني يفرن الزناتية بسانط تامسنا.
وهو الاحتلال القبلي الذي كان له أبلغ الأثر على مجمل النسيج المجتمعي، إثر
الإبادة الجماعية التي لحقت بأهل تامسنا على يد صنهاجة اللثام التي تدفقت من
الصحراء المغربية في موجات متعاقبة على مواطن المصامدة. وهي
الاختلالات القبلية التي ظلت متناثرة البصمات في متون كتب الأنساب،
ومتشابكة الفروع في سياق الحوليات التاريخية التي أغفلت التحقيق في مكان
ترابط النسيج المجتمعي بالسياق الزمني عبر الحقب المتعاقبة.

ولعل في هذه الملاحظات ما يدعو الدارسين إلى الوقوف عند المفاصل
الكبرى للتشعبات والتحزبات والتكتلات القبلية، بدل الانسياق وراء انطباعات
رواد المدرسة الفرنسية التي ظلت مترددة — على مدار قرن مضى وإلى اليوم
— على لسان ثلة من الجامعيين والمؤرخين المغاربة ممن جبلوا على ترويح
آراء غيرهم تقليدا. وبدلا من التجرد لاستقصاء المتون المصدرية التي ظلت
حبيسة الرفوف، لم تضجر جمهرة المقلدين المغاربة من مسامرة الأسطوانة
المتكررة في توجيه اللوم للمصادر العربية، محملين إياها مسؤولية القصور عن
مسامرة تطلعات البحث المعاصر في التاريخ الاجتماعي، حسب التقويم الراجح
منذ القرن التاسع عشر لدى المدارس التاريخية بأروبا الغربية.

ثانيا: المملكة البرغواطية: النشأة والتطور

1- تأسيس دولة بني طريف (122-125)

واضح أن تأسيس إمارة بني طريف بتامسنا، يرتبط بثورة الخوارج
الصفيرية ضد خلافة دمشق الأموية وولاتها بالقيروان. وهي الثورة التي تم
إعلانها بقيادة ميسرة المطغري سنة 122 هجرية (739م). وقد لعب مصامدة

تامسنا دورا بارزا في انفصال المغرب الأقصى حملة عن خلافة دمشق. مصداق ذلك ما تواتر من روايات عن "قوم ظهرت فيهم دعوة الخوارج ولهم عدد وشوكة كبيرة وهم برغواطية"²⁴. وقد تم تأسيس هذه الإمارة التي عرفت فيما بعد باسم الإمارة البرغواطية على يد شخص يدعى "طريف أبو صالح، وكان من قواد ميسرة"²⁵. حدث ذلك بعد مقتل ميسرة من طرف أصحابه، إذ أنكرت البربر عليه سوء سيرته وتغيره عما كانوا بايعوه عليه"²⁶، التزاما بمبدأ الخوارج في الثورة على الإمام الجائر. وقد أفصح أحد الرواة عن ارتباط قيام إمارة تامسنا بهذا الحدث، بقوله: "فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه احتل طريف ببلاد تامسنا"²⁷.

والراجح أن قبائل تامسنا المتأصلة في الجذر القبلي المصمودي قد أثرت الانسحاب من الثورة بعدما آلت قيادتها لزنانة وأسندت إمارة الصفرية لخالد بن حميد الزناتي، الذي بادر إلى نقل ثقل حركة الخوارج الصفرية من المغرب الأقصى نحو المغرب الأدنى وإفريقية²⁸. ويبدو من خلال بعض المقنطعات أن ثمة اجتماع قد انعقد بين أهل الحل والعقد ببلاد تامسنا للنظر في إنشاء إمارة خاصة بهم في المنطقة. فما كان إلا أن أجمعوا على استقدام أحد كبار أهل البلد من رؤوس الصفرية بالمغرب الأقصى لتولية الأمر. ويتعلق الأمر بطريف المكنى بأبي صالح نسبة لولده صالح الذي كان لا يفارقه وحضر مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير"²⁹. ونظرا لمكانته في قومه ورعامة للصفرية وبلائه في فتح الأندلس، "قدمه البربر على أنفسهم وولى

²⁴ البشار المغرب، ج 1، 52.

²⁵ كتاب العبر، ج 6، 276.

²⁶ البيان المغرب، ج 1، 53.

²⁷ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

²⁸ لمزيد من التفاصيل لهذا الخصوص راجع الخوارج في بلاد المغرب، 62-70.

²⁹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

أمرهم³⁰. وبذلك تأسست إمارة بني طريف ببلاد تامسنا في بحر نفس السنة، ونصب على رأس قائمة الأسرة الحاكمة الجديدة "طريف أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحق"³¹. ويضبط ابن عذاري تاريخ تأسيس هذه الإمارة في سنة 124 هجرية، بالقول: "وفيها كان ابتداء ظهور برغواطة"³². ومهما يكن من أمر، فكل المؤشرات تؤرخ تأسيس إمارة تامسنا خلال الفترة الممتدة بين سنتي 122 و124 هجرية. ومنذ ذلك الحين بقي طريف قائما بأمرهم بتامسنا³³ إلى حين وفاته سنة 125 هجرية.

ولا تعوز الإشارات الكاشفة عن المكانة الرفيعة التي شغلها طريف بن شمعون ضمن القيادة الصفيرية بالمغرب الأقصى، إذ كان "من أصحاب ميسرة"³⁴. وعندما بويغ هذا الأخير بالخلافة عمد إلى "أبي صالح طريف [فـ] استوزره ميسرة الحقيير أمير الغرب"³⁵. ولربما يكون ميسرة المطغري قد تعمد تأمير صاحبه طريف رغم أصله المصمودي على قبائل زناتة وزواغة ممن لا يثق في انصياعهم، اعتمادا على معايير التدرج في الدعوة لا الانتماء القبلي. وتتضح المكانة الرفيعة التي تبوأها طريف في خلافة ميسرة وبعد مقتله، من خلال الإشارة المصدريّة التي نصت على أنه لما قفل "احتل طريف ببلاد تامسنا، وكان إذ ذاك ملكا لزناتة وزواغة"³⁶ قبل أن يصبح ملكا على تامسنا. ولعل فيما ورد من خبر إقدام ميسرة المطغري على "عزله وكتب له كتابا إلى أهل تامسنا وقومه من البربر يوصيهم به ويصف فضله وعلمه"³⁷ ما يدل على

³⁰ نفس المصدر والمصحة

³¹ نفس المصدر والمصحة.

³² البيان المغرب، ج 1، ص 56.

³³ كتاب المغرب، ج 5، ص 276.

³⁴ المغرب في ذلك بلاد المغرب، ص 116.

³⁵ أعمال الأعلام، 181. وقد لا شك أن الخطيب في ضبط اسمه فكتبه خالفاً لـ صالح بن طريف، والمصحح لهما يهو أبو صالح طريف.

³⁶ المغرب في ذلك بلاد المغرب، ص 116.

³⁷ أعمال الأعلام، 181. وقد استعملنا من النسخ عدة، ورأينا الواردة في السبائك خالفاً لـ "قومه من رباب البربر" اعتماداً على الخط الذي وقع فيه ابن الخطيب بحذف من السبائك، ثم أطلعه، كما يبداه أنما

دور الخليفة الصفري في التمهيد لولاية أبي صالح طريف على بلاد تامسنا. أما
وإن صاحبه ميسرة قد قتل وبوبع لغريمه خالد بن حميد الراسي بتخلفة، وقد
يبقى أمام طريف سوى إعلان الإمارة ببلاد تامسنا.

ونميل إلى الاعتقاد أن الإشارة التي ورثت عن طريف الذي كان منك
لزناتة وزواغة³⁸ تحيل على الفروع القبلية التي استقرت بالأندلس إثر مشاركتها
في حملة طارق بن زياد، ومن المعلوم أن كافة البضون الخفية لبربرية المسكرة
بالأندلس لم تتأخر عن مساندة الثورة الصفرية ومبذعة ميسرة بتخلفة. ومن
المفيد بهذا الخصوص التذكير بالبلاء الحسن الذي بذله طريف في تمهيد فتح
الأندلس. ولقد أشرنا سلفاً إلى ما تعرضت له شخصية طريف من ضمن نهويته
وتشكيك في أصله، كما هو شأن غيره من كبار رجالات الفكر وتسلطان
والأحكام المغاربة. وقد عمدنا في دراسات سابقة إلى انكشاف عن يد موسى بن
نصير الخفية في نسب عملية الإنزال الأولى بسواحل الأندلس لشخصه، والإيهام
بأن السرية الاستكشافية المشهورة قد تمت بمبادرته على يد قائد عربي معافري
النسب يدعى "أبا زرعة طريف بن مالك المعافري"³⁹. وهو الزعم الذي استهوى
أفلام بعض مشاهير المؤرخين الذين لم يسلموا في سياق العصبية القبلية الأموية
من الوقوع في شباك الانحياز للعرب. نذكر منهم أحمد بن موسى الرازي الذي
لم يتحفظ عن الإقرار بأن صاحب السرية المذكورة هو أبو زرعة طريف بن
مالك المعافري [مستدركا بأن] الاسم طبق الكنية⁴⁰.

بينما تميل أمهات المصادر المغربية إلى التأكيد بأن الأمر يتعلق بـ
"رجل من البربر يسمى طريفا"⁴¹. وهو ما أثبتته عمدة المؤرخين الأندلسيين
مثل "الحجاري وابن حيان وغيرهما [بالقول] أن أول من دخل جزيرة الأندلس

³⁸ المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، 135.
³⁹ تاريخ الأندلس ووصفه، 45.
⁴⁰ فتح المسبب، 254، 13.
⁴¹ أسرار المغرب، ج 1، 5.

من المسلمين برسم الجهاد طريف البربري مولى موسى بن نصير الذي تنسب إليه جزيرة طريف التي على المجاز⁴². وبالمثل، لا تعدم المعاجم الجغرافية الأندلسية التي أقرت بأن الأمر يتعلق برجل "من البربر اسمه طريف"⁴³. وإمعانا في بث البلبلة في أقلام الرواة والتشكيك في أوساط المؤرخين، قيل بأن "طريفا يكنى أبا زرعة"⁴⁴. بينما ذهب البعض الآخر إلى إثبات كنية مماثلة توحي بأن الأمر يتعلق بقائد عربي يدعى "طريف بن مالك النخعي [الذي] نزل بمكان مدينة طريف فسمي به"⁴⁵. وليس أدل على مدى ارتباك الروايات بهذا الخصوص مما ذكره المقرئ⁴⁶ بالقول: "وسيائي في أمر طريف ما يخالف هذا السياق".

ويقدم ابن هشام اللخمي⁴⁷ نصا غاية في الأهمية يضيف — بعد تأكيد النسب البربري — أن الذي نزل بـ "جزيرة طريف هو طريف بن عبد الله مولى موسى بن نصير، ويكنى أبا زرعة من البرابر". ومن المفيد بهذا الخصوص التذكير برواية ابن حوقل الذي ينفرد دون غيره من الرواة بنسب ثاني ملوك تامنا صالح بن طريف، بالقول: "وكان يعرف بصالح بن عبد الله"⁴⁸. وهو الانتساب الذي ينطبق مع رواية ابن هشام اللخمي الذي أثبت أن صاحب السرية الاستكشافية المشهورة للأندلس هو "طريف بن عبد الله"⁴⁹ بالذات. ولا نستبعد أن يكون صاحبنا قد سمي بصالح بن عبد الله بدلا عن طريف بن شمعون بعدما أسلم على يد طارق بن زياد، فأصبح بفضل إيمانه عبدا لله صالحا. وبالمثل، فلا نستبعد أن يتم تعويض انتساب مؤسس المملكة

⁴² نفع الطيب، ج 1، 229.

⁴³ الروض المعطار، 392.

⁴⁴ البيان المغرب، ج 2، 5؛ نفع الطيب، ج 1، 253؛ احبار مجموعة 1989، 16؛ الروض المعطار، 392.

⁴⁵ نفع الطيب، ج 1، 233؛ كتاب العبر، ج 4، 150.

⁴⁶ نفع الطيب، ج 1، 230.

⁴⁷ تقويم للسان، م 2، 259.

⁴⁸ صورة الأرض، 83.

⁴⁹ تقويم للسان، م 2، 259.

لوالده شمعون المعروف به قبل الإسلام، باسم جديد وهو في الإسلام أبي طريف بن عبد الله. وبذلك أصبح طريف مؤسس المملكة منسوباً وهو في الإسلام لوالده عند الله بدلاً عن شمعون الذي عرف به قبل الإسلام. ومن المفيد التذكير أن إسناد مثل هذه البدائل عن الأسماء الأصلية لملوك وأمراء المغرب الأقصى سنة شائعة. ففي بلاد نكور على سبيل المثال اشتهر صالح بن منصور لدى العامة والخاصة باسم "العبد الصالح"^{٥٠}.

ولا تقل رواية المفري أهمية في الكشف عما تعرض له هذا الموضوع من دس والتباس. فبينما يصرح بأن الأمر يتعلق برجل "من البرابرة اسمه طريف يكنى أبا زرعة"^{٥١}، يعود في سياق آخر إلى التمييز بين شخصية طريف قائد السرية المشهورة الذي دخل الأندلس مستكشفاً سنة 91 هجرية، وبين شخص آخر "دخل بعده [يسمى] أبو زرعة شيخ من البرابرة وليس بطريف"^{٥٢}. واضح أن ثمة أقلام مأجورة لم تتورع عن إثارة الزوابع في كل اتجاه، قصد طمس دور المعارضة الأمازيغ مع أميرهم طارق بن زياد النفزي، وأحد زعمائهم طريف بن شمعون المصمودي، في فتح الأندلس. وقد احتفظ محمد بن يوسف الوراق التاريخي برواية أبي صالح زمور بن موسى بن واربزن البرغواطي التي تكشف بما لا يدع مجالاً للشك عن أولية طريف في استكشاف الأندلس، توحيه من أمير المغرب الأقصى حينئذ طارق بن زياد. فقد ورد الخبر منقولاً في مسالك أبي عبيد الله البكري، إذ أخبر زمور أن طريفاً أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحق، وأنه كان من أصحاب ميسرة المطعري المعروف بالحقير ومغرور بن طالوت، وإلى طريف نسبت جزيرة طريف"^{٥٣}.

^{٥٠} الروص المعطار، ٩٧٧
^{٥١} مع الصب، ج ١، ٢٥٣
^{٥٢} مع الصب، ج ١، ٢٥٣
^{٥٣} المغرب في ذكر بلاد المغرب والمغرب، ١٣٥

تجدنا إذا أمام شخصية سياسية مغربية فذة، ممن شغل مكانة مرموقة ضمن نظام الحكم الذي أقره طارق بن زياد أثناء ولايته بالمغرب الأقصى، خلال الفترة الممتدة بين سنة 85 و 93 للهجرة (704-711م). فما كان بعد أن زاغت الخلافة الأموية بدمشق عن جادة الصواب، ورام ولايتها تخمير البربر، إلا أن عمد هذا الزعيم إلى أخذ زمام المبادرة ببلده والانتظام في كيان محلي مفارق ابتداء من سنة 122 هجرية إلى حين وفاته سنة 125 للهجرة. وهو ما عبر عنه ابن خلدون⁵⁴ بالقول: "وكان لبرغواطة في عصرهم دولة". تجدنا إذا أمام مؤسس إحدى أقدم الأسر الحاكمة بالمغرب الأقصى في الإسلام: طريف بن عبد الله المنعوت لذلك بـ "طريف أب ملوك برغواطة"⁵⁵ الذي يرجع إليه الفضل في وضع الحجر الأساس لمملكة تامسنا المصمودية العمق، الخارجية المذهب، المفارقة لنظام الخلافة بدمشق.

2- صالح بن طريف وصياغة المذهب البرغواطي (125-172)

لم يدم أمر مؤسس المملكة وأب ملوك تامسنا طريف بن عبد الله المصمودي طويلا، إذ سرعان ما عاجلته المنية، وكان قد "تخلف من الولد أربعة. فقدم البربر ابنه صالحا منهم"⁵⁶. وثمة رواية منسوبة لزموور بن واريدين البرغواطي تحدد تاريخ حدوث ذلك "بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بمائة عام سوا"⁵⁷ بضع سنوات إضافية غير مذكورة في المتن. مما يجعلنا أقرب ما نكون إلى ضبط تاريخ انتقال ملك بلاد تامسنا إلى يد صالح بن

⁵⁴ المعبر، ج 6، 275.

⁵⁵ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

⁵⁶ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

⁵⁷ ومن المعلوم أن وفاته صلى الله عليه وسلم كانت سنة 11 هجرية، وبإضافة مائة عام على ذلك "سوا" يصح القول "غير محددة في المنزلة، فنصور بالتقريب تاريخ وفاة طريف بن شمعون وولاية ابنه صالح بن طريف والتدبير في ملاحظة أن روايته الكري قد أخطأت في تسمية الهالك طريف، الذي شاع بسببه كما سلف الذكر لأمر ابنه صالح وبسميته لذلك ناسي صالح وقد تم الخلط في هذه الرواية بأسقاط عبارة أب من المتن والافتراء بأن الأمر يتعلق "بموت صالح" المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

طريف. وهو ما حدده ابن خلدون⁵⁸ بالقول: "وكان ظهور صالح هذا في خلافة هشام بن عبد الملك، من سنة سبع وعشرين من المائة الثانية من الهجرة". إلا أن ثمة خلل يسير من حوالي سنتين في هذا التقدير، علما بأن وفاة هشام بن عبد الملك قد تمت في سنة 125 هجرية⁵⁹. وهي بالضبط السنة التي نقرأها تاريخا لولاية صالح بن طريف مقاليد الحكم ببلاد تامسنا خلفا لأبيه. وليس أدل على صحة هذا التقدير من رواية ابن أبي زرع⁶⁰ التي نصت على اتخاذ هذا الملك اللقب السلطاني "وتسما بصالح المؤمنين... وذلك سنة خمس وعشرين ومائة" (742 م). وهو نفس التاريخ الذي أقره ابن الخطيب⁶¹. وقد ظل صالح بن طريف منذ هذه السنة ملكا على بلاد تامسنا إلى حين قرر التخلي عن الحكم لصالح ابنه وخرج إلى المشرق بعد أن ملك أمرهم سبعا وأربعين سنة⁶². بمعنى أن صالح بن طريف قد ظل أميرا على مملكة تامسنا إلى غيبة سنة 172 هجرية (788 م).

ومن المفيد الانتباه إلى الروايات التاريخية التي تناولت بالذكر نشأة صالح بن طريف بكورة شذونة الواقعة على الضفة الأخرى لبحر المجاز بالعدوة الأندلسية. ولا غرو، فقد سبقت الإشارة إلى ترؤس والده طريف بن شمعون للسرية الاستكشافية التي بعثها طارق بن زياد نحو سواحل كورة شذونة ونزولها بالجزيرة التي عرفت منذ ذلك الحين باسمه: طريفة. وقد بينا في دراسات سابقة دور كثافة المواصلات البحرية بين العدوتين المغربية الأندلسية في توسيع المجال الجغرافي للفروع القبلية المصمودية، التي كان لها أبلغ الأثر منذ أقدم العصور في صياغة النسيج المجتمعي بكورة شذونة، إذ "كان البربر

⁵⁸ العبر، ج 6، 276.
⁵⁹ الكامل في التاريخ، ج 3، 391.
⁶⁰ لابن المطر، 130.
⁶¹ أعمال الأعلام، 182.
⁶² العبر، ج 6، 277.

بالقرب منهم وليس بينهم سوى تعدية البحر ويرد عليهم منهم طوائف⁶³. بلغت كثافة التحركات السكانية المصمودية من غمارة وتامسنا نحو كورة شذونة وغرب الأندلس أن اضطر البلديون إلى إقامة صنم قادم الشهير في شكل طلسم "لمنع البربر من دخول الأندلس"⁶⁴. وليس مصادفة أن يعمد طارق بن زياد النفزي إلى طريف بن شمعون المصمودي، ويوكله القيام بمهمة الكشف عن عورات النظام القوطي، من خلال الانزال الاختباري للسرية المشهورة باطراف كورة شذونة، حيث مضارب فصائل بني عمومته من المصامدة البلديين. ويخيل إلينا أن طارق بن زياد قد عمد إلى تأمير طريف بن شمعون على كورة شذونة بالذات إثر فتح الأندلس، حيث استقر بأسرته وبنيه بصفته عاملاً للنظام الجديد بهذه الجهة من جزيرة الأندلس. وبقدراً يعمد أحد مشاهير النسابة الأندلسيين، إلى ربط نسب طريف بن شمعون أب ملوك تامسنا بالأصل المصمودي، يكشف في نص بالغ الأهمية عن دوره في نشوء ذريته وشهرة أعقابه، في شكل فصيلة مصمودية فرعية بكورة شذونة من الأندلس. فإلى مصمودة يعود - حسب تحقيقه - نسب "بني طريف من شذونة، ومنهم كان الذي تنبأ ببرغواطة"⁶⁵. ويقدم صاحب كتاب مفاخر البربر معلومات إضافية دالة على مكانة رجالات هذا البيت المصمودي العريق باعتباره من مشاهير

⁶³ نفح الطيب، ج 1، 244.

⁶⁴ معجم البلدان، ج 4، 290.

⁶⁵ حميرة لساب العرب، 500-501 وثمة حل في قراءة اسم المكان شذونة *Sidonia*، الذي ورد في نص المحقق حط أشونة، وهي موقع لنسلي آخر ما زال إلى اليوم يحمل نفس اسمه القديم *Osuna* وقد فات هذا نص محقق كتاب مفاخر البربر فلم يثبت به إلى أن الصواب شذونة وليس أشونة التي أثبتها بدوره خط محررة لحصاني بروفسال. محقق الجمهرة. ومن المفيد الانتباه إلى تارجح اقلام النساخ بين ثبات اسم هذا العلم الجعري كاشي أشونة بدل شذونة، كتاب مفاخر البربر، مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم 1020. وقد تم ثبات هذا لعمم الجعرافي على أصله الصحيح في النسخة المخطوطة الثانية من كتاب مفاخر البربر، مخطوط مكتبة عمدة بالرباط، رقم 1275 مما يدعو حميرة لمحققين لمعرفة أن هذا المجهود والتخلص من منهج تقليد السحرين واعتذر ما يشن حقيق مسلمة

جوانت وئی زلمر و سنسز، موک ز زلمز بتلق به تسی طریف امراء
سویه، معبد کر صلیح بر ضریف ندی به سرعوضه⁶⁶.

ونيس عن صحده هـ تحس من تواتر الروايات في حملة من
نصير تاريخية في تلك سنة وترعرع صالح بن ضريف ثاني ملوك بلاد
مصر مغربية بكورة شونة الأندلس. فبصرف النظر عن رواية ابن
حبيب في تلك سنة هـ صالح هـ مصموي لأصل نشأ بقرية برباط من
الأندلس. فقد ورد في صحاح كتاب مفخر البربر أيضا أن "أصل صالح بن
ضريف من وادي برباط من الأندلس". ولم يكن ابن خلدون⁶⁹ ليفعل التأكيد
على تسميه في حوض الأندلس لمصممة [بقوله:] وأما صالح بن طريف
فمعروف منهم ونيس من غيرهم. ولم يغفل مع ذلك الإشارة إلى روايات
المحققين في نسب صالح عنه من ولد شمعون بن يعقوب، نشأ برباط⁷⁰. وهو
تأصيل في أصله صالح بن الاستنصار⁷¹ في ذكره "صالح بن
ضريف وأصله من برباط الأندلس. وهو ما فصله ابن أبي زرع⁷² بالقول: إن
صالح بن طريف القائم بتونس... كان أصله من برباط حصن من عمل شذونة
من بلاد الأندلس. ولم يكن محمد بن يوسف الوراق التاريخي ليخرج عن
حصن نزوة الذين أثبتوا أن صالح بن طريف "القائم بدين برغواطة أصله من
شونة من وادي برباط"⁷³. وما زال الوادي الذي جرت عنده معركة طارق بن

معجم بربر - 248 - وقد جرى تحقيق حضرة في كتاب اسم المكان كالتالي: أشونة.

82 - 81. 82 - 81. 82 - 81.

مؤلف مجهول، ك - مذكر السير، ضمن ثلاثة مصوِّص عربية عن السير بالعرب، الإسلامي، تحقيق محمد
عيسى - مصر - 1996، 186

186-1996

280.62.7

280.6 ح

کتاب: اقتصاد، ۱۹۷۷

130. دبیر مصر.

المغرب في بكر بلاد افريقية والمغرب، ١٣٧ وقد احتللت الاسماء على النكري فاعتقد ان موسى المدد
هو موسى صاحب ضريف تسمى ملوك تسمى و تسمى مباديه في قبائل المغرب تسمى موسى رابع الملوك، فثبت اسم
موسى في بلاد مصر

زياد الفاصلة، التي انتهت بفتح الأندلس سنة 92 هجرية، يحمل إلى اليوم نفس اسمه المغربي القديم. حقيقة أن الرواة قد أجمعوا على إبراز نشأة وترعرع صالح بن طريف ببرباط بكورة شذونة بالأندلس، إلا أن ثمة إشارة بالغة الأهمية في الكشف عن مولده بالمغرب في وسط أمازيغي بربري. فقد أفصح ابن حوقل⁷⁴ بما لا يدع مجالا للشك أن صالح بن طريف "بربري الأصل مغربي المولد". ولعل في هذه الإشارة ما يقدم بعض القرائن الكاشفة عن تاريخ ولادة صالح بن طريف، شهورا أو لربما بضع سنوات قبل تآمر أبيه طريف على ولاية شذونة من قبل طارق بن زياد، إبان فتح الأندلس سنة 92 هجرية.

إلا أن نشأته ببرباط غلبت على نسبته إليها فاشتهر لذلك باسم صالح بن طريف البرباطي. وهو ما أفصح عنه ابن خلدون⁷⁵ في عبارة مقتضبة دالة بالقول: "وقيل له برباطي نسبة إلى الموطن الذي نشأ فيه". وهو ما عبر عنه صاحب كتاب الاستبصار بالقول متهجما عليه في عبارة مبتذلة: "ولما كان أصل هذا الشيخ الملعون من برباط، قيل لكل من دخل في دينه برباطي فأحالتها العرب بألسنتها فقالت برغواطي، فمن أجل هذا سموا برغواطة"⁷⁶. وهو نفس التعليل الذي اعتمده ابن أبي زرع⁷⁷ الذي ربط أصل هذا الاصطلاح المذهبي بمكان نشأة مؤسسه صالح بن طريف، لما "كان أصله من برباط حصن من عمل شذونة من بلاد الأندلس، فكان يقال لمن تبعه ودخل في ديانتهم برباطي، فعربته العرب وقالوا برغواطي فسموا برغواطة". على غرارهم، ذهب صاحب كتاب مفاخر البربر إلى التأكيد على أن "أصل إمامهم الذي شرع لهم ديانتهم وهو صالح بن طريف من وادي برباط من الأندلس ف قيل لكل من دخل في

⁷⁴ صورة الأرض، 82.

⁷⁵ كتاب العبر، ج 6، 280.

⁷⁶ كتاب الاستبصار، 198.

⁷⁷ الأنيس المطرب، 130.

ديانتهم برباطي، فأحالته العرب بألسنتها فقالت برغواطي⁷⁸. ولذلك فبدلاً عن التسمية الأصل التي اشتهر بها صالح بن طريف البرباطي لدى معاصريه نسبة لمكان نشأته وترعرعه بقرية برباط، فقد شاع في المصنفات التاريخية المتأخرة وسمه بـ صالح بن طريف البرغواطي⁷⁹. كما عرف اختصاراً "بصالح البرغواطي"⁸⁰.

وإصراراً من المخالفين لمذهبه على النيل من معتقده في أوساط العامة، والتقليل من شأنه لدى الخاصة، لم يتورعوا عن ربط نسبه باليهود. فقد ورد على لسان صاحب الاستبصار أن "صالح بن طريف يهودي النسب من سبط شمعون"⁸¹. على غرار، لم يتردد ابن أبي زرع الفاسي عن الإقرار بأن صالح بن طريف "يهودي الأصل من ولد شمعون بن يعقوب عليه السلام"⁸². بيم اثر ابن خلدون تحميل مسؤولية الضر للرواة ممن "يقولون في صالح إنه يهودي من ولد شمعون بن يعقوب"⁸³. ويتضح الشك لدى ابن الخطيب الذي اكتفى برواية مبنية للمجهول: نصها "وقيل كان إسرائيلي الأصل"⁸⁴. وأصح أن سند مجمل هذه الروايات يقتصر على منطوق شجرة النسب التي تصل صاحبنا بجده شمعون بن يعقوب بن إسحاق، ليس إلا. والملاحظ أن الزعم بالأصل اليهودي قد وجه لصالح بن طريف باعتباره مؤسساً لمذهب فكري، ولم يوجه لوالده طريف بن شمعون مؤسس المملكة، رغم أنه المخضرم بين العهد القديم السابق للإسلام والعصر الإسلامي.

⁷⁸ معاصر البربر، 186.
⁷⁹ أعمال الأعلام، 182؛ كتاب الاستبصار، ج 1، 114.
⁸⁰ فتح المنيب، ج 3، 191.
⁸¹ الاستبصار، 197.
⁸² الأنيس المطرب، 130.
⁸³ المعبر، ج 6، 280.
⁸⁴ أعمال الأعلام، 1964، 181.

ومن مقر إقامته ببرباط من كورة شدوبة بالأندلس كان منطلق الرحلة
المشرقية الأولى التي باشرها صالح بن طريف إلى الدبار المشرفه طلبا للعلم
والمعرفة. وهو ما أشارت إليه المصادر التاريخية المتداولة بالقول أنه "سأ
ببرباط من بلاد الأندلس ثم رحل إلى المشرق فقرأ على عبد الله المعتزلي
القدري"⁸⁵. وفي روايات أخرى أن صالح بن طريف "كان رحل إلى المشرق
وقرأ على غيلان القدري"⁸⁶. وهو ما أكدته البكري⁸⁷ في إشارة دالة على حلوس
صالح بن طريف للتعلم على مشاهير علماء عصره، إذ "نظر في الكلام والحدال
وأخذ ذلك عن غيلان" الدمشقي أثناء رحلته الأولى إلى بلاد الشام. ومن المفيد
الانتباه إلى استكمال صالح بن طريف رحلته المشرقية لطلب العلم فانتقل عن
بلاد الشام إلى بلاد الرافدين و "دخل العراق"⁸⁸. ومن المعلوم أن غيلان
الدمشقي القدري قد عاصر خلافة هشام بن عبد الملك (105 — 125 هجرية)
وقد قتل على يديه، بعدما مثل به وقطع يديه ورجليه ولسانه، مما يحدد بالتقريب
تاريخ رحلة صالح بن طريف المشرقية.

ويؤرخ البكري⁸⁹ لهذه الرحلة جزافا بالقول: "قد رحل إلى المشرق في
عام واحد مع عباس بن ناصح، وزيد بن سنان الزناتي صاحب الواصلية،
وبرغوت بن سعيد الترابي، وجد بني عبد الرزاق ويعرفون ببني وكيل
الصفريّة، ومناد صاحب المنادية المنسوب إليه القلعة المعروفة بالمنادية". بما
يفصح عن طبيعة الرحلة العلمية، التي اتخذت شكل وفد مغربي ممثل لكافة
المجموعات القبلية الكبرى، توجه لديار المشرق قصد تلقي أصول الجدل وعلم
الكلام على يد أقطاب التيارات الصفريّة والقدرية والواصلية. والراجح أن ذلك

⁸⁵ الأبيس المطرب، 130؛ أعمال الأعلام، 182؛ العبر، ج 6، 280.
⁸⁶ كتاب الاستبصار، 197.

⁸⁷ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137-38.
⁸⁸ صورة الأرض، 82.

⁸⁹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

قد تم في فترة ما، بعد سنة 105 هجرية (724م) وقبل تاريخ اندلاع ثورة ميسرة المطغري الخارجية سنة 122 هجرية (739م). وقد ظل صالح بن طريف مقيما بالديار المشرقية، يتلقى أصول الجدل وعلم الكلام، ويتسبحر في علم الطلسمات والنجوم والكواكب والتقاويم والموالييد، وينهل من علوم القدامى الحكمية والطبيعية، فضلا عن علوم الشرائع والأديان. وهو ما لخصه ابن حوقل بالقول: "وكان له خط حسن وفهم بأطراف العلم"⁹⁰ الذي "جمع منه فنونا كثيرة"⁹¹. كما اشتهر لدى القاصي والداني بأنه "كان من أهل العلم والخير"⁹².

وبعدما استكمل صالح بن طريف فصول تعليمه بالديار المشرقية، قفل راجعا إلى مسقط رأسه "وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا"⁹³. بينما يشير البكري⁹⁴ إلى أنه قفل راجعا يريد الأندلس، فنزل بين هؤلاء القوم "ببلاد تامسنا. وهو ما أكده صاحب الاستبصار محمدا تاريخ ذلك بالقول: "قدخل بلاد تامسنا فوجد فيها من زناتة قوما جهالا، وكان ذلك سنة 123 هجرية"⁹⁵. والغالب على الظن أنه قفل عائدا إلى المغرب قبيل هذا التاريخ، إذ تكشف المصادر المتداولة أنه قد "حضر مع أبيه حروب ميسرة"⁹⁶ التي دارت رحاها كما سلف الذكر خلال سنة 122 هجرية.

وعند وفاة والده طريف سنة 125 هجرية، تفرغ صالح بن طريف لإدارة شؤون المملكة، بعدما اجتمع أهل البلد على بيعته "وأقرؤا بفضلته واعترفوا بولايته فقدموه على أنفسهم وصدروا عن رأيه في جميع أمورهم ووقفوا عند أمره ونهيه"⁹⁷. ويفصح ابن خلدون⁹⁸ عن المدة التي استغرقها في

⁹⁰ صورة الأرض، 82.

⁹¹ الأنيس المطرب، 130.

⁹² العبر، ج 6، 276.

⁹³ الأنيس المطرب، 130.

⁹⁴ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 138.

⁹⁵ كتاب الاستبصار، 197.

⁹⁶ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

⁹⁷ الأنيس المطرب، 130.

حكم بلاد تامسنا إذ ملك أمرهم سبعا وأربعين سنة"، استغرقها إلى جانب الاهتمام بشؤون الحكم في صياغة أصول المذهب الفكري الذي نسب إليه. وهو ما أشار إليه بعض المؤرخين⁹⁹ بالقول: "قولوه على أنفسهم، فلما ولي شرع الديانة التي أخذوها عنه". وفضلا عن ترجمة القرآن إلى الأمازيغية وصياغة التفاسير بلسان قومه، لم يذخر صالح بن طريف جهدا على مستوى الأحكام "وشرع لهم الشرائع"¹⁰⁰ التي تبلورت في شكل مذهب فقهي متكامل. يتجلى ذلك من خلال تجرده لتعليم ابنه ووريث سره إلياس بن صالح قواعد المذهب "وعلمه شرائعه وفقهه في دينه"¹⁰¹. ناهيك عن أصول علم الكلام التي تمت صياغتها من خلال الدمج بين مبادئ الخوارج الصفرية، وتعاليم القدرية والواصلية، ومذاهب الشيعة الإمامية، وتأملات الزهاد والنسك والصوفية.

مع ذلك، فمن المفيد الانتباه إلى أن صالح بن طريف لم يتجراً على نشر تعاليم المذهب الجديد الذي صاغ أصوله في أوساط عامة أهل مملكته، إذ لم يكن الوقت قد حان بعد لذلك، نظرا لرسوخ قواعد المذهب الخارجي الصفري في أوساط عامة قبائل أهل المغرب. مصداق ذلك، ما ورد في كتب التاريخ، عن اضطرابه إلى الجهر بالسير على خطى والده طريف، الذي ظل — كما هو معروف — "على ديانة الاسلام إلى أن هلك"¹⁰²، أي مستمسكا بمذهب الخوارج الصفرية. وهو ما تواتر ذكره في الحوليات التاريخية، بالقول تارة: أنه "أظهر الإسلام والنسك"¹⁰³، وطورا بأنه أظهر لهم الإسلام والزهد والورع"¹⁰⁴.

⁹⁸ العبر، ج 6، 277.

⁹⁹ كتاب الاستبصار، 197.

¹⁰⁰ العبر، ج 6، 276.

¹⁰¹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

¹⁰² المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

¹⁰³ كتاب الاستبصار، 197.

¹⁰⁴ الأنيس المطرب، 130.

بمعنى أن مملكة تامسنا قد ظلت ظاهريا على المذهب الخارجي الصفري، طوال فترة حكم صالح بن طريف. وليس أدل على ذلك، مما ورد على لسان أبي صالح زمور بن واريدين البرغواطي، الذي صرح بأن صالح بن طريف قد استتر بمذهبه تقية طوال فترة حكمه، إلى أن "عهد صالح إلى ابنه إلياس... وأمره أن لا يظهر ذلك إلا إذا قوي وأمن، فإنه يدعو إلى ملته ويقتل حينئذ من خالفه"¹⁰⁵.

ويبدو أن مملكة بني طريف في بلاد تامسنا، ودعوتها الخارجية الصفرية المعلنة، قد تعرضت لانحسار شديد أثناء ظهور الدعوة العلوية الزيدية الإعتزالية بقبائل أوربة المجاورة. ومن المعلوم أن الإمام إدريس بن عبد الله الحسني، قد بادر إلى مهاجمة مملكة بني طريف بجموعه، "فخرج بهم غازيا إلى بلاد تامسنا، فنزل أولا مدينة شالة ففتحها، ثم فتح بعدها سائر بلاد تامسنا"¹⁰⁶. ثم ذلك في بحر سنة 172 هجرية (798م). فما كان على صالح بن طريف إلا أن تخلى عن الملك بعدما "عهد صالح إلى ابنه"¹⁰⁷.

وليس أدل على انتقال دولة بني طريف بتامسنا خلال هذه الفترة الحالكة من تاريخها من طور إمامة الظهور إلى طور إمامة الدفاع، مما ورد على لسان صالح بن طريف ضمن وصيته لولده ووارث سره إلياس إذ "أمره ألا يظهر الديانة حتى يظهر أمره وينتشر خبره"¹⁰⁸. وإدراكا منه للخطر الذي يمثله طموح الأدارسة على مجمل الكيانات السياسية القائمة ببلاد المغرب، لم يتردد صالح بن طريف عن وضع اللبنة الأولى للتحالف السياسي الذي ما فتئ يتوطد على مدار القرون اللاحقة، بين مملكة بني طريف بتامسنا والإمارة

¹⁰⁵ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.
¹⁰⁶ الألبس المطرب، 20 أنظر أيضا علي الحبراني، حبي مرة الأسر في بناء مدينته فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1991، 12-13، الاستقصا، ج 1، 156.
¹⁰⁷ الأسبصار، 198.
¹⁰⁸ البيان المغرب، ج 1، 57.

الأموية بالأندلس، برغم عمق خلافاتهما المذهبية. لذلك لم يتردد عن وصية ولده ووريث سره بضرورة "موالاة صاحب الأندلس من بني أمية"¹⁰⁹.

أما صالح بن طريف فقد أثر الاعتزال عن الملك، فخرج إلى المشرق في رحلته الأخيرة، كما تواتر ذكره في جملة من المصادر التاريخية المعتمدة في هذا العمل. ثم ذلك — حسبما يتضح من مختلف القرائن — في أواخر سنة 172، أو في أوائل سنة 173 هجرية، وقد شارف صالح بن طريف على سن الثمانين. وهي الرحلة التي أحيطت بهالة من الخوارق والأساطير، التي كان لها أكبر الوقع في عقول العامة ممن تجاذبتهم رياح التيارات المذهبية المنغمسة في أصول التشيع والمعتقدات الباطنية. فقد شاع القول في أوساط عامة أهل بلاد تامسنا، أن صالح بن طريف هو المهدي المنتظر الذي دخل فترة الغيبة، وأنه يظهر في دولة السابع من ملوكهم، "وأنه يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً"¹¹⁰. ناهيك عما عدا ذلك من المعتقدات التي تتم عن احتدام التنافس بين مختلف التيارات المذهبية المتصارعة، أملاً في إحكام قبضتها على تلابيب عامة أهل المغرب الأقصى. وليس أدل على وقع مثل هذه المقالات في أوساط العامة، والتمكين لملوكهم للامساك من جديد بناصرية البلاد، مما ذكره ابن حزم¹¹¹ بالقول: "وكفار برغواطة إلى اليوم ينتظرون صالح بن طريف الذي شرع لهم دينهم ... وهو عندهم المهدي المنتظر".

3 — عهد إلياس بن صالح والبعد الصوفي (172-222)

وبرغم اختلال أمور مملكة بني طريف، على إثر هجمات إدريس الأول الكاسحة على بلاد تامسنا، فقد ظلت أسس الدولة قائمة. مصداق ذلك ما قيل عن

¹⁰⁹ العبر. ج 6، 277؛ انظر كذلك: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135؛ البيان المغرب، ج 1، 57؛ كتاب الاستبصار، 198؛ أعمال الأعلام، 183.
¹¹⁰ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135؛ كتاب الاستبصار، 198؛ انظر كذلك: العبر. ج 6، 276-277.
¹¹¹ البيان المغرب، ج 1، 57؛ أعمال الأعلام، 183.
¹¹² الفصل في الملل، ج 5، 38.

تولى إلياس الأمر من بعد خروج أبيه¹¹² سنة 172 هجرية. حقيقة أن اغتيال إدريس الأول قد وفرت للملك إلياس بن صالح بعض هوامش المناورة، مكنته من إعادة تجميع قواه ببلاد تامسنا. إلا أن إعادة انتظام أمور الأدارسة بتدبير حكم إدريس الثاني من طرف كبار رجالات أوربة، سرعان ما أسفرت على استئناف الصراع بين المملكتين على النفوذ بالمغرب الأقصى.

وقد أشارت الحوليات التاريخية إلى استئناف غزو بلاد تامسنا من طرف إدريس بن إدريس "سنة سبع وتسعين ومائة [إذ] خرج غازيا بلاد المصامدة"¹¹³. ويتعلق الأمر بسلسلة من المعارك الصعبة التي خاضها إدريس الثاني ضد إلياس بن صالح المعروفة بـ "غزواته للخوارج الصفرية من البربر"¹¹⁴. لا غرابة في ذلك، ما دام إلياس بن صالح قد التزم بوصية سلفه، وظل طوال مدة حكمه "يظهر ديانة الإسلام ويسر الذي عهد إليه به أبوه خوفا وثقية"¹¹⁵. وهو ما أكدته الرواة الذين تناقلوا الخبر عن إلياس بن صالح الذي كتم الشريعة التي عهد إليه أبوه خوفا وثقية¹¹⁶. وهي ذات الحقيقة التي اثبتها ابن الخطيب¹¹⁷ بقوله أن إلياس "كتم بحلته خوفا على نفسه". بمعنى أننا أمام بولة تشهر المذهب الخارجي الصفري وتضممر مذهبها البرغواطي الذي ظلت مبادئه إلى ذلك الحين في طي الكتمان.

والراجح أن أطراف بلاد تامسنا قد طلت خلال هذه الفترة المضطربة متارحة بين الانتظام في كنف مملكة بني طريف، والوقوع تحت طائلة سيف الأدارسة. وتطالعنا الحوليات التاريخية بخبر نجاح إدريس الثاني في ضم أجزاء هامة من بلاد تامسنا إلى دائرة نفوذه. مصداق ذلك إقدام خلفه محمد بن إدريس

¹¹² المغرب في ذكر بلاد المغرب، 136.
¹¹³ لايفس، ج 1، 169.
¹¹⁴ لايفس المطرب، 26.
¹¹⁵ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.
¹¹⁶ الاستبصار، 198؛ البها الممر، ج 1، 57.
¹¹⁷ أعمال الأعلام، 184.

إبان بيعته على إثر وفاة والده سنة 213 هجرية (828 م) على قسمة المغرب بين إخوته كما هو معلوم "وولى أخاه عيسا على شالة وسلا وازمور وتامسنا وما والا ذلك من القبائل" ¹¹⁸.

وتجمع المصادر التي تناولت ذكر إلياس بن صالح، على إبراز خصاله الفاضلة، إذ اشتهر بكونه "طاهرا عفيفا زاهدا" ¹¹⁹. كما شاع ذكره في الآفاق بكونه ممن "لم يلتبس بشيء من الدنيا" ¹²⁰. ولا نستبعد أن تكون ثمة علاقة بين الفكر المهدوي والأبعاد الصوفية في الفكر البرغواطي، وإقدام صالح بن طريف على تسمية ولي عهده باسم النبي إلياس عليه السلام. ولا غرو، فقد تواتر الأرجاف في مقالات الفرق الإسلامية بمن "سلك هذا السبيل من نوكي الصوفية، فزعموا أن الخضر وإلياس عليهما السلام حيان إلى اليوم، وادعى بعضهم أنه يلقي إلياس في الفلوات والخضر في المروج والرياض" ¹²¹.

ونميل إلى الاعتقاد بأن إلياس بن صالح بالذات قد تجرد لإدخال تعديلات جوهرية على الفكر البرغواطي خلال هذا التاريخ، ممثلة في الفكر الصوفي الذي انضاف في عهده إلى عقلانية الفكر القدرى الاعتزالي، وثورية المذهب الخارجي الصفري، المعتمدة من طرف صالح بن طريف في صياغة أصول مذهبه البرغواطي. وهو ما أشار إليه ابن حوقل ¹²² في عبارة بالغة الدلالة، بالقول: "فزاد في رسمه أشياء ذكر أن له فيها الزيادة والنقصان، والحل والعقد، فيما قدمه صالح لهم من الأحوال". ويضيف ابن حوقل ما يؤكد — بما لا يدع مجالا للشك — إقدام ثالث ملوك بني طريف على إحداث هذه التعديلات

¹¹⁸ الأنيس المطرب، 51.

¹¹⁹ المعبر، ج 6، 277.

¹²⁰ للمغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، 136.

¹²¹ الفصل في الملل، ج 5، 37.

¹²² صورة الأرض، 82.

حلف صالح بن طريف، والصحيح أنه خلفه يدعى إلياس. أما أبا غفير فقد تولى الملك بعد نذ بحوالي قرن من الزمن، كما سنعرض لذلك بما يستحق من تفصيل لاحقاً.

الحوارية في أصول المذهب البرغواطي. وهو ما أثبتته تصريحاً بالقول: فقد دعاهم إلى النسك وترك الدنيا، والإقبال على التقلل والزهد، وتناهى هو وخاصته في ذلك¹²³.

والغالب على الظن أن إلياس بن صالح قد أثر، لاسترجاع نفوذ مملكة بني طريف في بلاد تامسنا وفيما جاورها من قبائل المغرب الأقصى، العمل على تفكيك نفوذ الأدارسة من الداخل، عن طريق بث الدعوة البرغواطية في أوساط الحاضرة، ممزوجة بمسوح صوفية منسابة إلى ألباب العامة، بفضل ما شاع عن الإمام من أخلاق الزهد والعفة. وهو الأسلوب الذي لم يتأخر عن الإثمار، حسبما يتضح من رواية ابن الخطيب¹²⁴، الذي نص على أن إلياس بن صالح "لم يظهر شيئاً من نحلته في الجمهور، إلا من وثق به ورضي به من خاصته، فدخل في طاعته خلق كثير من زناتة وغيرهم وعظم أمره".

وقد تناقلت المصادر التاريخية الخبر بطول المدة التي استغرقها إلياس بن صالح في الحكم، إذ 'ملك خمسين سنة'¹²⁵. وهو ما أكدته ابن خلدون¹²⁶ في إشارته إلى أن إلياس بن صالح قد 'هلك لخمسين سنة من ملكه'، بمعنى أنه قد ظل على رأس الدولة إلى حين وفاته في حدود سنة 222 هجرية (836 م) فيما يبدو. ومن الملاحظ أن ثمة خلل واضطراب في ضبط تواريخ ولاية ووفاء إلياس بن صالح. لا سيما رواية ابن الخطيب¹²⁷ التي كان لها أبلغ الأثر في انزلاق الدراسات التاريخية المعاصرة في اتجاه اعتماد تواريخ منحولة، لا تتوافق البتة مع نسق فصول تاريخ مملكة بني طريف.

¹²³ صورة الأرض، 82.

¹²⁴ أصل الأعلام، 184.

¹²⁵ المغرب في ذكر الأمازيغية والمغرب، 136؛ الديان المغرب، ج 1، 57؛ كتاب الاستبصار، 198؛ أعمال الأعلام، 184.

¹²⁶ المغرب، ج 6، 277.

¹²⁷ تلخيص رواية صاحب كتاب الاستبصار على ذكر تاريخ إظهار إلياس بن صالح مذهبه بإثبات دار الأحاد.

السراة دون المنات، وهو ما استدرك عليه المحقق بإضافته دار المائة مجارفة. انظر كتاب الاستبصار، 198. سارمند ابن الخطيب إلى تحديد تاريخ ولاية إلياس سنة 128 هجرية وإثبات تاريخ وفاته في سنة 176 هجرية.

4- يونس بن إلياس وترسيم المذهب البرغواطي (222-266)

وبوفاة إلياس بن صالح "ولي بعده ابنه يونس"¹²⁸، الذي أعلن من جديد إمامة الظهور، بعدما هيا له سلفه شروط تحقيق ذلك. لم يتوقف الأمر عند هذه الحد، بل سرعان ما تجرأ الإمام الجديد على إظهار حقيقة المسألة البرغواطية، وبأن الأمر يتعلق بمذهب فكري جديد مختلف عن كافة المذاهب المتعارفة في دار الإسلام، مشرقاً ومغرباً. تم ذلك بدءاً من سنة 222 هجرية (836 م)، باعتبارها منطلق الجهر بتعاليم ومبادئ الحركة الفكرية التي وضع أسسها صالح بن طريف، وظلت في طي الكتمان إلى أن اكتملت الشروط السياسية، ونضج المناخ الفكري لتقبلها من طرف الخاصة بالاحتجاج الكلامي، ونشرها في أوساط العامة بحد السيف.

وهو المذهب الفكري والكلامي الذي غدا — منذ هذا التاريخ — معروفاً لدى أهل القلم بالمذهب البرغواطي. وقد أفصحت المصادر المعتمدة عن التحول الذي حدث على يد يونس بن إلياس، رابع ملوك بني طريف، الذي أفلح في تجاوز فترة الكتمان والإقرار أمام الخاصة والعامة والقاصي والداني بحقيقة المذهب البرغواطي. وبذلك يكون قد تمكن من وضع وصية جده صالح بن طريف موضع التنفيذ، بعد مرور ما ينيف عن نصف قرن عن السر بها. وقد تناولنا بالذكر كيف أسر صالح بن طريف لولي عهده إلياس بسرّه، "وأمره أن لا يظهر ذلك إلا إذا قوي وأمن، فإنه يدعو إلى ملته"¹²⁹. وما دامت هذه الشروط لم تتحقق خلال الخمسين سنة التي أمضاها إلياس بن صالح في الحكم، فما كان على الحفيد يونس بعدما تقوى سلطانه وتمكن أمره، إلا أن يعمل بالوصية

¹²⁸ كتاب الإستبصار، 198.
¹²⁹ المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، 135.

فـ"أظهر دياناتهم ودعا إليها"¹³⁰. وليس أدل على ارتباط انتشار المذهب البرغواطي بالديار المغربية بشخصية يونس بن إلياس رابع ملوك بني طريف، من الخلط الذي وقعت فيه أمهات المصادر التاريخية، بين مؤسس المذهب صالح بن طريف ومعلمه يونس بن إلياس. نذكر على سبيل المثال، التباس الأمر على البكري¹³¹ فأثبت خطأ أن يونس القائم بدين برغواطة، هو الذي نشأ في برباط بكورة شذونة، ورحل إلى المشرق وتلمذ على غيلان الدمشقي.

لم يقتصر مجهود يونس بن إلياس على نشر تعاليم المذهب البرغواطي اعتماداً على أساليب الدعوة بالتي هي أحسن، والاحتجاج بالقول والجدال بالحجة، بل تخطاه إلى استعمال القوة. وهو في ذلك لم يبرح نصيحة المعلم الأول صالح بن طريف الذي أوصى وريث سره بأنه متى أنس في نفسه القوة والجبروت، فما عليه إلا أن "يقتل حينئذ من خالفه"¹³². لذلك فبمجرد إمساكه بمقاليد السلطة، شرع في "قتل من لم يدخل في أمره"¹³³. ويبدو أن بلاد تامسنا قد اشتعلت نارا، بين أتباع المذهب البرغواطي المعلن حديثاً، وبين المحافظين من أهل القبائل المستمسكين بالمذهب الصفري الموروث عن الأجداد. ولا غرو، فقد ظلت الصفرية، منذ بيعة ميسرة المطغري بصفته أول خليفة مغربي صفري، ومنذ تأسيس مملكتهم من طرف أب ملوكهم طريف بن عبد الله - على مدار ما ينيف عن قرن من الزمن - بمثابة المذهب الرسمي المعلن في كافة قبائل تامسنا.

بلغت دائرة المعارك من الاتساع وعمق حجم الاستئصال، أن عمد يونس بن إلياس إلى "حرق مدائن تامسنا وما والاها"¹³⁴. وقد بلغ هول الكارثة

¹³⁰ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.
¹³¹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137-138.
¹³² المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.
¹³³ المغرب، ج 6، 277.
¹³⁴ المغرب، ج 6، 277.

أن قيل "إنه حرق ثلاثمائة وثمانين مدينة"¹³⁵ حسب بعض التقديرات. بينما ذكر البعض الآخر أنه "أحلى ثلاثة مائة مدينة وسبعاً وثمانين مدينة"¹³⁶. ونتوفر على تفاصيل بعض المعارك، مثل المعركة التي جرت "بموضع يقال له تملوكاف، وهو حجر عال نابت وسط السوق"¹³⁷. ويبدو أن جيوش يونس بن إلياس قد باغت أهل القبائل المعارضة المتجمعين لقتاله عند سوقهم هذا، "فقتل منهم سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلاً"¹³⁸.

ولا يخفى دور المعارضة الشديدة التي أبدتها قبائل تامسنا للمذهب البرغواطي، وإصرارها على رفض المبادئ والأفكار الجديدة، المخالفة لما جبلوا عليه من التعاليم المأخوذة عن مشايخ الصفرية، في تأجيج نار الحرب الأهلية. وهو ما تجلّى من خلال مناوئتهم لمشروع يونس بن إلياس ورفضهم دعاويه وامتناعهم عن الانخراط في سلوكه، فما كان إلا أن "استلحم أهلها بالسيف لمخالفتهم إياه"¹³⁹. وبالمثل، لم يجد يونس بن إلياس بدا من حمل "جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه"¹⁴⁰.

واضح أن الأمر يتعلق بخلاف مذهبي بين المستمسكين بالمذهب الخارجي الصفري، والدعاة للمذهب البرغواطي. ولا تعوزنا القرائن الدالة على نجاح يونس بن إلياس في ربط عموم أهل بلاد تامسنا بالمذهب البرغواطي، فغدا منذ هذا التاريخ بمثابة المذهب الرسمي للمملكة، بدل المذهب الخارجي الصفري. هكذا فقد تمكن يونس بن إلياس من إعادة ترتيب أوضاع مملكة بني طريف، بعدما اختلت أركانها نتيجة اختراقات الإدارة الذين نجحوا في أكثر

¹³⁵ العبر، ج 6، 277.

¹³⁶ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

¹³⁷ العبر، ج 6، 277؛ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

¹³⁸ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136؛ العبر، ج 6، 277.

¹³⁹ العبر، ج 6، 277.

¹⁴⁰ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

من مناسبة في غزو حاضرتهم شالة. وفي سياق ذلك، بادر يونس بن إلياس إلى نقل خطط الدولة نحو "قاعدة ملكه مدينة شالة"¹⁴¹.

والجدير بالملاحظة أن مشروع يونس بن إلياس لم يتوقف عند حد إحكام قبضته على بلاد تامسنا، بل سرعان ما راودته فكرة نشر تعاليم المذهب البرغواطي في عموم بلاد المغرب. لذلك لم يتأخر عن نقل ميدان الفعل العسكري والمذهبي من "تامسنا [إلى] ما والاها"¹⁴² من القبائل المجاورة. وثمة قرائن كاشفة عن تجاوز طموحاته مواطن المجموعة القبلية المصمودية، في اتجاه رسم آفاق أوسع لسياسته. مصداق ذلك، ما ورد في ثنايا بعض المصادر عن شروعه في نقل ميدان فعله السياسي والعسكري والمذهبي نحو غير المصامدة من قبائل المغرب الأقصى. هكذا فسرعان ما أفلح في احتراق المواطن المجاورة "وقتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وغد"¹⁴³.

وحتى يواجه معارضييه ممن يتهمونه بالكفر والزندقة والخروج عن الملة، ويؤكد لأعدائه وأنصاره الاستمساك بالعروة الوثقى، بادر يونس بن إلياس إلى استكمال أركان دينه "ورحل إلى المشرق وحج ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده"¹⁴⁴. ولعل في ذلك ما يكشف عن درحات الأمن والاستقرار التي تحققت لمملكة بني طريف البرغواطية في عهده، وتوفي "بعد أن ملك أربعاً وأربعين سنة"¹⁴⁵، وهو ما يوافق حسب تقديرنا سنة 266 هجرية (897 م).

¹⁴¹ أصل الأعلام، 184.

¹⁴² المغرب، ج 6، 277.

¹⁴³ المغرب، ج 6، 277.

¹⁴⁴ المغرب، ج 6، 277.

¹⁴⁵ المغرب، ج 6، 277.

ثالثاً: العصر الذهبي للإمامة البرغواطية

1- محمد بن معاد أبو غفير وإعلان الخلافة (271-299)

ويبدو أن ثمة خلافاً على العرش قد دب على إثر وفاة يونس بن إلياس بين أبنائه الذين من صلبه وبين بني عمومته المنحدرين من فخذة اليسع بن صالح بن طريف. وهو الخلاف الذي أفضى إلى إقصاء فرع إلياس بن صالح عن الحكم "وانتقل الأمر عن بنيهِ"¹⁴⁶. وقد دام هذا الاضطراب في قمة الهرم السياسي بضعة سنين لينتهي 'نقيام أبي غفير محمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف'¹⁴⁷. ولا تعوزنا القرائن الدالة عن لجوء أبي غفير محمد بن معاد إلى القوة لحسم الصراع على الحكم داخل الأسرة المالكة لصالحه إذ ورد في بعض المصادر أنه "استولى على ملك برغواطية"¹⁴⁸. كما لا تغدو الدلائل عن دور الوازع المذهبي ودرجات الإيمان بالتعاليم البرغواطية والاصرار على توسيع مجالات تأثيرها في حسم الصراع لصالح هذا الفرع من بيت بني طريف، إذ شاع الخبر بأن أبي غفير محمد بن معاد قد "استولى على الملك بدين آبائه"¹⁴⁹. وقد تم له ذلك في تقديرنا حوالي سنة 271 هجرية (884 م).

ومنذ إمساكه بدفة الحكم، لم يذخر محمد بن معاد جهداً في توسيع رقعة المملكة وتقوية نفوذ الدولة، مما تطلب منه خوض معارك طاحنة في مختلف جهات البلاد. وقد بلغت حروبه ضد المناطق المخالفة من الشدة والبأس، أن ظلت تفاصيلها حية في ذاكرة مجمل قبائل المغرب، تتناقلها الألسن وتواترها الأقلام ويتغنى بها الشعراء. وهو ما أشارت إليه رواية البكري وتناقلها غيره من المؤرخين، بالقول: "وكانت له وقائع كثيرة في البربر مشهورة لا تنسى مع

¹⁴⁶ العبر، ج 6، 277.

¹⁴⁷ المغرب في ذكر بلاج البريقية والمغرب، 136.

¹⁴⁸ العبر، ج 6، 277.

¹⁴⁹ المغرب في ذكر بلاد البريقية والمغرب، 136.

الأيام¹⁵⁰. وهي الأيام والوقائع التي "أشار إليها سعيد بن هشام المصمودي"¹⁵¹. ضمن قصيدة شعرية نظمها على وزن مفاخرات عمرو بن كلثوم في معلته الشهيرة. وقد احتفظت مسالك البكري وعبر ابن خلدون، من ضمن قصيدة طويلة مروية على لسان أبو العباس فضل بن مفضل بن عمرو المدحجي، ببضعة أبيات كاشفة عن شراسة المعارك التي قادها أبو غفير يحمي بن معاد، وعن تمرسه في فنون الحرب والإغارة والفروسية، وعن تمكن البرغواطيين من السيادة على معظم قبائل البربر، ونشر الرعب في أوساط المخالفين.

كما تتضمن ثانيا هذه القصيدة إشارات غاية في الأهمية بخصوص مقالات خصوم برغواطة، ممن يتهمونهم بالسير في مسالك الضلال، والتمادي في الغي وراء ملكهم أبو غفير، الذي ينسبونه لخزيا وبهتاناً إلى النبوة. كما تشير هذه الأبيات الشعرية، إلى دور يونس رابع ملوك بني طريف، وأبناء إلياس ثالث ملوكهم، في قيادة قبائل البربر في دروب الحيرة. ويخص هذا الشاعر، مؤسس المذهب البرغواطي صالح بن طريف باللقب الذي اشتهر به في لسان أهل بلده الأمازيغ، إذ كان معروفا لديهم بـ "ورياوري"¹⁵². وهو اللقب الذي أثبتته البكري في مسالكه، مفصحا عن معناه "في البربرية: ورياوري، أي الذي ليس بعده شيء"¹⁵³.

ومن أبرز المعارك التي خاضها أبو غفير يحمي بن معاد "وقعة تيمغسن، وكانت مدينة عظيمة أقام القتل في أهلها ثمانية أيام من الخميس إلى

⁵⁰ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136، العبر، ج 6، 277.
¹⁵¹ انظر: العبر، ج 6، 277-78، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 138. وقد اُثرت إشارات الأبيات التالية:

قفي قبل التفرق واخبرينا	وقولي واخبري حبرا يفينا
هموم براير خسروا وضلوا	وخانوا لا سفوا ماء معيننا
الايام امة هلكت وظلمات	وزغت عن سبيل المسلمين
سيعلم قوم تامسنا اذا ما	اتوا يوم النشور مهيننا
هنالك يونس وبنو بنييه	يقودون البرابر مهطعين
اذا ورياوري رمت عليه	جهنم قائد المستكبريين

¹⁵² العبر، ج 6، 278.
¹⁵³ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

الحمير، حتى شرفت دورهم ورحابهم وسككهن بدمانهم¹⁵⁴. كما يشير النكري إلى وقعة أخرى لا تقل أهمية في ترصد فلول الإدارة الحسينية وحصد شوكتهم. ويتعلق الأمر بـ 'وقعة بموضع بهت عجز الإحصاء عن عد من قتل فيها'¹⁵⁵. ولعل في موقعي تيمغسن ووادي بهت ما يساعد على تحديد المحاور التي سارت في اتجاهها حركة أبي غفير محمد بن معاد التوسعية.

هكذا، سرعان ما بلغت مملكة بني طريف البرغواطية في عهد يوسف بن إلياس الغاية، إذ 'اشتدت شوكته وعظم أمره'¹⁵⁶. ومن أبرز قبائل المغرب الأقصى التي انضوت تحت إمرة مملكة بني طريف المنتظمة حول قاعدة شالة، وأخذت بمذهب برغواطي تامسنا، وأصبحت ممن 'يدينون لهم وهم على ملتهم: جراوة وزواغة والبرانس وبنو أبي ناصر ومجكصة وبنو أبي نوح وبنو واعمر ومطغرة وبنو بورغ وبنو دمر ومطماطة وبنو وزكسينت وعددهم ينتهي أزيد من عشرة آلاف فارس'¹⁵⁷. وهي المجموعات القبلية التي أكد ابن خلدون اندماجها في مملكة بني طريف وأخذها بالمذهب البرغواطي، اعتمادا على رواية زمور بن واردة بن البرغواطي، إذ قال: 'فضلا عن قبائل تامسنا، كان على دين برغواطة "عشرة آلاف سواهم مثل جراوة وزواغة والبرانس ومجكصة ومطغرة ودمر ومطماطة وبنو واركزكيت"¹⁵⁸.

٩٤ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136. والمعصود بهذا اللفظ المنطوق في لسان البربر الأمازيغ كالتالي تيمغيسين أي الحرير العير المسرفات من النساء والمعد تيمغيسيت وهو عكس الإماء المصطلح عن تسميتهن في لسان البربر الأمازيغ بالمعد تانا وقد تراجعت أهمية هذه المدينة خلال القرون اللاحقة، وعدت خلال سنة 605 مجرد قرية صغيرة تحتفظ بنفس اسمها القديم فريه بيمغسن، انظر ابن الرباب، التتوف إلى رجل التتوف. تحقيق أحمد البوقيق، الدار البيضاء، 1997، 408. ما زال هذا الموقع معروفا إلى اليوم بنفس اسمه القديم على بعد عدة أميال على يمين نهر مساب، من انهار المغرب التي تعرف الآن باسم وادي نهر الرشح، مما يدعو للتأشير في الآثار إلى المنابر للنديق في وسط موقعها وجراء ما مسحته من معابد وحفرات أثرية¹⁵⁹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136. وما زال وادي بهت يحمل إلى اليوم نفس اسمه القديم باخور مدينة مكناس.

¹⁵⁶ المغرب، ج 6، 277.

¹⁵⁷ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 140-41.

¹⁵⁸ المغرب، ج 6، 278.

ولعل في هذه التفاصيل ما يساعدنا على تحديد خريطة المملكة البرغواطية وهي في أقصى درجات اتساعها، إذ شملت فضلا عن بلاد تامسنا كافة الممتلكات السابقة للدولة الإدريسية في عمق المغرب الأقصى ببلاد البرانس وأحواز فاس، ممتدة في اتجاه تلمسان نحو مصب نهر ملوية، شاملة بلاد جراوة وزواغة، ومتعمقة في بلاد مطغرة نحو تخوم سجلماسة. كما اتسعت حدود المملكة نحو الشمال في اتجاه بحر المجاز، شاملة مجكسة وبلاد غمارة. مما يجعلنا أقرب إلى رسم حدود الممالك الثلاث التي اقتسمت حول هذا التاريخ القسم الأوفر من المغرب الأقصى: مملكة بني طريف البرغواطية المنتظمة حول قاعدتها بشالة، ومملكة بني مدرار الصفيرية المنتظمة حول قاعدتها بسجلماسة، ومملكة بني صالح السنية المالكية المنتظمة حول حاضرتها بنكور.

إلا أن النفوذ السياسي والجبائي لمملكة بني طريف، سرعان ما امتد إلى غيرها من المناطق والقبائل التي انضوت تحت جناح الدولة البرغواطية، في سياق علاقات التبعية والولاء، مع الاحتفاظ بعقائدها المذهبية المخالفة للمذهب البرغواطي. وهي المجموعات القبلية التي صنفت من طرف الرواة ضمن مراتب المملكة البرغواطية ممن ظلوا على مذاهبهم. وهو ما تم إثباته بالقول: إنهم "ممن يدين لهم من المسلمين وينضاف إلى مملكتهم: زناتة الجبل وبنو يلبت وبنو نمالثة وبنو واوسنيت وبنو يفرن وبنو ناغيت وبنو النعمان وبنو أفلوسة وبنو كونة وبنو يسكر وأصادة وركانة وايزمين ومنادة وماسينة وورصانة وترارة ومبلغ عددهم نحة اثني عشر ألف فارس"¹⁵⁹. وقد أحصى ابن خلدون أيضا هذه المجموعات القبلية المنضوية في سلك المملكة البرغواطية بالقول: إن بني يفرن وأصادة وركانة وايزمين وورصافة ورغصرارة كانت أيضا على دينهم.

¹⁵⁹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 141.

لعل في هذه الملاحظات ما يفصح عن استمرار بعض الجيوب القليلة مستمسكة مذهبيا بفناعاتها الزيدية العلوية، أو الشيعية البجلية، أو الصعرية أو الإباضية، إلى ما عدا ذلك من التيارات الفكرية، محتفظة بمشايعها وقياداتها المحلية، مع انخراطها سياسيا وجبائيا في سلك الدولة البرغواطية. وقد كشف البكري¹⁶⁰ عن طبيعة العلاقة التي ربطها ملك برغواطية مع مشايخهم، بالقول: فكانت "تهاديه القبائل وتسلّفه". ويتعلق الأمر في تقديرنا بمجموعة من الكيانات المحلية المحدودة النفوذ التي اندرج ملوكها ومشايخها على التزلف لصاحب برغواطية، فكانوا "يهادونه ويدافعونه بالمواصلة"¹⁶¹.

والجدير بالملاحظة أن يحمّد بن معاد، عمّد على خلاف ملوك بني ضريف الأربع السابقين إلى استحداث لقب سلطاني ذي طابع خلافي خص به شخصه، باعتبار جلالة المنصب الذي شغله. ويتعلق الأمر باللقب الخلافي الذي رسم به المستوى الجديد الذي أصبح عليه النظام السياسي لدى البرغواطيين، إثر انتقال دفة الحكم من فرع إلياس بن صالح بن طريف إلى فرع البسّ بن صالح بن طريف. هكذا غدا اسم الملك يحمّد بن معاد مقرونا بلقب ذي طابع خلافي سامي ضمن خطط الدولة ومراتب الملك، فأصبح مخاطبا باسم أبي غفير.

وعلى غرار مشاهير الخلفاء الذين نبذوا حياة التقل والزهد، وسعوا إلى نيل وطرهم من الدنيا، وانعمسوا في البذخ وحياة القصور، مال أبو غفير يحمّد إلى الملذات واتخذ "من الزوجات أربعة وأربعون زوجة"¹⁶². وقد التبس الأمر على ابن حوقل فخلط بين شخصية الملك البرغواطي الزاهد إلياس بن صالح، وأبي غفير يحمّد هذا الذي نسبته خطأ إلى "النسك وترك الدنيا والإقبال على

¹⁶⁰ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

¹⁶¹ المعبر، ج 6، 278.

¹⁶² المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 136.

التقل والزهد¹⁶³. وتطالعنا المصادر المعتمدة بالخبر عن المدة التي قضاها أبو غفير يحمّد بن معاد في الحكم، إذ ملك حسب أدق الروايات تسع وعشرين سنة. وبينما يحدّد ابن خلدون تاريخ وفاته بالقول تعمّياً "وهلك أحرّيات المائة الثالثة"¹⁶⁴ يشير البكري أن أبا غفير قد مات "عند ثلاث مائة"¹⁶⁵. ونميل من خلال المعطيات المتاحة إلى اعتماد سنة 299 هجرية (911 م) كتاريخ لوفاة.

ويبدو أن البرغواطيين كانوا سباقين إلى إعلان نظام الخلافة بحاضرة سالة من بلاد تامسنا بالمغرب الأقصى. خلال السبعينات من القرن الهجري الثالث. وسرعان ما حذا الشيعة الإسماعلية حذوهم، فأعلنوا الخلافة الفاطمية بإفريقية خلال نهايات نفس القرن، وقد اتخذ إمامهم من ألقاب الخلافة لقب المهدي. ومن المعلوم أن صاحب قرطبة عبد الرحمن الأموي لم يتأخر عن الالتحاق بالركب، فأعلن الخلافة الأموية بالأندلس مختاراً لقب الناصر لدين الله. وقد كان ذلك إيذاناً بانفتاح فصول الصراع بين المذهب البرغواطي بالمغرب الأقصى، والتشييع الإسماعيلي بإفريقية، وتيار أهل السنة والجماعة الأموي بالأندلس. مع ما ينم عليه ذلك من رغبة في الانتقال بممالكهم أو بدعواتهم من درك الامارة إلى مستوى الخلافة. وهو المستوى السياسي الرفيع الذي يفسح المجال لصاحبه - حسب الأحكام السلطانية السائرة - من الانفراد بشرعية الحكم والإمساك بسلطان الأحكام والفتوى بالجنّاح الغربي لدار الإسلام. مع ذلك، لا تخفى عن البصيرة درجات التّرو التي تعرّضت لها فصول هذا الصراع، إذ اختفت إلى حد الطمس حلقة البرغواطية، التي تسعى جهد الامكان من خلال هذه المحاولة الباهتة، إلى انتشال بعض يسير من خيوطها الممزقة.

¹⁶³ صورة الارض، 82.

¹⁶⁴ المعبر، ج 6، 278.

¹⁶⁵ المعبر في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

2- عبد الله بن محمد أبو الأنصار في عز الإمامة (299-341)

وبعد وفاة أبي غنير محمد بن معاد، "ولي بعده ابنه أبو الأنصار عبد الله" ¹⁶⁶ بن محمد ابتداء من سنة 299 هجرية، وقد أصبحت الدولة البرغواطية قوية الشكيمة مهابة الجانب عظيمة الخيرات. وعلى غرار سلفه، اتخذ من الألقاب السلطانية لقب أبي الأنصار، وجنح نحو تغليب أسلوب المهادنة والسلام، ليس فقط بمملكة بني طريف بل بمجمل بلاد المغرب الأقصى. وبدلاً من استعمال القوة العسكرية الجبارة التي انتظمت تحت إمرته، في شن الحروب وإنفاذ الغارات على الخصوم، فقد أثر نهج سياسة مخالفة. وهي السياسة ¹⁶⁷ التي تتلخص في إظهار الجبروت والتلويح للخصم بمواطن القوة والتكشير عن الأنياب، لتلافي استعمالها. فقد كان "يجمع جنده وحشمه في كل عام ويظهر أنه يغزو من حوله فتهاديه القبائل وتستألفه، فإذا استوعب هداياهم وأطافهم فرق أصحابه وسكنت حركته" ¹⁶⁸. وسرعان ما أثرت هذه السياسة أكلها وأصبح أبو الأنصار عبد الله بن محمد "مهابة عند ملوك عصره يهادونه ويدافعونه بالمواسلة" ¹⁶⁹.

من الطبيعي والحالة هذه أن تنفتح على المغرب الأقصى فترة زاهية من الأمن والاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي، فمال الجميع إلى غمد سيوفهم ونبذ الحروب والمشاحنات. فما كان إلا أن انتظمت عمليات التبضع والتسفير من وإلى بلاد تلمسان التي غدت "بلداً مستقلاً بنفسه عن الحاجة" ¹⁷⁰ وتراكت

¹⁶⁶ المعبر، ج 6، 278.

¹⁶⁷ ولد أنساق المورحون المغاربة إلى نسب ابتكار هذا النهج السياسي للمارشال ليوطي المقيم العام الفرنسي بالمغرب وهو تحت نير الاستعمار، وقد أخذ بسياسة إظهار القوة والجبروت لتلافي استعمالها أسلوباً في مواجهة الشعب المغربي. ويطلبنا هذا الفصل من تاريخ المغرب أن الأمر يتعلق بطريقة في الحكم تعود لما ينفذ عن غيره فروع خلف، تم اعتمادها من طرف السلطان المغربي أبو الأنصار عبد الله بن محمد بن معاد بن يوسف بن صالح بن طريف.

¹⁶⁸ المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، 137.

¹⁶⁹ المعبر، ج 6، 278.

¹⁷⁰ صورة الأرض، 83.

باسواقها أصناف البضائع والخيرات، وتدفقت على خزائنها الأموال والجبايات. فبالإضافة للسفن التي كانت تجوب سواحل بلاد تامسنا محملة بأصناف البضائع المشحونة من مرافئ غرب الأندلس، كان "يصل إليهم أهل أغمات والسوس أيضا بالتجارة، وكذلك قوم من أهل سجلماسة"¹⁷¹. ولم يذخر أبو الأنصار عبد الله بن محمد جهدا في توفير الجو الأنسب للتجارة والتجار، ولعموم المتمرين للأموال والخيرات، حتى اشتهر في أبعد الآفاق بكونه، "ظريفا يفي بالعهد ويحفظ الجار ويكافئ على الهدية بأضعافها"¹⁷². فضلا عما اشتهر به من سخاء وكرم وعلو همة، "كان كثير الدعة مهابا عند ملوك عصره"¹⁷³. مع ذلك، لم تكن الثروة والعز والسلطان لتزيغ أبا الأنصار عبد الله عن سنة أسلافه من أئمة وملوك برغواطية، في نبذ حياة البذخ والأخذ بالتقشف في الزي، والنظش في المعيشة. فقد كان يقتصر على "لبس السراويل والملحفة، ولا يلبس القميص ولا يعتم إلا في الحرب، ولا يعتم أحد في بلده إلا الغرباء"¹⁷⁴. وليس أدل على ما آلت إليه أوضاع المملكة في كنفه من عز وسؤدد، من الوصف الذي خص به أحدهم عصره، إذ قال: "فملك في دعة اثنتين وأربعين سنة"¹⁷⁵. مما يجعلنا نحدد تاريخ وفاته سنة 341 هجرية (952 م).

وبدلا عن القوة وإنفاذ الحملات العسكرية، مال أبو الأنصار عبد الله بن محمد إلى استخدام أسلوب الدعوة والتنظيم المذهبي في اختراق المناطق المضطربة، وضمان تبعية القبائل التي تحتضن فلول الأدارسة والتيارات المذهبية المخالفة. ويبدو أن ثمة شبكة من دعاة ومقدمي ومشايخ المذهب البرغواطي، قد تم بثهم منذ عقود في غير بلاد تامسنا من قبائل المغرب

¹⁷¹ صورة الأرض، 83.

¹⁷² المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

¹⁷³ المغرب، ج 6، 278.

¹⁷⁴ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

¹⁷⁵ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 138.

الأقصى. وتقدم قتائل محكسة وبني واعر أو عمارة أنور مثال بهد
الخصوص. فقد سلفت الإشارة إلى ما أثبتته البكري في مسالكه¹⁷⁶ وابن حلدون
في عمره¹⁷⁷ عن انضواء قبيلة محكسة على وجه الخصوص، وعامة قتائل بني
واغر في المذهب البرغواطي.

وفي تقديرنا، أن من الله الملقب بأبي خلف، يعتبر أول داعية للمذهب
أنر عواطي بجمال محكسة من بلاد غمارة. مصداق ذلك، ما ذكر عن كثرة
الأناس الذين ساروا على خطاه ببلاد غمارة، وهم يرددون عبارات دالة عن
نوره الريادي في نشر تعاليم المذهب البرغواطي. فقد ثبت أنهم كانوا يرددون
بعد تهليل يهللونه¹⁷⁸ القول: "آمنت بحاميم وبأبيه أبي خلف من الله"¹⁷⁹. وقد
نبه البكري على المقصود بقولهم "أبي خلف، يريدون أبا حاميم"، مما يفصح عن
جذور حركة حاميم بجمال محكسة في نواحي تيطاوين، التي تعود إلى عصر
الملك البرغواطي السابق أبي غفير محمد بن معاد. والواقع أن الأمر يتعلق
بمجموع أفراد أسرة أبي خلف من الله بن حريز بن عمرو بن وجفوال بن
وزروال، المتشبعين بالتعاليم التي راموا نشرها انطلاقاً من قبيلة محكسة بكافة
ربوع غمارة. فقد اشتهرت أخته تانفيت بنت حريز أيضاً بالنبوغ في أصول
المذهب، والتفاني في نشر الدعوة التي انتهى عامة أهل البلد بالانخراط فيها،
بقولهم: "آمنت بتانفيت"¹⁸⁰.

وفي عهد الإمام البرغواطي أبي الأنصار عبد الله، ذاع صيت الداعية
"أبي محمد حاميم بن من الله بن حريز بن عمرو بن وجفوال بن وزروال"¹⁸¹.

¹⁷⁶ ¹⁷⁷ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 141 ويصبط ابن حلدون نسب عمارة اعتماداً على إجماع أهل
البحر من سانية البربر، بقوله "ومن مصموده عمارة بنو عمار بن مصطفى بن مليل بن مصمود" العبر، ج 6،
118

¹⁷⁷ العبر، ج 6، 278

¹⁷⁸ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100

¹⁷⁹ الاستقصا، ج 1، 192 العبر، ج 6، 288

¹⁸⁰ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100 العبر، ج 6، 288

¹⁸¹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100

وقد حدد البكري مواطن هذه الفخذة القبلية الغمارية بالقول: "وبنو وجفوال رهط حاميم ينزلون على نهر راس، وهو على ثلاثة أميال من مدينة تيطوان"¹⁸². ومن أفراد أسرة حاميم الذين تألق نجمهم ضمن مراتب الدعوة، نذكر أخته دجو¹⁸³ التي كانت من أجمل الناس "وكانوا يستغيثون بها في الحروب والقحوط"¹⁸⁴. وعلى غرار ملوك وأئمة برغواطة ودعاتهم، لم يسلم حاميم من لسان وأقلام خصومه، الذين لم يترددوا عن كيئه أصناف التهم بالكفر والزندقة والمروق. فليس مصادفة أن يتم نعته، على غرار صالح بن طريف وغيره من أئمة وملوك برغواطة، بـ 'حاميم المتبئ بجبال غمارة'¹⁸⁵. كما شاع الخبر عنه في الآفاق بكونه قد تنبأ بذلك الصقع¹⁸⁶، حيث افترى على الناس و"ادعى النبوة"¹⁸⁷، إلى أن غدا مشهورا بحاميم المفترى. كما هوجمت عمته تانفيت التي نسبت إلى السحر والكهانة وغير ذلك، وهي نفس النعوت التي علقت بأخته دجو.

وبالمثل، فليس من قبيل المصادفة أن يتناقل الرواة الخبر بأن حاميم "صنع لهم قرآنا كان يتلوه عليهم بلسانه"¹⁸⁸ المجكسي الغماري، وأنه قد وضع لهم قرآنا بلسانهم¹⁸⁹ الأمازيغي. والغالب على الظن، أن الأمر يتعلق — كما سلف الذكر — بنفس المتن المترجم إلى اللسان البربري، على يد صالح بن طريف البرغواطي. وثمة دلائل إضافية عن مواطن التطابق بين المذهب البرغواطي وحركة حاميم، تتجلى من خلال الإشارات المتواترة عن اهتمام

¹⁸² المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 101. وما زال النهر يعرف إلى اليوم بوادي راس ساحية مدينة تطوان.

¹⁸³ العبر، ج 6، 288.

¹⁸⁴ الاستقصا، ج 1، 192.

¹⁸⁵ العبر، ج 6، 288؛ الاستقصا، ج 1، 192.

¹⁸⁶ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100؛ كتاب الاستبصار، 191.

¹⁸⁷ الأنيس المطرب، 98.

¹⁸⁸ العبر، ج 6، 288.

¹⁸⁹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100.

حاميم بأمور الفلك "وعلم استجلاب روحانية ما يشاؤون من الكواكب"¹⁹⁰. إلا أن ثمة جزئيات تجعلنا أقرب ما نكون إلى الإقرار — بدون تردد — أن حركة حاميم ما هي إلا امتدادا للمذهب البرغواطي ببلاد غمارة. والمقصود هنا ما سلف ذكره عن التزام حاميم بالتقليد البرغواطي الشائع في بلاد تامسنا، فـ"حرم عليهم الحوت حتى يذكى"¹⁹¹. ونتوفر على نص بالغ الوضوح في الكشف عن صحة مقالنا بانتشار المذهب البرغواطي على يد الداعية أبي خلف من الله، وعلى يد ابنه أبي محمد حاميم في مجموع بلاد غمارة. فقد ورد الخبر صريحا بأن "برغواطة الذين كانوا بتامسنا وأنفا، وجهات الريف الغربي"¹⁹² أي في بلد غمارة على وجه التحديد.

تجدنا إذا أمام داعية للمذهب البرغواطي في بلاد غمارة انطلاقا من قبيلة مجكسة بناحية مدينة تيطاوين، خلال إمامة أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن معاد. وهو ذات المعنى الذي ضمنه الشاعر عبد الله بن محمد المكفوف الطنجي، قصيدة شعرية نظمها في هجاء مقال أهل غمارة "افتراء، أن حاميم مرسل إليهم بدين واضح الحق باهر، [بينما هي مجرد] أحاديث إفك حاك إبليس نسجه"¹⁹³. فما عسى أن يكون إبليس، سوى الإمام البرغواطي الذي أرسل إلى أهل غمارة داعيته حاميم رسولا. وقد سلف أن بينا في الفصول السابقة، درجات ما دأب عليه المتكلمون من أهل الملل والنحل، من تلاعب مقصود بين منطوق ودلالات ألفاظ: من شاكلة النبي، والرسول، والتنبؤ، والنبوة، وما إلى ذلك.

وقد كان مبدأ حركة حاميم بإجماع المصادر المعتمدة، سنة "ثلاث عشر وثلاثمائة بجل حاميم المشتهر به قريبا من تطوان. وقد اجتمع إليه كثير منهم،

¹⁹⁰ نفس المصدر والصفحة.
¹⁹¹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100.
¹⁹² العبر، ج 6، 244.
¹⁹³ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 100-101.

واقروا بنبوته، وشرع لهم الشرائع والديانات والعبادات والأحكام¹⁹⁴، على شاكلة ما كانت عليه الأمور ببلاد تامسنا منذ إمامة يونس بن إلياس. ولا تعوزنا التفاصيل الدالة على مدى نجاح حاميم في استهواء كافة فروع قبيلة مجكسة، ومعظم القبائل الضاربة بنواحي وادي راس ووادي لو، مثل بني شداد وبني سعيد وبني قطيطن وبني يروتن، إلى أقصى مواطن 'مصمودة الساحل من أحواز طنجة'¹⁹⁵. مصداق ذلك، ما شاع ذكره في المصادر التاريخية بالقول: "وأجابه بشر كثير من غمارة"¹⁹⁶. كما تواتر الخبر ضمن كتب التاريخ، في إحصاء كثرة من "اجتمع إليه من غمارة"¹⁹⁷، ووصف أعداد من "دخل في دينه، خلق كثير من غمارة"¹⁹⁸.

وليس مصادفة أن تشهد جبال قرطبة بالأندلس، خلال ذات العصر، وعلى مدى العقود الأربعة التي قضاها أبو الأنصار عبد الله بن يحمى في الحكم حركة مذهبية مماثلة. ويتعلق الأمر بمذهب محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح الجبلي. والجدير بالملاحظة أن "قي نسبه غموض"¹⁹⁹، على غرار كثير من أعلام الفكر والثقافة والفنون من أهل المغرب الذين حصل لهم تألق بالأندلس. ومع ذلك، فقد أمكننا الوقوف على رواية فريدة ترجح انتساب محمد بن مسرة في البربر وأن أباه عبد الله "مولى لرجل من البربر من فاس"²⁰⁰. وبالمثل، لم يكن مذهبه الفكري الذي بصم بعمق مجمل الحياة الفكرية بالأندلس أقل تعرضاً للطمس، حتى غدا من الأغاى المستعصية على الفهم. ومن المعلوم أن الحركة المسرية بالأندلس، مثلها مثل حركة حاميم بغمارة، والمذهب

¹⁹⁴ المعبر، ج 6، 278.

¹⁹⁵ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 101.

¹⁹⁶ كتاب الاستبصار، 191.

¹⁹⁷ الاستقصا، ج 1، 192.

¹⁹⁸ الأتيس المطرب، 98.

¹⁹⁹ المقتنس 5، 35.

²⁰⁰ لنن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس (= علماء الأندلس)، القاهرة 1966، القسم الأول، 217.

البرغواطي بتأمينا، طلّت على مدار العصرين الوسط والحدث إلى الله.
مستعصية على الفهم.

وكما هو الشأن بغمارة، حيث أحد حاميم مشعل دعوته عن الله إلى
خلف من الله، فإن محمد بن مسرة (269-319 هجرية) تلقى أسرار حركته
أيضا على يد أبيه عبد الله، المتوفى سنة ست وثمانين ومائتين. ونصّح أحد
الرواة في نص بالغ الأهمية عن لحظة انتقال أسرار المذهب من الأب إلى الابن
الذي أصبح بعد وفاته موكلا بمتابعة مهام الدعوة. ويتعلق الأمر بأمر حارث
الخشني، الذي نقل عن أحد ثقاته أن عبد الله بن مسرة قد رحل إلى المشرق في
آخر عمره رحلة ثانية، بعد أن كبر ابنه محمد وأخذ عنه وترك كتبه بيده²⁰¹.
وقد أكد ابن العرضي²⁰² أن "محمد بن عبد الله بن مسرة... سمع من أبيه" وتلمذ
عليه. ومن المفيد الانتباه إلى الأخبار السائرة في كتب التراجم، بأن "عبد الله
كان متهما بالقدر"²⁰³. إلا أنه كان شديد الكتمان له، لا يسره إلا للثقة من
أصحابه. يتجلى ذلك من رواية محمد بن إبراهيم بن حيون الذي كان "يشهد
على عبد الله بالقدر ويقول كان يخزن فيه"²⁰⁴، أي يكتمه ولا يجهر به. ومن
المعلوم أن صالح بن طريف، مؤسس المذهب البرغواطي وواضع أصوله ببلاد
المغرب، كان ينسب إلى القدر أيضا، منذ تتلمذ على غيلان الدمشقي ببلاد
الشام، كما سلف الذكر. لذا شاع على لسان الناس، نعتة بـ "القدري صالح بن
طريف البرغواطي"²⁰⁵. ولا نستبعد أن يكون صاحب برغواطة أبي غفير يحمّد
بن معاد، وراء ظهور أبي خلف من الله بصفته داعية للمذهب بغمارة. وبالمثل،
نميل إلى الاعتقاد بأن ذات الإمام البرغواطي أبو غفير يحمّد بن معاد كان وراء

²⁰¹ لمقتبس 5، 36.
²⁰² طماه الأندلس، ق 2، 39.
²⁰³ طماه الأندلس، 217.
²⁰⁴ طماه الأندلس، 218.
²⁰⁵ لروض المعطار، 435.

تنصيب عبد الله بن مسرة أيضا بصفته داعية لذات المذهب بالأندلس، وأن كليهما قد عهد لابنه: الأول لحاميم بغمارة والثاني لمحمد بن عبد الله بن مسرة بالأندلس.

ومما يجعلنا نميل إلى هذا الاعتقاد التوافق الشبه التام الذي خلصنا إليه من خلال مقارنة أصول المدرسة المسرية²⁰⁶ بالمذهب البرغواطي. فعلى عرار قدرية واعتزالية المذهب البرغواطي، فمن المعروف أن محمد بن عبد الله بن مسرة كان "يقول بخلق القرآن"²⁰⁷. كما كان على غرار صالح بن طريف والأئمة البرغواطيين "يقول بالإستطاعة وإنفذ الوعيد ويحرف التأويل في كثير من القرآن"²⁰⁸، حسب دعوى خصومه. كما جال بأقطار المغرب، وجلس بالقيروان في مجلس "أحمد بن بصر بن زياد، وكان عالما بالمناظرة وعنده جماعة من المناظرين في المسائل، حتى دخل عليه محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي، في حين توجهه إلى الحج"²⁰⁹. وعلى نهج صالح بن طريف الذي تتلمذ على عمرو بن عبيد وغيره من أقطاب المتكلمين، تردد محمد بن عبد الله بن مسرة بديار المشرق "مدة، فاشتغل بملاقة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة"²¹⁰. بلغ التوافق بين الاعتزال والمسرية أن غدا من المتعارف عليه

²⁰⁶ ويعتبر كتاب المستشرق الإسباني أسير بلاتيو أول عمل ضخيم انحز عن حركة ابن مسرة *Ibn Massarra y su escuela* ولم يتردد الدارسون العرب والإسبان وغيرهم بعدئذ عن تعليله والسير في ركاب ما صاعه عن انتماء حركة ابن مسرة في المدرسة الأفلاطونية الحديثة أنظر: أنخل جنثالث بالنتيا، تاريخ الفكر الأندلسي، القاهرة، 1955، 326-32. كما أنحر محمد الورد عملا جامعيا في الموضوع لا يخرج عموما عن الخطوط الفكرية المرسومة. وهي التصورات التي تناولناها بما تستحق من نقد ومراجعة، من خلال تحليل مضامين المصادر المغربية الأندلسية، خلصنا فيها إلى أن الأمر يتعلق بتركيب مذهبي يتجاوز كافة المذاهب الفكرية المعروفة في الإسلام، يجمع بين عقلانية الاعتزال البرهانية، وثورية التشيع، وشعبية التصوف، بهدف صياغة نسق فكري قادر على تأطير سواد العامة المتدفقة في شكل بحر من السفلة والغوعاء بكبريات للحواضر وباليوادي على السواء. أنظر: عامة قرطبة، 195-198 وكذا "العامة والاتجاهات الفكرية بالأندلس" 45-54.

²⁰⁷ المغتصب 5، 27.

²⁰⁸ علماء الأندلس، ق 2، 39.

²⁰⁹ الديار المغرب، ج 1، 194-95.

²¹⁰ علماء الأندلس، ق 2، 39.

لدى مؤرخي الفرق، كيف "كان محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيج بالأندلس يوافق المعتزلة في القدر" ²¹¹.

مع ذلك، فقد بينا سلفا كيف نهل صالح بن طريف من معين أقطاب القدرية والمعتزلة والمتكلمين، دون أن يعتمد إلى تقليدهم، بل التمس لنفسه مذهبا خاصا عرف به. وبالمثل، فقد كان محمد بن عبد الله بن مسرة من ذات طينة الإمام، إذ لم ينعت بكونه معتزليا، بل أصبح "معروفا بمذهب من الاعتزال" ²¹². ينطبق نفس الشيء على موقفه من القدر والقدرية، إذ بعدما اغترف من معين الرواد الأوائل، أعاد صياغة أفكارهم ضمن أنساق جديدة. من ثم دقة العبارة التي وردت لدى بعض مؤرخي الفرق في إشارة لوجود تصور قائم بذاته عرف بـ "مذهب ابن مسرة في القدر" ²¹³، بما ينم عن تجاوزه المؤلف من الأفكار بهذا الخصوص. فمى عسى أن يكون مذهب ابن مسرة في القدر؟ وما عسى أن يكون مذهبه من الاعتزال؟

يمكن التماس الجواب على هذه الأسئلة من خلال النظر في بقية الأصول الفكرية التي استقر عليها البنيان المذهبي المنسوب لمحمد بن عبد الله بن مسرة. فعلى غرار ما سلف ذكره عن تنبؤ صالح بن طريف، وما تداولناه بخصوص غيره من الملوك والأئمة البرغواطيين الذين ادعوا النبوة، لم يسلم محمد بن عبد الله بن مسرة من ذات التهم. فقد ذكر ابن حزم أن "المصرية وكثير من موافقيه ينسبون إليه القول باكتساب النبوة، وإن من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس أدرك النبوة، وإنها ليست اختصاصا أصلا، وقد رأينا منهم من ينسب هذا القول إلى ابن مسرة" ²¹⁴. إنها نفس مؤثرات الروافض من الشيعة الإمامية الذين بصموا المذهب البرغاطي، قد صيغت من طرف الخصوم في

²¹¹ الفصل في الملل، ج 5، 65.

²¹² المفتاح، 5، 32.

²¹³ الفصل في الملل، ج 4، 138.

²¹⁴ الفصل في الملل، ج 5، 67.

عبارات توجب التكفير كما بينا سلفاً. وليس أدل على مؤثرات التشيع الباطني في فكر ابن مسرة، مما ورد على لسان صاعد الأندلسي²¹⁶ إذ لم يتردد عن إرجاعه ضمن "طائفة من الباطنية [منهم] محمد بن عبد الله بن مسرة الجبلي الباطني".

من الطبيعي والحالة هذه أن ينسب ابن مسرة إلى "الفتح في السنة"²¹⁶، ويتم إنزاله مثل البرغواطيين "منازل الملحدين"²¹⁷. كما اتهم بكونه ممن أثر السير في ركاب "الفرق الخارجة والرافضة"²¹⁸. ولم يتورع أتباعه في نظر الجمهور عن "الفتح في الديانة"²¹⁹، بما "ابتدعوه من مخالفة السنة والشذوذ عما عليه الجماعة"²²⁰. ولا تعوزنا الفرائض الدالة عن شروع محمد ابن عبد الله بن مسرة في بث أصول دعوته منذ وفاة أبيه، وقد انتبد لذلك بجبال قرطبة، مستخفياً عن الأنظار. ومن مخبئه الجبلي كان يشرف على شبكة واسعة من الأتباع في شكل حركة سرية بالغة الكتمان. مصداق ذلك، ما ورد في كتب التراجم عن 'خروجه إلى المشرق في آخر أيام الأمير عبد الله [إذ] اتهم بالزندقة فخرج فاراً'²²¹ بجلده. وبعدما استكمل تكوينه في طرق ومناهج الجدل وآداب المناظرة بقيروان إفريقية، وشحذ لسانه وقلمه بملاقاة كبار المتناظرين من أهل الكلام بالبصرة وغيرها من ديار المشرق، قفل راجعاً إلى الأندلس. وانطلاقاً من جبال قرطبة، استأنف الدعوة 'صدر دولة الخليفة الناصر لدين الله'²²²، أي خلال نفس الفترة التي نشط فيها حاميم بجبال غمارة.

²¹⁵ طبقات الأمم، تحقيق حياة العيد برعلوان، بيروت، 1985، 73

²¹⁶ المغتبيس 5، 20.

²¹⁷ مع الطيب، ج 3، 556.

²¹⁸ المغتبيس، 5، 22.

²¹⁹ المغتبيس 5، 27.

²²⁰ المغتبيس 5، 30.

²²¹ علماء الأندلس، ق 2، 39.

²²² المغتبيس 5، 20.

كما اشتهر محمد بن عبد الله بن مسرة بالجمع بين علوم الدين والدنيا، والاستبحار في كافة حقول المعرفة. فقد كان "كثير العلم بالأخبار، واسع الرواية للآثار، مفننا في المعرفة، فيلسوفا عليما وطبيبيا، ومنجما فلكيا، وأديبا بارعا، وشاعرا مقلقا، وخطيبا مصقعا، منسوبا إلى المعرفة بحق اللسان والحق بالعربية والحفظ للغة"²²³. لذلك لم يتردد الناس عن الإقرار له بالسبق، والاعتراف ببلوغه "مبلغ الإمامة في العلم"²²⁴. ولم يكن مع ذلك ليغفل أمور الفقه والأحكام، إذ كان "يسرد مسائل مدونة المالكية عمدة السنة سرد القرآن، ويشققها بالاجتلاب بأوضح برهان، حتى يخرج فيها أجزاء مختصرة حسنة، لم يزل الاجماع من مخالفيه إلى اليوم واقعا، على أنها أفضل وأوجز وأبسط مختصرة صيغت فيها"²²⁵. تجدنا إذا أمام عالم من طراز صالح بن طريف البرغواطي، قد جمع مثله تماما بين علوم النجوم والفلك والحكمة والطبيعة، وبين علوم الشرائع والأديان والفقه والأحكام، وتحكم في علوم البلاغة واللسان. ناهيك عن قدرات فذة على إقناع العامة، وإفحام الخصوم من أخص الخاصة، "قبرسوخه في بسط العلم وتأنيه في الاستدراج للخصم، كان يستهوي العقول ويصيد الأفتدة"²²⁶.

وتتضح المؤثرات الشيعية أيضا في أساليب الدعوة القائمة على التقية والتنظيم السري المحكم الحلقات في ربط الأتباع، بمقدمي ومشايخ المذهب، بالداعية محمد بن عبد الله بن مسرة، الذي يتكفل بربط كافة التنظيم بإمام العصر الذي نميل إلى اعتباره الإمام البرغواطي أبو الأنصار عبد الله، القائم بحاضرة شالة بالمغرب الأقصى. فمن مقر إقامته بضيعته ببعض قرى قرطبة، كان محمد بن عبد الله بن مسرة يشرف على نظام كامل للدعوة له فروع في

²²³ المقتبس 5، 31.
²²⁴ علماء الأندلس، 40.
²²⁵ المقتبس 5، 21.
²²⁶ المقتبس 5، 21.

كافة أقاليم وكور الأندلس، قد "اتخذ من راسخيم في مذهب دعاء وأئمة" وهو مع ذلك "لم يزل يستظهر عليهم بالمواثيق في الكتمان، إلا من النفات الوثاق العقدة، فاكتتم بذلك شأنه"²²⁸.

ومما يجعلنا أميل إلى الإقرار بأن حركة ابن مسرة تشكل امتدادا أندلسيا للمذهب البرغواطي، أخذها بالأصل الفكري الرابع الذي أضافه ثالث الأئمة البرغواطيين إلياس بن صالح للأصول الثلاث الموروثة عن مؤسس المذهب صالح بن طريف. ويتعلق الأمر بالنسك والزهد والتصوف. فقد شاع الخبر عما كان لمحمد بن عبد الله بن مسرة من "تدقيق في غوامض إشارات الصوفية"²²⁹. وعلى غرار ما سلف ذكره عن ملوك برغواطة بمن فيهم أبو الأنصار عبد الله بن يحمى، فقد اشتهر ابن مسرة وأتباعه "بما أظهروه من التقشف في الزي والتشظف في المعيشة"²³⁰. كما أظهر أتباعه "نسكا وعبادة وصلاة وصياما"²³¹، إلى ما عدا ذلك مما نسب لمحمد بن عبد الله بن مسرة "من نمط الصوفية"²³². ومع ذلك فمن المفيد الانتباه إلى أنه على غرار قدرية واعتزالية وتشييع ابن مسرة المتميزة عن كافة ما عرف لدى هذه المدارس الفكرية، فقد ورد الخبر أن محمد بن عبد الله بن مسرة "كان على طريقة من الزهد والعبادة بسق فيها"²³³ وتميز بها عما هو معروف عن كافة مدارس التصوف المعروفة.

واضح أننا أمام مذهب فكري مختلف عن كافة المذاهب التي أرخت لها كتب الفرق الإسلامية، يتضمن بصمات خارجية صفرية، وأفكارا قدرية اعتزالية، وأصولا شيعية إمامية، وأبعادا صوفية، قد ركبت جميعا في شكل

²²⁷ المقتبس 5، 21.

²²⁸ المقتبس 5، 21.

²²⁹ نعية الملقب، 76.

²³⁰ المقتبس 5، 25.

²³¹ الفصل في الملل، ج 4، 138.

²³² نفح الطيب، ج 3، 556.

²³³ جدوة المقتبس، القاهرة 1966، 63.

مذهب جديد. وهو بالذات ما لمسناه بتفصيل أثناء معاينتنا لشوء المذهب البرغواطي على يد صالح بن طريف ببلاد تامسنا بالمغرب الأقصى، ونظور حلقاته لاحقا على يد غيره من الأئمة البرغواطيين. ونحن الآن بصدد معاينة ذات المذهب البرغواطي في نسخته الأندلسية المعروفة بمذهب محمد بن عبد الله بن مسرة.

ويبدو أن الشيء الوحيد الذي ميز الحركة المسرية، باعتبارها فرعا متشعبا عن الأصل البرغواطي يكمن في عدم احتياج اتباعها من الأندلسيين إلى الترجمة البربرية الأمازيغية للقرآن الكريم. كما أن الدعوة المسرية لم تعتمد اللسان المغربي الأمازيغي في الكتابة والتأليف، ولا في أمور الدعوة، بل اعتمدت اللسان العربي الفصيح. لعل في هذه التحاليل ما يدعو المؤرخين ومؤرخي الفكر المغربي الأندلسي على وجه الخصوص، إلى مراجعة دفاترهم المتداولة، وإعادة النظر في هذه المسألة. وفي تقديرنا أن الوقت قد حان لترميم الخرم الواسعة مما تمزق من حلقات تاريخ الفكر والعلوم بالمغرب والأندلس. نبراسنا في ذلك ما يلوح من ضياء بواسطة مداومة الاجتهاد، مما قد يستحث الهمم لنبذ كسل التقليد، ويدعونا جميعا إلى التشمير عن مكامن الذات، لإعادة مد الجسور المنكسرة بين القرون الأربع الهجرية الأولى والعصور المتأخرة من تاريخ المغرب.

ونستشف من خلال القراءة بين السطور، أن ثمة حرب مستترة وتنافس غير معلن على الزعامة بين المرجعيتين: البرغواطية ممثلة في إمامة أبي الأنصار عبد الله بن محمد بشالة (299-341 هجرية) والسنية المالكية ممثلة في عبد الرحمن الناصر لدين الله الأموي بقرطبة (300-350 هجرية). ويبدو أن إقدام أمير الأندلس عبد الرحمن بن محمد على إرسال سرية عسكرية من

قرطبة إلى قصر مصمودة بساحل المغرب، للإجهاز على حركة حاميم ومباغتة قذنتها وقطع رؤوسهم، تمثل رسالة موجهة إلى الإمام البرغواطي القائم بشالة. فقد تواتر الخبر بـ "قتل حاميم المفترى بمصمودة الساحل من أحوار طنجة سنة خمس عشرة وثلاث مائة" ²³⁴. وهو ما فصله البعض بالقول: "وجهر الناصر المرواني من قرطبة عسكريا، فالتقت معه بأحوار طنجة سنة 315، فهزم وقتل لعنه الله وحمل رأسه إلى قرطبة" ²³⁵. ويتعلق الأمر في تقديرنا بفرقة عسكرية متربصة بالضفة الأندلسية، قد راقبت تحركات حاميم ببلاد غمارة، فلما نزل بقصر مصمودة باغته جند "الناصر ملك الأندلس فقبض عليه وقتل وصلب بقصر مصمودة" ²³⁶. وهو ما اعتبر في حينه انتصارا للسنة والجماعة على مذاهب الكفر والزندقة. ومن المفيد التذكير بأن عبد الرحمن بن محمد كان حينئذ منشغلا أشد الانشغال بترتيب أموره، ووضع اللمسات الأخيرة التي تكلفت بإعلان الخلافة الأموية بقرطبة سنة 316 هجرية، متخذا لقبه السلطاني أمير المؤمنين الناصر لدين الله.

وبدلا عن الحرب المفتوحة بين الشرعيتين الخلافتين السنية بقرطبة والبرغواطية بشالة، يبدو أن كلاهما قد أثر التنافس المضمّر. فبقدرما تحركت أداة الدعوة البرغواطية ممثلة في الحركة المسيرية التي بلغت من الانتشار بكافة شبه الجزيرة الأندلسية، أن "ذعر لها أهل السنة من أهل قرطبة وتوقعوا منه البلية" ²³⁷، مال عبد الرحمن الناصر لاصطناع وممالئة القبائل المهمشة بالمغرب الأقصى وتجييشها للضرب في عمق المغرب الأقصى. وقد كان شيخ قبائل مكناسة موسى بن أبي العافية بمثابة الجواد المناسب الذي ركبته خلافة قرطبة الأموية، وتمكنت بفضلها من خلخلة مجمل النظم السياسية القائمة بالعدوة

²³⁴ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 101، البيان المغرب، ج 1، 192.

²³⁵ كتاب الاستبصار، 192.

²³⁶ الانس المطرب، 99.

²³⁷ المعسر، 5، 22.

المغربية. إلا أن التهديد الذي شكلته الخلافة الفاطمية المعلنة بإفريقية لمزاعم كلا الشرعيتين، واندفاعها بالجحافل العسكرية للسيطرة على المغرب الأقصى، واستخدام رموزها من فلول الأدارسة لمواجهة الأمويين، وتقزيم البرغواطيين، قد ألزمت قرطبة وشالة على تدبير خلافهما في شكل نوع من التنافس الحذر. وما أن زالت أسباب الحذر، حتى فتح عبد الرحمن الناصر حرباً لا هوادة عليها ضد الحركة المسرية بالأندلس، فيما عرف في حوليات العصر "بحماية السنة وإنكار البدعة"²³⁸. ولعل في هذا التحليل ما يفسر سبب تأخر عبد الرحمن الناصر على قوته وجبروته في شن هذه الحرب إلى "يوم الجمعة لتسع خلون من ذي الحجة سنة أربعين وثلاث مائة"²³⁹، حسبما ضبطه الرازي في تاريخه. ويكشف الإخباريون عن تفاصيل المحنة العظيمة التي نالت أتباع ابن مسرة ابتداء من هذا التاريخ. كما أفصحت عما تعرضت له "كتب ابن مسرة في أيام الخلافة"²⁴⁰ من حظر وإتلاف، و"تبعّت مصنفاته بالحرق واتسع في استباحتها الخرق وغدت مهجورة على التاليين محجورة"²⁴¹. ونظراً لاستمرار الترصد والمتابعة والتكيل، وأخذ أتباع ابن مسرة بالظن واستباحة الدماء بالقتل والصلب والتمثيل، سرعان ما غدا الحصول على "مجلد من تأليف ابن مسرة الجبلي"²⁴² من الأمور النادرة. مما يفسر عمق البتر وحجم الإتلاف الذي تعرض له هذا الصنف من الفكر المغربي الأندلسي، الذي آلت حلقاته إلى الضياع في غياهب النسيان، ابتداء من هذا التاريخ وعلى مدار القرون اللاحقة. ومع اختلال التوازن السياسي والاقتصادي والدبلوماسي لصالح قرطبة، التي غدت منذ هذا التاريخ محور الفعل الحضاري بالغرب الإسلامي، مالت

²³⁸ المقتبس 5، 20.

²³⁹ المقتبس 5، 24.

²⁴⁰ ابن الحاج، كتاب النوارل، مخطوط المكتبة العامة بالرباط، ج 55، 291.

²⁴¹ نفح الطيب، ج 3، 557.

²⁴² مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكسية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، 1979، 80.

إمامة برغواطة إلى مهادة قرطبة في إطار تغليب المنافع المشتركة التي يدرها نظام التثمير التعاقدى²⁴³ على الجميع، باستلهاهم سياسة التحالف الراسخة عبر القرون الماضية بين المملكتين. يتجلى ذلك من خلال وصية الملك البرغواطي أبي الأنصار عبد الله بن محمد لولده وولي عهده أبي منصور عيسى قبل موته، موالة صاحب الأندلس، وكذلك يوصي جميعهم المرشح للملك بعده²⁴⁴. مما يفصح عن عمق التكامل والتعاون والتحالف المتجذر الأصول في تاريخ العدوتين المغربية الأندلسية، رغم اتساع هوة الاختلاف المذهبي. ولعل في تعدد المخاطر المحدقة بالمملكة البرغواطية بالمغرب الأقصى حول ذات التاريخ، ما حدا بها إلى تمتين علاقات التعاون وحسن الجوار إلى حد التحالف مع الخلافة الأموية بالأندلس. فبصرف النظر عن عداة الفاطميين من الشيعة الإسماعيلية، وفلول الأدارسة من الشيعة الريدية لكليهما، لم تكن دولة بني مدرار من الخوارج الصفورية بسجلامة، التي مالت خلال هذه الفترة نحو المذهب السني أقل عداة للمملكة البرغواطية. وهو ما أشار إليه ابن حوقل الذي زار سجلماسة حول ذات التاريخ، بالقول: "وكننت ألفت محمد بن الفتح المعروف بالشاكر لله بسجلامة يدعو إلى غزوهم في سنة أربعين وثلاثمائة"²⁴⁵. وبعد وفاة أبي الأنصار عبد الله سنة 341 هجرية دُفن بأمسلاخت وبها قبره²⁴⁶. والجدير بالذكر أن مدن أمسلاخت وشالة وتيمغسن تعتبر من الحواضر البرغواطية العظيمة التي ما زالت بحاجة إلى تظافر جهود المؤرخين والأثريين لكشف آثارها وتحديد مواقعها والنبش عن بصماتها.

²⁴³ عن خصائص هذا النظم وحيثيات ظهوره وتطوره بالمغرب الأقصى والأندلس راجع أحمد الطاهري، الفلاح والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد: من نظام التثمير التعاقدى إلى نمط الإنزال الإقطاعي، (= الفلاح والعمران القروي) مركز إسكندرية للكتاب، إسكندرية 2004.

²⁴⁴ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.

²⁴⁵ صورة الأرض، 83.

²⁴⁶ البحر، ج 6، 278. ويبدو أن اسم مدينة أمسلاخت مركب من /امسا/ التي نبينا سلفا أصلها اللغوي ومعناها في اللسان: الأمازيغي، ولاحقاً وهو نوع من اللبن الغراب الذي يشبه به البيان ولا يستبعد أن يكون اسم هذه المدينة البرغواطية بحير على المدينة المنخدة من النراب على مشارف الماء بحر أو بحيره.

3- عيسى بن عبد الله أبو منصور سابع الأئمة (341-368)

وبعد وفاة أبي الأنصار عبد الله، تولى معاليد حكم مملكة بني طريف البرغواطية ابنه عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غنبر يحمّد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف²⁴⁷. وقد تربّع على حكم البلاد شاباً بافعاً، واحد من الألقاب السلطانية لقب أبي منصور وهو "ابن اثنتين وعشرين سنة، وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاث مائة، فسار سيرة أبيه ودان بديانتهم"²⁴⁸، أي ظل مستمسكاً بالمذهب البرغواطي. وفي عهده تم ترسيخ أسس التحالف الاستراتيجي والتوافق المذهبي بين المغرب والأندلس، وتنسيق الجهود بينهما في مواجهة الخطر الاسماعيلي المتروّد في موجات متعاقبة على المغرب الأقصى، معضوداً من طرف أذنا به من فلول الأدارسة، والمندس أيضاً في شكل حركات متربصة بالنظام الأموي في الأندلس.

وقد تواترت الأخبار في كتب التاريخ عن هذه السفارة البرغواطية التي أوفدها "ملك برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار" إلى الخليفة الأموي الحكم المستنصر، الذي أحب العلم والعلماء والحكمة والحكماء، ولم يذخر وسعاً في تقريبهم وفسح المجال واسعاً لحرية التفكير والتعبير، بما لم يتحقّق إلى اليوم في حضارة الغرب المعاصرة لدى أكثر البلدان حرية. وقد حلت السفارة البرغواطية بقرطبة في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاث مائة، يترأسها صاحب الصلاة "أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن واريذ بن البرغواطي"²⁴⁹، المشرف على خطة الإمامة بالجامع البرغواطي الأعظم بشالة. ولا يحال هنا شك في المكانة التي حظيت بها القضايا الفكرية والمذهبية صر

²⁴⁷ البيان المغرب، ج 1، 225.
²⁴⁸ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 137.
²⁴⁹ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 134.

جدول أعمال سفارة أبي صالح زمور، إذ "سأله الحكم عن أنساب برغواضة ومذاهبهم فأخبره"²⁵⁰. ومن المعلوم أن الخليفة الحكم المستنصر قد فصح المجال واسعا أمام القدرية والمعتزلة وغيرهم من أصحاب المذاهب لتولي خطط الدولة، مع استمساكه بمذهب أهل السنة والجماعة ورسوخ العمل بمذهب مالك إمام المدينة. لم يكن ذلك ليمنع من تداول كتب الدهرية والفلاسفة²⁵¹.

ويحل الب أن السفراء لم يعواضة قد كان لها أبلغ الأثر في تداول المصنفات البرغواضة - دسرس، وعورة حركة ابن مسرة وجمهور القائلين بالتقدير المستنصر للحكماء - مسند، ونحيم إلى الفعل من جديد في الحقل الثقافي بكل حرية. وبالمعنى، لا يسعنا أن يكون صاحب برغواضة قد اقتنع بإيعاز من الخليفة الحكم المستنصر إلى إعلان المنهي والسماح للقبائل المغربية المنضوية تحت حكمه - مدحج على أهل السنة والجماعة. نستشف ذلك من قول ابن عذاري²⁵² "محدث عن فرس برغواضة ولم يرل كثير من القبائل على مذهبهم إلى عام 352 هجرية، وهي ثلاث السنة التي انعقدت فيها البعثات الدبلوماسية بين الطرفين. إياهم أحرار محرومة من حلقة فكرية مغمورة لم نتوفق طوال العقدين الماصيين²⁵³ إلى شد انتباه الباحثين إلى أهميتها القصوى في فهم تاريخ الفكر والعلوم بالمغرب. لكن يبدو أن انشداد أنظر الباحثين من أهلنا المبهورين إلى حد العمي بسحر الغرب، الأخوذون بارتياح التقليد، المتأهبين لاستهلاك وترويج الأنساق الجاهرة، ما زالت تحت وقع تخدير قرون الظلام المتأخرة.

²⁵⁰ البيان المغرب، ج2، 234.

²⁵¹ البيان المغرب، ج2، 292-93.

²⁵² البيان المغرب، ج1، 227.

²⁵³ وهي الخصائص الفكرية والمعطيات الثقافية التي لم توقف عن إبراز معالمها ضمن جملة من الدراسات. انظر على سبيل المثال. أحمد الطاهري، الطب والفلاحة بالاتصال بين الحكمة والتجريب، البيضاء 1997.

ومن المفيد الانتباه إلى أن السفير صالح بن زمور، رغم كونه صاحب صلاة برغواطة فقد اضطر إلى الاستعانة في محادثاته مع الخليفة بـ "مترجم عنه بجميع ما أخبر به قدم معه، وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشرين المسطاسي من أهل شلة مسلم من بيت خيرون بن خير"²⁵⁴. لعل في هذه التفاصيل ما يؤكد استمرار البرغواطيين في أداء صلواتهم باللسان الأمازيغي وفق النسخة البربرية من القرآن التي ترجمها صالح بن طريف عن الأصل المنزل. ولعل في إقدام راوي الخبر على نعت المترجم عن السفير البرغواطي دون غيره بكونه مسلم، ما يدل على أن المقصود بالإسلام في هذا السياق إتقانه لسان العرب ليس إلا. واضح أن المملكة البرغواطية قد ظلت، منذ تأسيسها من طرف أب ملوكها خلال بدايات القرن الثاني الهجري إلى أن اندثرت خلال القرن الخامس الهجري، أمازيغية اللسان ولم تتحول عنه إلى اللسان العربي.

وفي عهد سابع ملوك بني طريف البرغواطيين بلغ المغرب الأقصى درجة عالية من القوة والمهابة، واتسع نفوذ المملكة وترسخت مكانتها بين الأمم، بفضل جهود الملوك السابقين وحكمة أبي منصور عيسى الذي "اشتد أمره وعلا سلطانه ودانت له قبائل المغرب"²⁵⁵. كما عم الرخاء والأمن والسلام كافة ربوع البلاد، ومال عامة أهل المغرب إلى التدين ونبذ المعاصي واكتساب الأخلاق الفاضلة، نتيجة لما اندرجت عليه برغواطة [من] أمانة وبذل للطعام وتجنب للكبائر من الحرام والمحظورات من الآثام"²⁵⁶. كما نال البرغواطيون العلا بفضل ما شرعوه من أحكام، إذ كان "يقتل السارق بالإقرار والبينة ويرجم في الزناء عندهم وينفى الكاذب ويسمونه المغير"²⁵⁷.

²⁵⁴ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 135.

²⁵⁵ العبر، ج 6، 278.

²⁵⁶ صورة الأرض، 83.

²⁵⁷ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 139.

ولربما في الإرجاف بغيبة الإمام المؤسس للمذهب صالح بن طريف
عصر الأثر في رسوخ التقوى في أوساط العامة. فقد سلفت الإشارة لمن زعم
أنه يعود إليهم في دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنه هو المهدي الأكبر الذي
يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال، وأنه يملأ الأرض عدلاً كما ملئت
جوراً²⁵⁸. وهي الوصية التي عاد الملك السادس في سلسلة ملوك بني طريف
أبو الأنصار عند الله لتذكير ولي عهده أبو منصور عيسى بتفاصيلها قبل وفاته،
قائلاً له: "يا بني أنت سابع الأمراء من أهل بيتك، وأرجو أن يأتيك صالح بن
طريف"²⁵⁹. وقد أكد الفقيه القرطبي ابن حزم عودة تداول هذا الزعم من جديد
بعموم بلاد المغرب والأندلس بعد حوالي قرنين من إشاعته، إذ قال: "وكفار
برغواطة إلى اليوم ينتظرون صالح بن طريف الذي شرع لهم دينهم"²⁶⁰.

وقد ظلت أحوال المغرب الأقصى في غاية الرخاء مع شيوع الطمانينة
والسكون في ظل التناسق الذي ظل قائماً بين مملكة بني طريف المصمودية
بشالة، ومملكة بني صالح النفزية بنكور، ومملكة بني مدرار المكناسية
بسجلماسة، إلى أن اختلت الأمور على إثر الانقلاب العسكري العامري بقرطبة
الذي اعتصب الشرعية الخلافية وجر مجمل الغرب الإسلامي إلى نفق الاستبداد
وتعطيل الشرائع والأحكام. تجلّى ذلك في فصل أول، من خلال دبيب الصراع
بين أذنان الخلافة الفاطمية من بربر صنهاجة وأذنان الخلافة الأموية من قبائل
زناتة وفلول الأدارسة، وذلك بمجرد وفاة الخليفة العالم الحكم المستنصر سنة
366 هجرية.

²⁵⁸ الديار المغرب، ج 1، 224.
²⁵⁹ العبر، ج 6، 278.
²⁶⁰ الفصل في الملل، ج 5، 38.

وقد بينا في دراسات سابقة²⁶¹ دور الطاغية المنصور بن أبي عامر، الذي تقانى منذ توليه منصب المخابرات العسكرية بالمغرب الأقصى إلى أن نفذ أحد أعظم الانقلابات العسكرية في تاريخ الإسلام بإرساء الدكتاتورية العامرية، في تفكيك التوازن القبلي بالمغرب الأقصى. ثم له ذلك بواسطة تجييش القبائل البدوية الضاربة في أحواز المغرب الأوسط والأدنى، التي ظلت طوال قرون عز العطاء الحضاري على هامش مراكز الفعل الثقافي والسياسي. ولم يكن المنصور بن أبي عامر أقل شراسة في إسكات صوت الحكمة وتتبع أقطاب العلماء والمفكرين بأصناف من التكتيل ومصادرة الرأي والإطباق في السجن وقطع الألسن والتمثيل. ولم يسلم أتباع بن مسرة وغيرهم من أهل المذاهب، من سيفه الذي حصد رؤوسهم، ومن عيونه وآذانه التي دبت في كافة أنحاء الأندلس والمغرب دبيب المرد، تحصي على الناس أنفاسهم، وتسري في المجالس ملتقطة أدق تفاصيل حياتهم، في نظام بوليسي قل نظيره في التاريخ. وقد فصلنا في أكثر من مناسبة دور الحجابة العامرية في بئر قسم من الفكر المغربي الأندلسي بترا يكاد يكون تاماً، كما بينا دوره في نخر نظام الجماعة والتمهيد لانغماس الأندلس في دروب الفرقة. ولم نكن قد انتبهنا بعد إلى أن دوره على المستويين قد شمل بلاد المغرب الأقصى أيضاً.

فبتجييش المنصور بن أبي عامر لقبائل زناته من بني يفرن ومغراوة في مواجهة بني بلكين وغيرهم من البطون الصنهاجية، انفتحت أبواب الفتنة القبلية بالمغرب الأقصى، وانفرطت السخائم العصبية، تغذيتها الأحقاد الفاطمية من مقر حاضرتها الجديد بالقاهرة، وقوى الردة العامرية المتربصة في منازلها القائمة بمدينة الزاهرة. وهو ما أشارت إليه المصادر التاريخية في عبارة

²⁶¹ A Tahiri, "El Magreb al-aqsa en la segunda mitad del siglo X. La intervención de Muḥammad b. Abī Amr", in *Al-Andalus y el Mediterraneo en torno al año Mil. La época de Almanzor*, Colección Historia 3, Algeciras, 2003, pp 171-78

مقتضبة داله بالقول "وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب ... وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبي عامر"²⁶². وفي حملة مضادة واسعة النطاق، تمكن أبو الفتوح يوسف بن زيري الصنهاجي ابتداء من سنة سبع وستين وثلاثمائة، من اختراق القبائل المشايعة للمنصور بن أبي عامر، "وفرت أمامه زناتة فملك فاس وسلماسة وأرض الهبط، وطرده منها عمال بني أمية"²⁶³، الذين انسحبوا من مناطق نفوذهم وتحصنوا بمدينة سبتة، حيث ترصصوا في انتظار وصول إمدادات ولي نعمتهم المنصور بن أبي عامر. وكانت هذه فرصة مناسبة للإجهاز على مملكة بني طريف البرغواطية، التي ظلت منفردة في ساحة المعركة. وهو ما أشار إليه ابن خلدون بالقول: "ثم انفتح له باب جهاد برغواطة، فارتحل إليهم وشغل بجهادهم وقتل ملكهم عيسى بن أبي الأنصار"²⁶⁴.

فمع تواتر الأخبار بسقوط ممالك المغرب الأقصى واحدة تلو الأخرى أمام حملات الزيريين الكاسحة، تم الارجاب باقتراب الغزاة من بلاد تامسنا تحت قيادة أبي الفتوح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي. وبرغم ما كان لها من بريق في أبعد الآفاق، لم يتردد عن هدم مدينة البصرة ومحا رسمها بعد طول مدتها وكثرة عمارتها... فصارت كأن لن تغر بالأمس، فلم تكن بصرة بالمغرب إلى الآن ودثر رسمها وكانت قديمة أزلية"²⁶⁵. فما كان إلا أن تاهب ملك برغواطة لصد قوى الهدم والخراب عن مملكته. والراجح أن المعارك بين الطرفين قد دارت رحاها في مكان ما بين شالة والبصرة حيث "لقية أبو منصور

²⁶² العبر، ج 6، 174
²⁶³ العبر، ج 6، 207
²⁶⁴ العبر، ج 6، 207
²⁶⁵ البيان للمغرب، ج 1، 231-32.

عيسى بن أبي الأنصار في قومه وكانت عليه الهزيمة، وقتل أبو منصور²⁶⁶ في ساحة المعركة، سنة ثمان وستين وثلاثمائة.

رابعاً: اختلال وسقوط المملكة البرغواطية

1- صالح بن عيسى واختلال المملكة (368-372)

يبدو أن ابن الخطيب قد أخطأ في اعتقاده بأن "آخر ملوك برغواطية، عيسى بن أبي الأنصار"²⁶⁷. وهو نفس ما يفهم من كلام ابن خلدون²⁶⁸ الذي أقر بأنه "لم يقف على من ملك أمرهم بعد أبي منصور". وقد سلم بذلك جمهور الدارسين²⁶⁹ ممن روجوا لاستحالة استكمال سلسلة ملوك برغواطية، بعد هذا التاريخ. بينما اضطربت بعض الروايات مقدمة أسماء ملوك برغواطيين لا تستقيم لهم وضعية ضمن سلسلة نسب ملوك بني طريف. نذكر منهم "أبو جعفر حفص"²⁷⁰ بن أبي غفير الذي ولي حسب زعم صاحب الاستبصار بعد وفاة أبيع أبو غفير سنة 230 هجرية. وهي الرواية التي ردها ابن الخطيب الذي ذكر أنه عند وفاة أبي غفير "ولي بعده أبو حفص عمر بن معاذ البرغواطي"²⁷¹. كما يزعم في رواية لا تقل اضطراباً أن خلفه هو "اليسع بن إسماعيل".

ونظراً لنقله دون تثبت من مصادر متداخلة وقع في سهو مماثل بخصوص اليسع ابن عمر بن معاذ، مع إثبات "أمر اليسع إلى سنة إثنين وخمسين وأربعمائة، وظهر أمر اللمتونيين"²⁷². إلى ما عدا ذلك من المزاعم

²⁶⁶ المعبر، ج 6، 279.

²⁶⁷ أعمال الأعلام، 187.

²⁶⁸ المعبر، ج 6، 279.

²⁶⁹ وقد نبه الدكتور محمود إسماعيل على خطأ هذا التقدير موجهاً البحث في الفصول المتبقية من تاريخ امراء

²⁷⁰ كتاب الاستبصار، 198.

²⁷¹ أعمال الأعلام، 186.

²⁷² أعمال الأعلام، 187.

التي تتم عن درجات الخلط والاضطراب الذي في الروايات المتعلقة بهذه الفترة الغامضة من تاريخ برغواطة.

ونميل إلى الاعتقاد أنه على إثر سقوط سابع ملوك برغواطة صريعا في ساحة الوغى، اجتمع البرغواطيون - والحرب سجال - على توليه ابنه صالح بن عيسى بن أبي الأنصار²⁷³ الذي أسعفنا الحظ في الوقوف على اسمه مثبتا في نص تاريخي فريد. كما وقفنا على بعض خصاله وعلى ما يثبت السير على نهج سلفه في الأخذ بالمذهب البرغواطي، إذ "كان فصيحاً شاعراً فأطاعوه حتى جعلوه نبياً"²⁷⁴. لا غرابة في ذلك، ما دما على علم بما سلف ذكره عن حقيقة التنبؤ لدى برغواطة كما لدى الشيعة الإمامية. ويخيل إلينا أن سابع الملوك أبو منصور عيسى، قد تعدد تسمية ولده وولي عهده باسم جده صالح بن طريف، حتى تستقيم الصورة الشائعة لدى أتباع المذهب البرغواطي، برجعة الإمام صالح في دولة السابع من ملوكهم.

ومهما يكن من أمر، فقد ظلت نار الحرب مستعرة في طول البلاد وعرضها، على مدار خمس سنين من السبي والقتل، وسيف الزيريين يردد العزو فيهم إلى سنة إثنين وسبعين وثلاثمائة²⁷⁵. وقد أشارت المصادر التاريخية إلى هول الموقف واستعار نار المعارك التي لم تنتوقف طوال السنوات الخمس عن حصد المزيد من الأرواح "فكانت بينهم حروب لم يجر قبلها مثلاً كان الظفر فيها لأبي الفتوح وقتل الله الكافر ابن عيسى وانهزمت عساكر برغواطة فقتلوا قتلاً ذريعاً وسبي نساءهم وذراريهم مما لا يحصى عددهم... وملك أبو الفتوح بلاد الغرب"²⁷⁶ بما يفصح عن انقطاع مملكة بني طريف خلال هذه السنة المؤرخة 372 هجرية.

²⁷³ البيان المغرب، ج 1، 237.
²⁷⁴ البيان المغرب، ج 1، 237.
²⁷⁵ العبر، ج 6، 279.
²⁷⁶ البيان المغرب، ج 1، 237.

هكذا لم يدم أمر الملك البرغواطي الثامن صالح بن عيسى أكثر من أربعة سنين أمضاها في محاربة أذئاب الشيعة الفاطميين المتربصين بالمغرب الأقصى، انطلاقا من مقامهم بإفريقية والقاهرة. وتؤرخ الحوليات التاريخية بدءا من سنة 371 دخول سبي البرغواطيين إلى المنصورية يوم السبت لثمان خلون من ربيع الأول فرأى أهل إفريقية من السبي ما لم يره أحد منهم لكثرتة وطيف بهم في المنصورية والقيروان²⁷⁷.

2- بقايا المملكة البرغواطية إلى حين سقوطها سنة 452.

وما أن تنفس البرغواطيون الصعداء بانحسار نفوذ الشيعة الفاطميين المتردد الموجات بفضل أذئابهم من قبائل صنهاجة الزيرية انطلاقا من المغرب الأوسط وإفريقية، حتى وقعوا تحت سطوة قبائل مغراوة وبني يفرن الزناتية، وقد تملك عليهم زيري بن عطية الذي "انبسط سلطانه من السوس الأقصى إلى الزاب، وكتب بالفتح إلى المنصور بن أبي عامر²⁷⁸ سنة 381 هجرية. ولما دب التنافس بين زيري بن عطية والمنصور بن أبي عامر، حرك هذا الأخير السخائم العصبية مستجيشا قبائل غمارة المصمودية، وصنهاجة البرنسية، وغيرهما من البطون المناهضة لحليفه بالأمس زيري بن عطية، وجحافل قبائله من بني يفرن ومغراوة. فما كان إلا أن اندلعت المواجهات بين المعسكرين، وقد استغل المنصور بن أبي عامر اختلال التوازن القبلي بالمغرب الأقصى، فمال بجحافله المتدفقة من الأندلس على بلاد تامسنا.

وتشير المصادر التاريخية إلى تمكين المنصور بن أبي عامر لقائد جيوشه "واضحا إمرة برغواطة هؤلاء فيمن قبله من الأجناد وأمرء النواحي

²⁷⁷ النيان المغرب، ج 1، ص 238
²⁷⁸ الأبيس المطرب، 103

وأهل الولاية، فعظم الأثر فيهم بالقتل والسبي²⁷⁹. وقد لخص أحد المؤرخين اجتماع السيوف على محاربة مملكة بني طريف البرغواطية، وحصد قبائل تامسنا المصمودية، على مدار ما ينيف عن قرنين من الزمن، منذ قيام دولة الأدارسة إلى أفول نجم الخلافتين الأموية بالأندلس والفاطمية بإفريقية ومصر، بالقول: "وكان لملوك العدوتين في غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم أثناء هذا وبعد آثار عظيمة من الأدارسة والأموية والشيعة"²⁸⁰.

وقد ظلت الفتنة تحصد رؤوس البرغواطيين، وغارات الممالك المخالفة تقفر مدائنهم وتحرق قراهم ومدائشهم، وتسبي نسائهم وذراريهم طوال هذه الفترة المضطربة، إلى أن تمكن بنو يفرن الزناتيون من التحكم مرارا في مملكة فاس الطائفية، والانفراد بعدد إقامة مملكة طائفية ببلاد تامسنا. وسواء بالأندلس أو بالمغرب الأقصى، تجدا إذا أمام نفس ظاهرة استفحال الطوائف التي مزقت أوصال العدوتين، على إثر اختلال نظام الجماعة بقرطبة²⁸¹ في فسيفساء من الممالك التي جرت البلاد والعباد في دروب الفتنة ومataهاat الفرقة.

وبما أن "تميم اليفرني كان رجلا مصمما في دينه الغالب عليه الجهل، [فقد] كان مولعا بحهاد برغواطة، كان يغزوهم في كل سنة مرتين فيقتل ويسبي"²⁸². وبعد تغلب المغراويين على فاس "قر عنها تميم اليفرني إلى مدينة شالة"²⁸³. وعندما استقر ملك بني يفرن الطائفي بسلا والنواحي، وأصبح أميرهم "موطنا بمدينة سلا ومجاورا لبرغواطة، فكان لهم أثر كبير في جهادهم وذلك في سني عشرين وأربعمئة، فغلبهم على تامسنا وولى عليها من قبله بعد أن

²⁷⁹ العبر، ج 6، 279.

²⁸⁰ العبر، ج 6، 278.

²⁸¹ لمزيد من التفصيل بهذا الخصوص، راجع: عامة قرطبة، 213-42؛ الفلاحة والعمران القروي، 43-66.

²⁸² الأنيس المطرب، 110.

²⁸³ الأنيس المطرب، 110.

أُخذ فيهم سبياً وقتلاً²⁸⁴. هكذا ما لبثت مملكة بني طريف البرغواطية أن تهاوت تحت وقع ضربات بني يفرن الزناتيين، الذين تمكنوا من إسقاط المملكة البرغواطية التي تحولت إثر ذلك إلى إمارة الدفاع. فما كان على بني يفرن الزناتيون إلا أن أقاموا مملكة طائفية بديلة ببلاد تامسنا. وهي الأحداث التي لخصها أحد الرواة بالقول: "قام فيهم الأمير تميم اليفرني وذلك بعد عشرين وأربعمئة من الهجرة، فغلبهم على بلادهم وسباهم، وجلا من بقي منهم، واستوطن ديارهم وانقطع أمرهم وعفا آثارهم، ولم يبق لضلالتهم باقية، ولا من أوامر كفرهم أصرة"²⁸⁵.

تجدنا إذاً أمام إحدى أكبر حملات الإبادة الجماعية التي نظمتها قبائل بني يفرن الزناتية ضد قبائل تامسنا المصمودية. وفي ذلك ما يكشف عن أول اختلال قبلي تم على أوسع نطاق بقلب المغرب الأقصى.

وعلى عكس ما يفهم من النص السالف، ظل المذهب البرغواطي نافعا في مجمل ما تبقى من بطون قبائل تامسنا طوال الفترة المذكورة. كما ظل علم المملكة مرفوعا، وإن في إطار إمارة الدفاع. وأثناء ذلك، لم يقف البرغواطيون مكتوفي الأيدي يجترعون كأس الردى في مواطنهم ببلاد تامسنا، بل سارعوا إلى استنفار قواعدهم المذهبية ببلاد غمارة، بل وكذا في عمق الأندلس. وقد تمكنا في دراسة سابقة من إثارة انتباه الدارسين إلى جملة من المؤثرات المذهبية ذات الطبيعة الغامضة التي بصمت إحدى أكبر وأعرق وأطول ثورة اجتماعية بالوسط الحضري في تاريخ الغرب الإسلامي. ويتعلق الأمر بثورة عامة قرطبة التي أفردنا لها في حينه بحثا مستقلا²⁸⁶.

²⁸⁴ العبر، ج 6، 279.

²⁸⁵ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 141.

²⁸⁶ عامة قرطبة، 213-42. وعن المكوبات اللاتينية والطبقية لعامة قرطبة ولطبقة العامة بالأندلس خلال الفترة الانتقالية بالعرب الإسلامي من نظام الجماعة إلى عصر العرقلة انظر دراستي. A. Tahiri, *Las clases populares en al-Andalus*, Editorial Sarria, Málaga, 2003, pp 15-77.

أُخِزنَ فيهم سبياً وقتلاً²⁸⁴. هكذا ما لبثت مملكة بني طريف البرغواطية أن تهاوت تحت وقع ضربات بني يعرن الزناتيين، الذين تمكنوا من إسقاط المملكة البرغواطية التي تحولت إثر ذلك إلى إمارة الدفاع. فما كان على بني يفرن الزناتيون إلا أن أقاموا مملكة طائفية بديلة ببلاد تامسنا. وهي الأحداث التي لخصها أحد الرواة بالقول: قام فيهم الأمير تميم اليفرني وذلك بعد عشرين وأربعمئة من الهجرة، فغلبهم على بلادهم وسباهم، وجلا من بقي منهم، واستوطن ديارهم وانقطع أمرهم وعفا آثارهم، ولم يبق لضاللتهم باقية، ولا من أوامر كفرهم أصرة²⁸⁵.

تجدنا إذاً أمام إحدى أكبر حملات الإبادة الجماعية التي نظمها قبائل بني يفرن الزناتية ضد قبائل تامسنا المصمودية. وفي ذلك ما يكشف عن أول اختلال قبلي تم على أوسع نطاق نطق المغرب الأقصى.

وعلى عكس ما يفهم من النص السالف، ظل المذهب البرغواطي نافقا في مجمل ما تبقى من بطون قبائل تامسنا طوال الفترة المذكورة. كما ظل علم المملكة مرفوعاً، وإن في إطار إمارة الدفاع. وأثناء ذلك، لم يقف البرغواطيون مكتوفي الأيدي يجترعون كأس الردى في مواطنهم ببلاد تامسنا، بل سارعوا إلى استنفار قواعدهم المذهبية ببلاد غمارة، بل وكذا في عمق الأندلس. وقد تمكننا في دراسة سابقة من إثارة انتباه الدارسين إلى جملة من المؤثرات المذهبية ذات الطبيعة الغامضة التي بصمت إحدى أكبر وأعرق وأطول ثورة اجتماعية بالوسط الحضري في تاريخ الغرب الإسلامي. ويتعلق الأمر بثورة عامة قرطبة التي أفردنا لها في حينه بحثاً مستقلاً²⁸⁶.

²⁸⁴ العبر، ج 6، 279.

²⁸⁵ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، 141.

²⁸⁶ عامة قرطبة، 213-42 وعن المكوات الأثنية والطبيعة لعامة قرطبة ولطيفة العامة بالأندلس خلال الفترة

الانتقالية بالمغرب الإسلامي من نظام الجماعة إلى عصر الفرقة أنظر دراستنا: A. Tahiri, *Las clases populares en al-Andalus*, Editorial Sarria, Málaga, 2003, pp. 15-77.

وليس مصادفة أن يتلبس منزعج الثورة محمد بن عبد الجبار بعد طول
 اعيبية في 'حال كتمان وخفية'²⁸⁷، بنفس فكرة المهدي المنتظر البرغواطيبة،
 سيما وأن عهد سابع ملوكهم قد حل خلال ذات التاريخ، وجميع البرغواطيين
 سواء بالمغرب أو الأندلس كانوا في انتظار رجعه. ولم يناحر المحالفون من
 أهل السنة عن الطعن في هذا الزعم وتوجيه اللوم لفائد الثورة محمد بن عبد
 الجبار الذي قبل ركوب الموجة، فادعى المهدوية وهو "اسم لم يتلبس به أموي
 قط، فكان ذلك أول مناكبره"²⁸⁸.

وقد أمكننا الوقوف على أسماء كبار مدبري الثورة "ممن فتن بمحمد
 المهدي وأسر منه التدبير"²⁸⁹، بما يكشف عن بصمات المذهب البرغواطي في
 ثورة عامة قرطبة، وهو ما لم ننتبه إليه في حينه²⁹⁰. وليس مصادفة أن ينعت
 كبير مدبري ثورة عامة قرطبة بـ"طرسوس المجوسي وكان أشهمهم"²⁹¹. ومن
 المعلوم أن مؤرخي السنة لم يترددوا عن نعت البرغواطيين بالمجوس ونسبهم
 بدور تحفظ إلى المجوسية والكفر.

فقد خص ابن ررع — على سبيل المثال — البرغواطيين بـ "أنهم
 محوس أهل ضلال وكفر"²⁹². ومن كبار مدبري ثورة عامة قرطبة نذكر أيضا
 "أبو سلمة الزاهد"²⁹³ الذي ذاع صيته في الآفاق بكونه ممن كان آية في "الزهد
 والتشفي"²⁹⁴. وقد بينا بما فيه الكفاية مدى انخراط المذهب البرغواطي،

²⁸⁷ ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليعي بروفيسال، رباط السح، 1934، 127.

²⁸⁸ أخبار المغرب، ج 3، 61.

²⁸⁹ ابن شكوال، أصله في أخبار أئمة الأندلس، تحقيق السيد عرب العطار الحسيني، القاهرة 1955، ج 1، 231.
 لا أحد يمكنه في حبه من ربط إحدى أبرز مظاهر عامة قرطبة ضد الحجاب العامرية ورمورها من أهل
 الفهم السنة المحبين لمطالمتها، مذهب ابن مسرة وهو ما عبرنا عنه حينئذ بالقول "ولا يستبعد أن يكون
 المصطفيون من أشاع ابن مسرة وغيرهم ممن صمد لسان وسيف الفقهاء ورء هذا التحرك" عامة قرطبة، 209.

²⁹⁰ أخبار المغرب، ج 3، 55.

²⁹¹ الأندلس المطرب، 130.

²⁹² أصله، ج 1، 231.

²⁹³ أصله، ج 1، 231.

هـ سعيها المصادر التاريخية للوقوف على نكح من قبل هـ
نوعه من كل لهم بعض التأثير في توجه سائر الأحداث التاريخية. بعد
من جهة المغرب والأندلس خلال عصر الطوائف. فقد أشار ابن حبان إلى
جماعة البرعواطين الذين ساهموا في تدبير خلافة إدريس بن يحيى العلوي
هـ علانها بمالقة سنة 434 هجرية. كما ورد الخبر أنه "اجتمع برعواطه الذين
دعاه مع [القمم] الفوز نجاء العلوي] على قتله ... ونهضوا إلى الورير إلى
حضر بن مهي فقتلوه هـ أخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه وبأيعود ونسب
العلوي

١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠

وقد تمكن سوجات البرغواطي ويسمى أيضا سفوت البرغواطي من تأسيس أسرة برغواطية مالكة بسبته وبلاد غمارة، ثم عهد لابنه العز بن سواجات بالحكم. وهو المشهور في المصادر التاريخية باسم الحاجب المنصور سفوت البرغواطي، الذي ظل في حكم البلاد إلى أن أزاحه المرابطون عن ملكه سنة 471 هجرية. وقد اعتبره البعض "آخر ملوك برغواطة: صاحب سبته وطنجة"²⁹⁹. ويدرج ابن حيان مملكته ضمن المتغلبين من ملوك الطوائف بقوله: "وهذه نادرة من طخيات هذه الفتنة البربرية المبيرة، أن تخطت أرض هذه الجزيرة إلى ما وراء بحرها الزقاق، هاجها سفوت البرغواطي المتغلب على مدينة سبته"³⁰⁰.

ويشير ابن بسام إلى المكانة الرفيعة التي تبوأتها مملكة سفوت البرغواطي بين كبريات ممالك الطوائف. وهي المعروفة في كتب التاريخ باسم "الدولة البرغواطية"³⁰¹. إلا أن مملكة سفوت البرغواطي لا تتدرج ضمن سلسلة ملوك بني طريف، ولا ضمن نسق المملكة البرغواطية في بلاد تامسنا. غاية ما في الأمر أن مؤسسها كان من سبي البرغواطيين المتنفذين بقاعدة سبته، قد أفلح في ظل اختلالات الطوائف من إنشاء مملكة طائفية للبرغواطيين ببلاد غمارة. مع ذلك، يبدو أن الأمور المذهبية قد ركنت خلال هذه الفترة إلى الهامش ولم تعد كما في الماضي تثير ما كانت تثيره من جدال. مصداق ذلك، ما ورد على لسان أبي الوليد بن جهور صاحب مملكة قرطبة الطائفية، الذي أورد تفاصيل طريفة بهذا الخصوص قائلا: "وردت علي من الكتب في يوم واحد، كتاب من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة، وكتاب من سواجات صاحب سبته يطلب قارنا

²⁹⁹ معاصر البربر، 186.
³⁰⁰ ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، لبياتونس 1981، ق2 م2، 658.
³⁰¹ الذخيرة، ق2 م2، 661.

يقرأ القرآن³⁰². فاعجب لتبدل الأحوال بين من كانوا يذبون على السنة والجماعة، وبين من كانوا منسوبين للكفر والزندقة، فلم يتمالك ابن جهور عن التصريح لخاصته قائلاً: جاهل يطلب قارناً وعلماء يطلبون الأباطيل³⁰³.

وعلى غرار المحاولات المتكررة من أجل كر الدولة الأموية بالأندلس بعد أفول نجمها، يبدو أن بعض ما تبقى من فلول القبائل المصمودية ببلاد تامسنا، وغيرها من البطون الفنية المغربية المستمسكة بالمذهب البرغواطي، قد تمكنت من استجماع قواها لإعلان استئناف مملكة بني طريف ببلاد تامسنا خلال هذه الفترة المضطربة. وقد أفصح المؤرخون عن استمرار المذهب البرغواطي نشيطاً في بلاد تامسنا على الأقل، إلى حدود هذا التاريخ فيما أوردوه من تفاصيل عن إغره المرص من قسطنطينية اللثام على بلادهم. فبعدما سيطر المرابطون على بلاد سوس، وفتحوا مدن سجلماسة وأغمات، وضموا بلاد تادلة سار بهم عند مدخل يسير إلى بلاد تامسنا ففتحها فأخبر أن بساحلها قبائل برغواطة في عدد عظيم وأنهم مجوس³⁰⁴ وأنهم فضلاً عن كونهم أهل ضلالة وكفر، أخبر [أيضاً] بما تمسكوا به من ديانتهم الخبيثة، بما يذهب دليلاً عن استمرارية المذهب البرغواطي — على الأقل — إلى حدود قيام دولة المرابطين.

وتتواتر الإشارات المصدرية بخصوص آخر ملوك بني طريف البرغواطين الذي ظل يقارع التدفق الصنهاجي المنتظم في إطار دولة الملثمين المرابطية التي أفلحت في نهاية المطاف في وضع حد لمملكته ببلاد تامسنا³⁰⁵. ويتعلق الأمر بالأمير أبي حفص عبد الله من أعقاب أبي منصور عيسى بن أبي

³⁰² البدر المغرب، ج 3، 250.

³⁰³ البدر المغرب، ج 3، 250.

³⁰⁴ الألبس المطرب، 129.

³⁰⁵ لمزيد من التفاصيل عن مراحل التوسع المرابطي بالمغرب راجع:

A Tahiri, "Los almorávides en Mauritania y España una Historia común, los almorávides unificadores del Magreb y al-Andalus (s. XI-XII)", Granada 2003, pp 181-93.

الأَنْصار عبد الله بن أبي غفيرة يَحْمَد بن معاذ بن النعمان بن صالح بن
طريف³⁰⁶.

ولا تخفى المقاومة الشديدة التي أداها البرغواطيون من أهل تامسنا
المصموديين في مواجهة المشروع المرابطي الذي كاد أن يقبر على مشارف
حاضرة البرغواطيين بشالة. وهو ما أشارت إليه المصادر التاريخية بالقول:
وكانت بينهم "حروب عظيمة وملاحم شديدة مات فيها من الفريقين خلق
كثير"³⁰⁷. وليس أدل على شراسة المعارك بين الطرفين، من نجاح البرغواطيين
في اختراق القوات المهاجمة وقتل زعيم الحركة المرابطية عبد الله بن ياسين
سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ودفن بموضع يعرف بكريلة بتامسنا³⁰⁸.

ما كان على المرابطين بعد هزيمتهم النكراء هذه، إلا أن استجمعوا
قواهم ووكّلوا قيادة حركتهم لأبي بكر بن عمر المتوي، موطنين العزم على
احتث المذهب البرغواطي، ومسح آثار مملكة بني طريف من الوجود. لم
يتوقف الأمر عند ذلك، بل سرعان ما تطورت الأمور فيما يشبه عملية إبادة
جماعية لمصمودة تامسنا. فقد "استمر أبو بكر وقومه من بعده على جهادهم
حتى استأصلوا شأفتهم ومحووا من الأرض آثارهم"³⁰⁹. أما من تبقى منهم فقد تم
إحلاؤهم عن البلاد "وتفرقت برغواطة في الصحراء"³¹⁰.

وثمة إجماع لدى قدامى أهل القلم على تأريخ سقوط مملكة بني طريف
ببلاد تامسنا وأقول نجم المذهب البرغواطي بقيام دولة المرابطين بالمغرب
الأقصى. ولم يفلح صاحب كتاب الاستبصار في ضبط تاريخ حدوث ذلك بالدقة
الكافية، إذ قال: "ولم يزالوا يتداولون هذه الديانة إلى غزو عبد الله بن ياسين

³⁰⁶ المعبر، ج 6، 279.
³⁰⁷ الأَنْصار المطرب، 132.
³⁰⁸ لايس المطرب، 132 وما زال موضع قبر عبد الله بن ياسين مرارا إلى اليوم بالمكان المذكور، على سفرة
من عاصمة المملكة المغربية باحوار مدينته شالة الأتربة
³⁰⁹ المعبر، ج 6، 279.
³¹⁰ الأَنْصار المطرب، 133.

نحروني ايهم وفيت دوتهم سنة 499^{٢١١}. بينما سقط ابن عدارتي^{٢١٢} في
 كمل سها - فيما يبدو - إذ قل: ولم يزل كثير من القدائر على مذهبهم في
 عام 352. بينما يصط ابن الحطيب تاريخ ذلك على غير عدته بغير
 وتصن أمر مرعواطة إلى سنة اثنين وخمسين واربعمائة وظهر من
 تمويين... والعرض ملكهم^{٢١٣}.

ك. د. اسماء
 ...
 ... ٥٥ ...

خاتمة

تجدنا إذا عند منتصف القرن الخامس أمام ثاني أكبر اختلال في التوازن القبلي بالمغرب الأقصى، ما زالت تداعياته السياسية والاجتماعية والثقافية متناصلة إلى اليوم. ويتعلق الأمر بتمزيق الكتلة القبلية المصمودية بنخرها من القلب، وبذلك تم فصل فروعها المستقرة بغمارة في شمال البلاد عن امتداداتها الجنوبية بالسوس. وهو الفراغ العمراني الذي لم تتمكن فروع قبائل مغراوة وبني يفرن الرناتية القادمة من هوامش المغرب الأوسط، ولا فصائل صنهاجة اللثام المتدفقة من الصحراء المغربية من ملئه. وبذلك، طلت سهول بلاد تامسنا مجالا مفتوحا للأعراب الذين تدفقوا في شكل عشائر بدوية على مجمل بلاد المغرب خلال القرون اللاحقة، ناشرين الدمار والخراب في المدن والقرى، ومحولين عجلة تاريخ المغرب الأقصى للدوران بالفهقرى.

من ثم أهمية الانتباه إلى خطأ المقولة الشائعة التي روجتها المدرسة الفرنسية والساترين في ركبها من المقلدين المغاربة، الذين نظروا — جهلا بفصول تاريخ المغرب — لاستقرار العرب بالسهول ولجوء البربر الأمازيغ نحو الجبال. وقد ربطوا ذلك — بالفقر في الفراغ نحو الخلف حوالي أربعة قرون — بفترة الفتوحات الإسلامية، التي لم يترتب عنها كما لاحظنا ذلك سلفا أي استقرار للقبائل العربية بالمغرب الأقصى.

والملاحظ أن التحليل العرقي الذي خلص إلى القول باستقرار العرب في السهول بينما لاذ البربر الأمازيغ بالجبال، قد تم تعميمه من طرف ليفي بروفنسال وجمهرة المقلدين المعاربة والإسبان على الوضعية الاجتماعية

بالأندلس. وهو التصور الذي لا يعدو أن يكون مجرد تأملات انطباعية غير موثقة، تستمد أصولها من المناخ الفكري العام الذي صاحب الاستعمار الفرنسي للمغرب. ويتعلق الأمر بانطباع العسكريين الذي ذاقوا بأس مقاومة أبطال المغرب من أهل الريف بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي، فراحوا يميزون بين مغرب السهول النافع ومغرب الجبال الغير النافع، أو مغرب المخزن المسالم ومغرب السبية المقاوم.

واضح من خلال هذا التحليل التاريخي للنسيج المجتمعي بالمغرب الأقصى، أن المجموعات القبلية الكبرى لم تتدحرج عن مواطنها الأصلية، منذ عصور ما قبل الإسلام إلى غاية منتصف القرن الخامس الهجري. فالكتلة النفزية قد ظلت بمواطنها القديمة في بلاد الريف، كما ظلت قبائل غمارة مقيمة إلى اليوم ببلدها. وبالمثل، استمر أهل السوس مستقرين بجبل درن والمناطق المجاورة. كما ظلت بطون بربر فازاز مستقرة بمواطنها المعروفة اليوم بالأطلس المتوسط. أما البرانس وفروعها من أوربة وصنهاجة فقد ظلوا في مراتبهم القديمة بأحواز سقوما ووليلي في اتجاه مقدمة جبال الريف، إلى غاية ساحل مدينة بادس. كما ظلت الكتلة القبلية المكناسية بفروعها المختلفة منتجة بأحواز سجلماسة في اتجاه تخوم بلاد السودان، وعلى امتداد نهر ملوية نحو مصبه بزواغة جراوة. أما قبائل صنهاجة اللثام، فلم تترك مضاربها بالصحراء المغربية الممتدة طوال الأزمنة الغابرة إلى مشارف بلاد السودان، إلى حين اندفاعها نحو الشمال في سياق حركة المرابطين.

إلا أن الشرخ الذي أحدثته السياسة الأموية والعامرية والفاطمية بالمغرب الأقصى خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، والإبادة التي مارستها صنهاجة اللثام ببلاد تامسنا خلال منتصف القرن الخامس الهجري، قد أسفر عن تمزيق النسيج المجتمعي بقلب المغرب الأقصى. ومن ثم انفسح

المجال أمام تغلغل القبائل البدوية الزناتية متدفقة من هوامش المغرب الأوسط. كما تدفقت أعداد غفيرة من قبائل لمتونة البدوية قادمة من بلاد صنهاجة اللثام. أسفر ذلك عن فقدان المغرب الأقصى لتوازنه العمراني، فما كان إلا أن دبت عشائر الأعراب البدوية من بلاد النوبة وصعيد مصر، بإيعاز من الفاطميين الشيعة حكام القاهرة، الذين وطدوا العزم منذ انسحابهم مرغمين من بلاد المغرب على الانتقام منه. وبذلك امتلأت الفراغات الواسعة بسهول تامسنا والغرب وفيما بين الممرات المترتبة عن قرون من الفتن القبلية، بالأعراب النازحين من الأطراف. ولم يكن لتدفق المهاجرين الأندلسيين على البوادي والقرى، وبالأخص على مدن فاس ومراكش وسلا وتطوان طوال العصر الوسيط وبدايات العصر الحديث، أقل تأثيرا على النسيج المجتمعي للمغرب الأقصى.

تجدنا إذا أمام مغاربة بلديين متأصلين في الوطن منذ أقدم العصور، قد ساهموا خلال القرون الأربع الهجرية الأولى في صياغة تاريخ وحضارة المغرب الأقصى بغمارة وتامسنا وجبل درن المصمودية، وبسقوما ووليلي وفاس البرنسية، وبنكور النفزية، وبسجلماسة المكناسية. إنها قرون عز العطاء الحضاري التي ما زالت معظم فصولها مندرجة في طي النسيان ومنفلتة عن المعرفة التاريخية. ويتعلق الأمر بأول مفاصل تاريخ المغرب الأقصى التي ما زالت حلقاتها متناثرة إلى حد الانفلات ضمن متون المصادر التاريخية.

حقيقة أن المجموعات البدوية الزناتية والصنهاجية قد تمكنت من الاندماج في النسيج المجتمعي، والتحكم في القرار السياسي بالمغرب الأقصى خلال عصر الطوائف والمرابطين. إلا أن الكتلة المصمودية لم تتأخر عن الاندفاع في نهضة حضارية عمت العدوتين المغربية الأندلسية. ويخيل إلينا أن دعوة ابن تومرت والفكر المهدي الموحي قد استلهم بعض مبادئه من التراث

البرغواطي، الذي ظلت بصماته عالقة ببعض مناحي الفكر بالمغرب والأندلس، إلى حين قيام دولتهم. وهو ما ندعو مؤرخي الفكر المغربي إلى إمعان النظر في فصوله. ومنذ قيام دولة المرابطين إلى حين سقوط غرناطة اندرج تاريخ المغرب الأقصى ضمن مفصل ثان متميز ندعو المؤرخين إلى التثبيت من حدوده المتناسقة في سياق صيرورة تاريخ الغرب الإسلامي.

وكم كانت الرجة المجتمعية والثقافية والعمرانية عنيفة بتوافد عشائر الأعراب البدوية في موجات متعاقبة من صعيد مصر خلال القرون اللاحقة. وبالمثل، فبينما اندمجت موجات الأندلسيين الأولى المتدفقة إثر سقوط طليطلة على بوادي الريف ومدن بادس والمزمة ومليلة وغساسة ومراكش وغيرها، ظل الأندلسيون ممن هاجروا على إثر سقوط غرناطة وخلال القرون المتأخرة إلى مدن فاس وتطوان والرباط وسلا منغلفين ضمن بيوتاتهم، يتربصون الفرص لاحتجاب الثروة والتحكم في السلطان، متحفظين عن الاندماج في الوطن، محتفظين بحنين غامض لجذور مقتلعة، يورثون ذلك في الأعقاب.

أسفر ذلك عن صياغة ما يشبه ثنائية مجتمعية منشطرة: أعرابية أندلسية طارئة من مصر والأندلس، ومغربية بلدية متجذرة في تاريخ البلد منذ أقدم العصور. وهي المكونات التي ما انفكت تتداخل وتتشابك إلى حد الانصهار في شكل هوية مغربية متجددة، وإن في سياق الاختلالات الحضارية الكبرى التي انتهت بوقوع البلاد تحت طائلة الاستعمار. لعل في هذا التحليل ما يكشف عن سذاجة التصورات الشائعة لدى قطاعات هامة من الفكر المغربي المعاصر - سيما ممن يهتمون بتاريخ البلد ويستحبون نشوة التنظير الانطباعي - بوجود تقاطب مجتمعي بين البربر الأمازيغ من جهة، والعرب الطارئين من المشرق من جهة أخرى. ويصبح الجهل بالفصول الأساسية من تاريخ المغرب مركبا حين يتم ربط هذه الثنائية المزعومة بعصر الفتوحات الإسلامية.

وباستثناء آل البيت الذين كان لهم وقع حص في قلوب كافة المعاربة
لأمازيغ الذين جبلوا على حبهم وتقدير مقامهم وتوفير الموطن الأمن لهم
فأبحاروا إليهم أفرادا — منذ الوهلة الأولى — بعدما تخطفتهم سيوف الفتن
المتعاقبة بديار المشرق وكادت تفنيهم، فليس هناك ما يفصح عن اختراقات
عربية للنسيج المجتمعي المغربي خلال القرون الأربع الهجرية الأولى.

واضح من خلال هذا التحليل أن ثمة مقامات ضمن النسب المجتمعي
المغربي موروثية بشكل متناضد عبر الحقب التاريخية. ويتعلق الأمر في مقام
بول بأصول مغربية بلدية ظلت تلامس — من خلال المجموعات الأمازيغية
النفزية والبرنسية والمصمودية والمكناسية وكذا اللمتونية — كافة ربوع البلد
مواصلة الحلقات بأعماق التاريخ. بينما تطالعا في مقام ثان المستويات
لمجتمعية الحديثة العهد التي طرأت في ثلاث موجات متعاقبة:

1 — الموجة البدوية الربتية المناسبة خلال نهايات القرن الرابع
الهجري في سياق اختلالات عصر الفرقة من تخوم المغرب الأوسط نحو قلب
المغرب الأقصى.

2 — الموجة الأعرابية من البدو الرحل المتدفقة من بلاد النوبة وصعيد
مصر نحو بلاد تامسنا وسهول الغرب وأطراف الصحراء، منذ منتصف القرن
الحامس إلى حوالي منتصف القرن السابع للهجرة.

3 — الموجة الأندلسية الطريفة من ديارها في إطار حركة الاجتثاث
الصليبية وقد لاذت بمدن وبوادي المغرب الأقصى طلبا للأمان، على مدار
الفترة الممتدة من منتصف القرن الخامس الهجري إلى غاية الهجرة الكبرى.
وبصرف النظر عن ضعف المؤثرات الإثنية العربية في كافة الموجات
المذكورة، فمن المعلوم أن العمق الحضاري للعروبة الذي أفلح — أيام الجماعة
— في احتضان ما يند عن الحصر من الأمم والشعوب لا يرتبط بعرق مفترض

إلا في أذهان زمرة من أشباه المثقفين والمتحزبين وقادة العسكر ممن تاهوا في
دروب الفتنة وتافوا - زمن الفرقة - إلى التحكم قهرا في رقاب الخلق بمشرق
خرائب دار الإسلام ومغربه.

نَمِ الْكَتَابُ بِحَوْلِ اللَّهِ

وَحَسَنَ عَوْنُهُ

وَتَوَفَّقَهُ

قائمة المصادر والدراسات



أولاً: المصادر القديمة

- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت 658هـ/1260م)
1- الحلة السيرة (= الحلة السيرة)، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1963.
- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (ت 741هـ/1340م)
2- الأئیس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (= الأئیس المطرب)، الرباط، 1972.
- ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجرري (ت 630هـ/1232م)
3- الكامل في التاريخ، (= الكامل في التاريخ) تحقيق مكتبة التراث، بيروت 1994.
- ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام السريبي (ت 542هـ/1147م)
4- الذخيرة في محاسن أهل الحزيرة (= كتاب الذخيرة)، تحقيق إحسان عباس، ليبيا/تونس 1981.
- ابن بشكوال، أبو القاسم حلف بن عبد الملك (ت 578هـ/1182م)
5- الصلة في أخبار أئمة الأندلس (= كتاب الصلة)، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة 1955.
- ابن الحاج، أبو عبد الله بن الحاج الشهيد (ت 529هـ/1134م)
6- كتاب النوازل (= نوارل ابن الحاج)، مخطوط المكتبة العامة بالرباط، ج 55.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت 456هـ/1063م)
7- جمهرة أنساب العرب (= جمهرة أنساب العرب)، بيروت، 1983.
- 8- رسالة التلخيص لوجوه التلخيص، صمن الرسائل (= رسائل ابن حزم)، تحقيق إحسان عباس، ج 3، بيروت، 1980.
- 9- الفصل في الملل والأهواء والنحل (= كتاب الفصل)، تحقيق محمد إبراهيم نصر/عبد الرحمن عميرة، بيروت، 1985.
- ابن حماد، أبو عبد الله محمد بن علي (ت 628هـ/1230م)

10- أختار ملوك بني عبيد وسيرهم (-أختار بني عبيد)، تحقيق النهامي نوره وعبد الحليم عويس، تونس، 1987.

ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البصري (367هـ/977م)

11- كتاب صورة الأرض (=صورة الأرض)، لندن 1983.

ابن حيان، أبو مروان حيان بن حلف (469هـ/1076م)

12- المقتبس في تاريخ رجال الأندلس (=المقتبس 1937)، نشر منشور أنطونية، باريس، 1937.

13- المقتبس في أنباء أهل الأندلس (=المقتبس 1971)، تحقيق محمود مكي، القاهرة، 1971.

14- المقتبس، ح5، نشر بيدرو شالمينا وفريدريكو كورينطي ومحمد صبح، المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، 1979.

ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت حوالي 300هـ/912م)

15- المسالك والممالك (=مسالك ابن خرداذبه)، تحقيق دس خويه، بريل 1889.

ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني (ت776هـ/1374م)

16- أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام (=أعمال الأعلام 1934)، تحقيق ليفي بروفنسال، رباط الفتح، 1934.

17- المغرب العربي في العصر الوسيط من كتاب أعمال الأعلام (=أعمال الأعلام 1964)، تحقيق أحمد مختار العبادي/ محمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، 1964.

ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1406م)

18- المقدمة (=مقدمة ابن خلدون)، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، 1958.

19- دوائر المبدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان

الأكبر (=كتاب العبر)، صبط خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، 1981.

ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت627هـ/1229م)

20- النشوف إلى رجال النشوف (=كتاب النشوف)، تحقيق أحمد التوفيق، الدار البيضاء، 1997.

ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت 673هـ/1274م)

21- كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان فرنيط خينيس، معهد مولاي الحسن، تطوان 1958.

ابن سهل، أبو الأصبع عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي (ت 486هـ/1093م)

22- كتاب الأحكام الكبرى (=الأحكام الكبرى) مخطوط المكتبة العامة الرباط، رقم 838 ق.

ابن سهل الرازي، أحمد بن سهل الرازي (توفي في الربع الأول من القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر للميلاد)

23- أخبار فخ وخبر يحيى بن عبد الله وأخيه إدريس بن عبد الله (=أخبار فخ)، تحقيق ماهر جرار، بيروت 1995.

ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أعين بن ليث القرشي (ت 257هـ/780م)

24- فتوح إفريقية والأندلس (=فتوح إفريقية والأندلس)، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، 1964.

ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد (ت 712هـ/1231م)

25- البيان المغرب، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (=البيان المغرب)، نشر ج.س. كولان و.إ. ليفي يروفنسال، بيروت، 1980.

ابن الفرضي، عبد الله بن محمد بن يوسف (ت 304هـ/916م)

26- تاريخ علماء الأندلس (=علماء الأندلس)، القاهرة 1966.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 267هـ/889م)

27- الإمامة والسياسة (=الإمامة والسياسة)، تحقيق طه محمد الزيني، دار المعرفة للطباعة

والنشر، بيروت بدون تاريخ

ابن كثير، عماد لدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت

774هـ/1372م)

28- البداية والنهاية (=البداية والنهاية)، تحقيق عبد الرحمن اللانقي ومحمد غادي بيضون،

بيروت، 2002.

أبن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك النوزري (القرن 6هـ/12م) وابن الشباط، محمد بن علي بن محمد المصري النوزري (ت 681هـ/1282م)

29- تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، بشار حداد (= تاريخ الأندلس ووصفه)، تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد، 1971.

أبن وحشية، أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني (ق 4هـ/10م)

30- الفلاحة الببطية، تحقيق توفيق فهد، (3 أجزاء) دمشق، 1993، 1995، 1998.

أبن هشام اللخمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 577هـ/1181م)

31- المدخل إلى نفوس السار وتعليم النبار، تحقيق خوسيه بيريث لاثارو، مدريد 1990.

أبو راس المعسكري، محمد بن الناصر المعسكري (ت 1238هـ/1824م)

32- الحلل السندسية في شأن وهران والحريرة الأندلسية (=الحلل السندسية)، تحقيق سليمة بنعمر، ليبيا، 2002.

أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر (ت 471هـ/1078م)

33- كتاب سير الأئمة وأحبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، 1982.

الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد الحسيني السبي (ت 560هـ/1164م)

34- نزهة المشتاق في احتراق الافاق، (= نزهة المشتاق) مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون تاريخ.

الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم محمد الفارسي الكرخي (ت 399هـ/1008م)

35- المسالك والممالك (=المسالك والممالك)، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني و محمد شفيق غربال، القاهرة، 1961.

البغدادي، عبد العاهر أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي البغدادي (ت 429هـ/1037م)

36- كتاب الملل والنحل (=الملل والنحل)، تحقيق ألبر بصري نادر، بيروت، 1986.

البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو (ت 487هـ/1094م)

37- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، (= المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب) نشر دي سلان، باريس، 1965.

38- الأندلس وأروبا من كتاب المسالك والممالك، (=الأندلس وأروبا) تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، 1968.

البلخي، أبو القاسم البلخي (ت309هـ/921م)

39- مقالات الإسلاميين، في كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة (=مقالات الإسلاميين)، تحقيق فؤاد سيد، تونس 1986.

البلادري، أبو الحسن أحمد بن يحيى البغدادي (ت279هـ/892م)

40- فتوح البلدان، (=فتوح البلدان) تحقيق رصوان محمد رضوان، بيروت 1983.

الجزنائي، أبو الحسر علي الحرثاني الريفي (من أهل القرن 8 للهجرة/ 14 للميلاد)

41- جني زهره الأسر في ساء مدينة فاس (=زهرة الأسر)، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، الرباط 1991.

الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فنوح الأردني (488هـ/1095م) جذوة المقتبس في

42- تاريخ علماء الأندلس، حقق إبراهيم الأبياري، بيروت، 1983.

الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت900هـ/1494م)

43- الروض المعطار في خبر الأقطار (=الروص المعطار)، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1984.

الرفيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم (ت425هـ/1033م)

44- قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب (=تاريخ إفريقية والمغرب)، تحقيق عبد الله العلي الزيدان و عز الدين عمر موسى، بيروت، 1990.

الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت541هـ/1154م)

45- كتاب الجغرافية، (=كتاب الجغرافية) تحقيق محمد حاح صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ.

الزياتي، أبو القاسم بن أحمد (ت732هـ/1331م)

46- الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا (=الترجمانة الكبرى)، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، المحمدية، 1967.

السنوسي، محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي (ت1276هـ/1859م)

47- الدرر السنية في أخبار الدولة الإدريسية، القاهرة 1954.

صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت462هـ/1069م)

48- كتاب طبقات الأمم (=طبقات الأمم)، تحقيق حياة العيد بوعلوان، بيروت، 1985.

الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت599هـ/1202م)

49- بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس (=بغية الملتبس)، القاهرة، 1967.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ/922م)

50- تاريخ الأمم والملوك (=الأمم والملوك)، بيروت، 1987.

عبد الله بن صالح

51- نص جديد في فتح العرب للمغرب لعبد الله، (=فتح العرب للمغرب) نشر ليفي

بروفنسال، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد 2، السفر 1-2، مدريد 1954.

العذري، أبو العباس أحمد بن عمر بن أسد الدلاني (ت478هـ/1085م)

52- ترصيع الأخبار ونوع الآثار والسير في عرابة النلدان والمسالك إلى جميع الممالك

(=ترصيع الأخبار)، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965

القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض السبتي (ت544هـ/1149م)

53- ترتيب المدارك وتقريب المسالك في التعريف بأعلام مذهب مالك، تحقيق سعيد

أعراب، الرباط، 1982.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ت821هـ/1418م)

54- قلائد الحمان في التعريف بقبائل عرب الرمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة،

1963.

مجهول،

55- كتاب مفاخر البربر، (=مفاخر البربر د 1020) مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم د

1020

56- كتاب مفاخر البربر (=مفاخر البربر ك 1275) مخطوط المكتبة العامة بالرباط، رقم

ك 1275.

مجهول،

57- كتاب مفاخر البربر، ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر بالعرب الإسلامي (مفاخر البربر 1996)، تحقيق محمد يعلى، مدريد 1996.

مجهول،

58- أخبار مجموعة في فتح الأندلس (=أخبار مجموعة 1867)، نشر إيميليو لافونسي القطر، الأكاديمية الملكية للتاريخ، مجريط 1867.

59- أخبار مجموعة في فتح الأندلس (=أخبار مجموعة 1989)، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة - بيروت، 1989.

مجهول،

60- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (=الحلل الموشية)، تحقيق سهيل ركار وعد القادر زمامة، الدار البيضاء، 1979.

مجهول،

61- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، (=كتاب الاستبصار) تحقيق سعد زغلول عد الحميد، الدار البيضاء، 1985.

المرتضى، المهدي لدين الله أحمد بن يحيى بن المرتضى بن المفصل بن منصور الحسني اليماني (ت 840هـ/1436م)

62- كتاب المنية والأمل في شرح الملل والنحل، تحقيق محمد جواد مشكور، بيروت، 1979.

المراكشي، محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي (كان حيا سنة 1224/621م)

63- المعجب في تلخيص أخبار المغرب (=المعجب)، تحقيق محمد بن سعيد العريان/محمد العربي العلمي، القاهرة، 1949.

مسلمة المجريطي، الفيلسوف الحكيم أبو القاسم مسلمة بن أحمد الأندلسي المعروف بالمجريطي (ت 398هـ/1007م)

64- غاية الحكيم في الرصد الفلكية والطلاسم الروحية، نشر محمود نصار، طبع بلسار، بدون تاريخ.

المقري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (1041هـ/1631م)

65- نفع الطب من عصر الأندلس الرطب (=نفع الطب)، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968.

الناصرى، أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي (ب1279هـ/1862م)

66- كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (=الاستقصا)، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1954.

النويرى، سهب الدين أحمد بن عبد الوهاب (732هـ/1331م)

67- تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية العرب في فنون الألب (=نهاية العرب)، تحقيق مصطفى أبو صيف أحمد، الدار البيضاء، 1985

الوزان، الحسن بن محمد الورى القاسي المعروف بلون الإفريقي (توفي بعد عام 957هـ/1550م)

68- كتاب وصف إفريقيا (=وصف إفريقيا)، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، 1983.

الواقدي، أبو محمد عبد الله بن عمر بن واقد المدني مولى بني هاشم (ب207 هـ/822م)
69- فتوح إفريقية (=فتوح إفريقية)، تونس، 1966.

الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى التلمساني (ت914هـ/1508م)

70- المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب (=المعيار المغرب)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1991.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ب626هـ/1229م)

71- معجم البلدان (=معجم البلدان)، دار صادر، بيروت، 1995.

72- Cronica de Alfonso III «A. Sebastian», in Crónicas Astunanas, Introduccion y edicion critica de Juan Gil Fernandez, Universidad de Oviedo, Oviedo, 1985

ثانيا: الدراسات العربية الحديثة

إبراهيم خلف العبيدي

73- الدرغواطيون في المغرب، منشورات الجامعة، الدار البيضاء، 1983.

أحمد الطاهري

74- "العامة والاتجاهات الفكرية بالأندلس في عصر الخلافة"، (=العامة والاتجاهات الفكرية) دراسات عربية، العدد 3، السنة 22، بيروت، 1986.

75- الطب والفلاحة بالأندلس بين الحكمة والتجريب، مساهمة في التأصيل التاريخي للتراث العلمي بالغرب الإسلامي (=الطب والفلاحة)، البيضاء، 1997.

76- فصول منسية من تاريخ المغرب، إمارة بني صالح في بلاد نكور، الأصول التاريخية وبواكير النمو الحضاري والعمراني بالعرب الإسلامي (=إمارة بني صالح)، الدار البيضاء، 1998.

77- "بلاد الريف: المصطلح والعمران من خلال المصادر العربية"، ضمن التمدن والتعمير في جبال الريف بالمغرب، منشورات مجموعة البحث الجغرافي حول جبال الريف، كلية الآداب تطوان، 2003، 9-17.

78- الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد: من نظام التثمين التعاقدية إلى نمط الإنزال الإقطاعي، (الفلاحة والعمران القروي) مركز إسكندرية للكتاب، إسكندرية، 2004.

79- "المناخ الحضاري بالمغرب والأندلس وتقدم تقنيات ومناهج العلوم التجريبية"، ضمن مفهوم التقدم في العلم، منشورات كلية الآداب والعلوم الأساسية، الرباط، 2004، 123-50.

80- "ابن وحشية، موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين"، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس (تحت الطبع)

أنخل جنثالث بالنثيا

81- تاريخ الفكر الأندلسي، القاهرة، 1955.

سحر السيد عبد العزيز سالم

82- المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية، 1993.

عبد الرحمن سالم

83- التاريخ السياسي للمعتزلة حتى القرن الثالث الهجري، القاهرة، 1989.

محمد الطالبي

84- البرغواطيون في المغرب، الدار البيضاء، 1998.

محمد المنوني

- 85- المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح إلى نهاية العصر الحديث، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، ج1، الرباط 1983.

محمود إسماعيل

- 86- "المعتزلة بين النظر العقلي والعمل السياسي"، ضمن: الحركات السرية في الإسلام رؤية عصرية، بيروت، 1973.
- 87- الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري (=الخوارج في بلاد المغرب)، الدار البيضاء، 1976.
- 88- "المعتزلة في المغرب تأصيل تاريخي"، ضمن مغربيات دراسات جديدة، فاس، 1977.
- 89- "حقيقة المسألة البرغواطية، أصواء جديدة"، ضمن مغربيات، فاس، 1977.
- 90- "محنة المالكية في إفريقية المغربية رؤية اجتماعية"، ضمن مغربيات دراسات جديدة، فاس، 1977.
- 91- الأدارسة في المغرب الأقصى حقائق جديدة (=الأدارسة)، الكويت، 1989. ١

ثالثًا: الدراسات بلغات أخرى

AUTOR ANÓNIMO,

92- "Yakuch, Dios Bereber", *Diario de África*, el 5 de Agosto de 1949, pp. 123-125

GAUTIER, E. F.,

93- *L'Islamisation de l'Afrique du Nord, Les siècles obscurs du Magreb*, Paris, 1927

MARÇAIS, G.,

94- *La Berbène musulmane et l'Orient au Moyen Age*, Beyrouth 2003

PALACIOS, A., *Ibn Massarra y su escuela, obras escogidas*, T. I, Madrid 1946

MARCY, G.,

95- "Les Dieux des Abâdites et des barguâta", *Hespens*, T. XXII, Fasc. I, Paris, 1936

MEZZINE, L.,

96- "Sur l'etymologie du Toponyme Sijilmassa", *Hespens Tamuda*, vol. XXII, 1984, pp 19-25

PALACIOS, A.,

97- *Ibn Massarra y su escuela, obras escogidas*, T. I, Madrid, 1946.

SLOUCH N.,

98- "L'Empire des Bergouata et les origines des bleds siba", *Revue du Monde Musulman*, T. X, N° 3, 1910.

TAHIRI, A.,

99- *Agricultura y poblamiento rural en Sevilla durante la época abbadí*, Área de Cultura y Fiestas Mayores Ayuntamiento de Sevilla, Sevilla, 2001

100- *Las clases populares en al-Andalus*, Editorial Sarria, Málaga, 2003

101- "El Magreb al-aqsa en la segunda mitad del siglo X La intervención de Muhammad b. Abi Amir", in *Al-Andalus y el Mediterráneo en torno al año Mil. La época de Almanzor*, Colección Historia 3, Algeciras, 2003.

102- "Los almorávides en el Magreb", in *Mauritania y España una Historia común, los almorávides unificadores del Magreb y al Andalus (s XI-XII)*, Granada 2003

103- *El Rif en el Magreb y al-Andalus durante los primeros siglos del Islam (ss. VIII-IX)*, Fundación El Legado Andalusi, Granada (en prensa)

VALLVE BERMEJO, J.,

104- *La división territorial de la España musulmana*, C.S.I.C., Madrid, 1986

مقدمه

اول

ثاني

ثالث

رابع

خامس

اول

ثاني

ثالث

رابع

خامس

فهرس الموضوعات

مقدمة 7

الفصل الأول

نشأة بلاد المغرب

فصول الانتقال من العهد القديم إلى دار الإسلام

- أولاً: في المصطلح والأصول: المغرب أم بلاد طنجة 15
ثانياً: بلاد المغرب بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين 23
ثالثاً: المقاومة المغربية للخلافة الأموية 30
رابعاً: إسلام أهل المغرب الأقصى 59
خامساً: ولاية المغرب الأقصى: النشأة والأصول 67

الفصل الثاني

بواكير التيارات الفكرية والمذهبية

بالمغرب الأقصى

- أولاً: مذهب أهل السلف في الاستقامة والإقتداء 88
ثانياً: مذهب الخوارج الصفرية والإباضية 94
ثالثاً: الحركة الاعتزالية للواصلية 109
رابعاً: التشيع الزيدي والإمامي والإسماعيلي 116
خامساً: المذهب البرغواطي 125

الفصل الثالث

إمارة بني طريف البرغواطية

ببلاد تامسنا

أولاً- بلاد تامسنا وأهلها: المصطلح والأصول 151

ثانياً- المملكة البرغواطية: النشأة والتطور 154

1- تأسيس دولة بني طريف (122-125) 154

2- صالح بن طريف وصياغة المذهب البرغواطي (125-172) 160

3- عهد إلياس بن صالح والبعد الصوفي (172-222) 170

4- يونس بن إلياس وترسيم المذهب البرغواطي (222-266) 174

ثالثاً- العصر الذهبي للإمامة البرغواطية 178

1- محمد بن معاد أبو غنير وإعلان الخلافة (271-299) 178

2- عبد الله بن محمد أبو الأنصار في عر الإمامة (299-341) 184

3- عيسى بن عبد الله أبو منصور سابع الأئمة (341-368) 200

رابعاً- اختلال وسقوط المملكة البرغواطية 206

1- صالح بن عيسى واختلال المملكة (368-372) 206

2- بقايا المملكة البرغواطية إلى حين سقوطها سنة 452 208

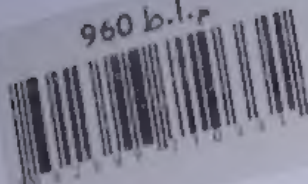
خاتمة 217

قائمة المصادر والدراسات 223

فهرس الموضوعات 237



960 b.l.p





الدكتور أحمد الطاهري

صدر للمؤلف

- 1- جامعة قرطبة في عصر الخلافة دراسة في التاريخ الاجتماعي الأندلسي، الرباط 1989.
- 2- التاريخ الأندلسي من خلال النصوص (بالاشتراك)، الدار البيضاء، 1991.
- 3- دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس، عصري الخلافة والطوائف، الدار البيضاء، 1993.
- 4- الطب والفلاحة بين العظمة والتجريد، مساهمة في التأصيل التاريخي للتراث العلمي بالعرب الإسلامي، الدار البيضاء، 1997.
- 5- فنون منسية من تاريخ المغرب، إمارة بني حاتم في بلاد نكور، الأصول التاريخية وبواكير النمو الحضاري والعمراني بالعرب الإسلامي، الدار البيضاء، 1998.
- 6- نص أندلسي من العصر المرابطي مستخلص من أصل فلاحى مفقود لمحمد بن مالك الطنجري، اختصارات من كتاب الفلاحة، وضع ابن ليون التجيبي، دراسة وتحقيق، الدار البيضاء، 2001.
- 7- فهرس مكتب الطب والفلاحة والنبات المخطوطة بالمكتبة العامة بالرباط (بالاشتراك)، الدار البيضاء، 2002.
- 8- الفلاحة والعمران القروي بالأندلس، من نظام التمييز التعاقدى إلى نمط الاندزال الإقطاعي، مركز إسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 2004.
- 9- جامعة إشبيلية في عصر بني حماد، الإمارات العربية المتحدة (قيد الطبع).
- 10- Agricultura y poblamiento rural en Sevilla durante la época 'abbādī, Área de Cultura y Fiestas Mayores, Ayuntamiento de Sevilla, Sevilla 2001.
- 11- Las clases populares en al-Andalus, Editorial Sarriá, Málaga, 2003.
- 12- Rif el Magrib y al-Andalus. Organización del territorio en occidente islámico Fundación el legado andalusí, Granada, en prensa.
- 13- كما صدر له ما يلي من خمسين مقالا في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس باللغات العربية والإسبانية والفرنسية والإنجليزية بالمجلات وأعمال الندوات والدوريات العلمية بالمغرب ومصر ولبنان وإسبانيا والبرتغال وفرنسا.